

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطلبة دار العلوم العليا

سازمان ادب و هنر ایران

ف

العصر العباسي

بغير الانزاس والمقرب

۱۲۳

الشيخ

مدرس أدب بدار العلوم

الطبعة الثانية

193V - A 1507

oboeikandi.com

العصر العباسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية في هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية، وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان: - فريق يحن إلى الدولة الدائلة، ويود أن لو عاد الزمن بها على الألقاب، وآخر يرى أن ما فعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوي الحق الأصيل افتراء وطغيان^(١)، فكان من الطبيعي حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب، إلى غيرهم في تثبيت قواعدها، وتصريف شئونها، ولم يك هناك غير سوى الفرس، وإن كانوا في عقيدتهم علويين،

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء علي، لأنهم فوق ورثتهم للعباس «وإرث النبي في عمومته دون أبناء علي من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى» قد تنازل لهم عن حقهم في الخلافة هؤلاء إلا أبناء، ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب نزل مقبلاً بقرية الحريمة بالشرارة من الشام لدى علي بن عبد الله ابن العباس، وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذي آل بهد علي إلى ابنه محمد فأقام الدعاة وجعل عليهم النقباء وسرحهم إلى خراسان. ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتمد به منهم يجعله حجة على أبناء علي من محمد بن الحنفية دون أنثائه من فاطمة المتول.

ذلك لأنهم انساقوا في تيار السلطان الجديد، ولو إلى حين، وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء؛ ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة «بغداد» في أحضان الفرس، فكان ثم زيادة في التجاور واختلاط، ولكن سلطان الفرس على ماصار له من نفوذ، لم يقو أن يتغلب في القرن الأول على سلطان الخلفاء، لقوة شخصيتهم، وفتوة دواتهم؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبي مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، احتفاظا للخلافة بالنفوذ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول، بعصر سيادة الدولة، واكتمال السلطان. غير أنه حدث في آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمده بحكم فتوته، وقوة بدنه، وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمي، بأعمال الرياضة والفروسية، إلى عدد من الأتراك الخدم، جعلهم في هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه، وانساق في سبيل الاستكثار منهم، حتى بلغوا كما قال المؤرخون: السبعين ألفا، وصار لهم في بغداد شغب واعتداء جأر له أهلها بالشكوى منهم والاشتمزاز. وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر، ومهام الشئون ملهية له وهؤلاء، أن ينساقوا في هذه السبيل الرياضية، إلى حيث يريدون، فهجروا بهم إلى مدينة أسسها لهذا الضرب من المجون، هي مدينة «سر من رأى» أو كما قد يقولون «سامراء» فابتعد بهذا أن يلي أمور الدولة عن كتب، كما ينبغي أن يكون، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى الوراء، بقدر ما عظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف، ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئك الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاها ونفودا، وما هو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس في النفوذ، ثم ما هو إلا أن استلبوه منهم، واستبدوا به عليهم؛ ولقد زاد من نفوذ هؤلاء، بقدر ما أضاع من نفوذ الفرس، مجيء المتوكل على الله سنيا متشددا، وإيخاله في حرب الشيعة الذين كان للآمون على مذهبهم، وجاء من بعده غير معارض لهم، المعتصم، والواثق - والفرس كما علمت متشيعون مفرقون - نخات المتوكل وان شئت فقل للخدم الأتراك الساطرة في بغداد، واعتبر هذا عصرًا ثانيًا هو عصر الخدم أو العصر التركي الأول، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثاني من الدولة في الاستبداد بأموورها عند حد، فتناول طغيانهم أكثر مما تناول أشخاص الخلفاء، وأول ما حدث من فظائعهم حدث المتوكل على الله، فانهم جردوه من كل سلطة، وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده في محاربة التشيع، وإذا حاول الإبقاء على شيء من هيبة الخلافة، تأمر وامن ابنه المنتصر على قتله وقتلوه، فكان هذا فتحا لطريق جديدة في التخلص من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحداث أحداث في التعذيب والتقتيل، والمعدن المقتلون بمعزل عن المعين والنصير^(١)، حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها، وحدثت الأُمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما في أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وضلاح، وزخرت بكل مافي الطوق

(١) قتلوا المعتز بجرحه من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى الموت بعد إيقافه في الشمس وضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر.

من شر وفساد، ووجل خوف الخلفاء من أولياء اليهود، وخوف أولياء اليهود من الخلفاء، أن يستكثر كل فريق من أولئك الخدم ليكونوا عليه حراساً، وله جمواسيس، وفعلوا كان حتى شجبت بغداد بجيوشهم، وصار من استعان بهم العوبة في أيديهم^(١)، وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعيف للدولة، وفتور أعقب قرنهما السالف، قرن الفتوة والساطان، وما زالت الحال على هذا النسق من البوار، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم، وهي دولة آل بويه في تخليص بغداد منهم، فخلصتها أيام المستكني بالله، سنة ٣٣٤ وبدا بذلك عصر عباسي ثالث، هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات.

مهد العصر العباسي الثاني وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة، واستبداد قوى النفوذ في الأقاليم، فلم يكديتنصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدي عدد من الأسر المختلفة الأجناس، وإن بقي معظمها لا كلها يدين بالمظهر الديني لخلفاء بني العباس. فمن الأسر الفارسية :-

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ - ٣٨٩ هـ
والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ
ومن التركية :-

(١) يؤيد ذلك ما رواه الفخري عنهم من أنه لما تولى المعتز، أحضروا المنجمين وقالوا لهم :- انظروا كم يبقى الخليفة في الخلافة وكم بعيش؟ وكان في المجلس أحد الظرفاء. فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، قالوا فكم تقول؟ فقال: « ما أراد الاثرالك » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.

الأخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ

والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ

ومن العربية :-

الحمانيون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ

والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف، أن ينمحي معظم الدويلات
ما ذكرنا وما لم نذكر، على أيدي ثلاث منها تحولت إلى دولات، هن الغزنوية،
وقد تغلبت على السامانية وغيرها في تلك الأصقاع، والفاطمية، وقد
تغلبت على الحمانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين، ثم البويهية
وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فاعتبر هذا بدء العصر العباسي الثالث
كما ذكرنا (١) وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والغرب غربا،

(١) جد البويهيين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم إلى ملوك
الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكنائهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم
وقد أنجب بويه هذا في ثلاثة أنجاد، هم علي وحسن وأحمد، نبغوا في الفروسية
وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الراضى بالله المتوفى
سنة ٣٢٩ فكان علي في فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا ثلاثتهم
على تخليص بغداد من أيدي الأتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفي بالله
فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان
أن بقي معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائمين منهم
بعده في بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده
نمها إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك .

والفرس وسطاء، وبقي ذلك قرناً وبمض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسي الأخير.

لم تكد الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تم القرن الأول من حكمها، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوقية، التي أنشأها رجلها الأول سلجوق بن بكتاك بالتركستان سنة ٤٢٩ ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد، طمع في اكتساح الممالك الإسلامية، وتقرّب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفاً حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسي الأخير، الذي مكث أكثر من قرنين، إذ بقوا بها إلى حيث أخذ التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦.

ومن جسام الأحداث التاريخية في هذا العصر: اختلال الغريبيين بالمشاركة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان، ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب. تلك هي الحال السياسية العامة للعصر العباسي ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول، عصر نفوذ الخلفاء، وهذا هو الطابع العام لكل عصر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم وما إلى الآداب والعلوم.

طابع كل عصر وأثره العام

في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسي بتلك الألوان السياسية التي حولته
أربعة عصور، الأثر الظاهر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم.
« العصر الأول »

ففي العصر الأول عصر قوة الخلافة وسُلطان بغداد، كان الخلفاء
مصدر أدب وعلم، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ.

فهم أهل كفاح وجلاد في تثبيت سلطان الدولة الجديدة، ألمح في
إشراع الرماح، وإشهار السيوف، وتسمعه في الخطب تقذف الحمم وتطير
الشمر، وتقرؤه فيما يصدر من رسائل دامغة الحجة مفحمة البرهان،
ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء.

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة بالغة بفنونه يروون الشعر وينقدونه،
ويستمعون للشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويؤثرون بينهم نار التنافس
والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضل، ولهذا تراهم على أبوابهم
الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد.
ثم هم أهل علم بخالطون العلماء مخالطة حوار ونقاش، عارفين بقيمتهم،
حافظين لمسكاناتهم، حافزين لهم، مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما
تطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثاني أبي جعفر
المنصور، ذلكم العبد الخضم، الذي لم يأل جهدا في وضع الأساس لنشأة
العلوم المختلفة من شرعية ولسانية، وفلسفية وقفاه من بعده خلفاؤه
الأقربون وناهيك بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النهضة العلمية في متنوع العلوم والفنون، وإنه لمعجب عاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهنود بفضل ما خلفائه من تذهيظ حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين^(١).

ومما يعد مظهرا جديدا في هذا العصر، مما صار للموالى فيه من رفعة شأن، ومعرفة قدر، بحكم ما لهم من فضل تأسيس الدولة، ومعاونة خلفائها في النهوض بها، بعد الذي كانوا يلاقونه على المهد الأموى من جفوة واحتقار، بل تعذيب واضطهاد^(٢)، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفاتر علم اشتمد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدي بها.

وكان الرشيد أكثر سابقه رغبة في العلم كما كان حفاظا للشعر نقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة، الأول من حيث الابتداع والإيجاد والثاني من حيث التذهيظ والتشجيع.

أما المأمون فنفضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان في الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين في عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من تمتعهم بها في صدر الاسلام كثيرة: منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه. روى الأضاني أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بشير إلى وإلى المدينة يومئذ ابراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته وضربه مائة سوط وحلق لحيته واجامه وفي ذلك يقول ابن بشير:

ويجبرون إزاء العرب بما ترضونهم، وقابل العرب ذلك منهم بالانكار والجحود؛ ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى أعلن أمر الشهوية، وعظم شأنها، كل ذلك والخلفاء يتواصون بالموالى ويطلبون لهم من أبنائهم وذوى قرباهم مثل ما كان يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا في نهضة هذا العصر والسير به قدما إلى الإمام .

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم في التشيع منذ عهد المأمون الذى كان شيعيا، والذى أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبي دواد وزيره معتزليا، وبجي بن أكتهم وزيره أيضا منيا، جعلهم يرسلون الفكر فى البحث الدينى من غير عنان، حتى تعددت البدع الدينية، وانتشرت الزندقة والالحاد، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميا وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان، فزينوا وحجبوا كما كانت تزين وتحجب النساء، غير أن هذا الضرب من المجون والاهو، كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن فى عواصم دول القوة والسلطان .

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الخواجا والحدود ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذى لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه . وحوادث الحجاج فى إيذاء الموالى جاوزت كل حد وفاقت كل معقول فقد كان يسممهم بالوشم ويحصرهم فى دوائر لا يتعدونها ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا .

العصر الثاني

وفي العصر العباسي الثاني، أخذ كل ما ذكرنا يتراجع إلى الوراء، لأن منشأ تقدمه كما رأيت، كان قوة الخلفاء، وأنهم علماء أدباء، وأن أولياء عهدهم وأعيان دولتهم، كانوا لهم في ذلك محاكين، وبهم مقتدين، أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء اليهود في القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب، وأصبح الخدم أعياناً لا عهد لهم بالعلم والأدب، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جداً قريب، فقد انغمس أولئك فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة، فسكن لهم مع السراري المختلفة، والقيان المغنيات، مع ما يحف بهم من غلمان وخصيان، وما عدا جدهم مخالطة الخدم المذكورين، فغاب عنهم اللهو والترف، وانطلق هؤلاء المصرفون لأمور الدولة في تصريف أمورها انطلاقاً بعد بهم بمعاملة تكونهم عن الناحية الأدبية العلمية، وكان في الناحية السياسية عاجزاً في الأقاليم، وفاسداً في بغداد، ومن أجل ذلك وقفت الدماء التي كانت جارية متدفقة في شرايين الدولة بكل أسباب الحياة، وتبدلت من حررتها زرقعة سامة قاتلة أو صفرة ناحلة مضمضة، فأخذ العلم بهجر بغداد برحالة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الحيرة فيها، وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها، وإن كان أنى تعود الحركة العلمية إلى دورتها، أو يجد الشعراء من يعطى، وإن طلبوا. قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والهوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذي كان بأيدي بغداد، وإذن فليكن العصر الثاني، عصر الضعف والخمول والضعمة والانحطاط تموت فيه الخطابة، ويضعف الشعر، وتوقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد منى فوق ذلك كله بما قيد الأفكار، واحتبس الأنفاس عما كانت قد سبغت فيه من بحث حرطايق، فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة، محاربا للتفكير، بعكس ما كانت عاياه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق، فقل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام، ثم وقف تيار الفلسفة بقله النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ عما حددت اللغة من معان، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ما حدث من خروج، ومحاولين إرجاعه إلى ما يريدون من إصلاح^(١)، وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا^(٢)، على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه أطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن، ووضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ.

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة، ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

(١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح

من كلام العرب ليعتصم به الناس عماساد كلامهم من أخطاء .

(٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٢٦ هـ .

ومنه فى الشعر نقد الشعر لتقديمه بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

العالم الاسلامي كله، فالتجبت نحوها الأنظار من مختلف الأقطار،
وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون، حتى كانت في العصر
العباسي الأول، على ما قدمنا من ازدهار. ثم أصابها فتور وكساد في
العصر الثاني، خضوعاً لما ذكرنا من أسباب، غير أن ذلك الفتور لم يكبد
يقضى على ما كان من نبوغ في العصر الأول، حتى تأسست الدويلات
في العصر الثالث الذي نحن بصدد الكلام فيه الآن، وهو إن قضى فيما
قضى على بغداد نفسها، فقد خلق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت
ما كان قد انقطع، حتى أصبحت كل منها بغداداً يؤمها الأدباء والشعراء،
ويقيم فيها العلماء والمؤلفون، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أعادوا
لها سابق مجدها وعزها، وسالف حضارتها وسلطانها، ولكن لا غلى أن
تكون منفردة كما كانت، بل على أنها حاضرة من حاضرات، نعم إن
مركز الخلافة بقي لها وحدها دون الدويلات واسكن بعضها رفض
هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكافاطميين، منذ
أن كان لهم وجود، ومن دان بهذا المركز لم يعد في ذلك الناحية الدينية
البحثة، أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان، ولعل هذا
الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات، كان عاملاً فعالاً في
اشتداد التنافس بين رجالها وفي حفز الهمم إلى أن تسود كل صواحباتها
فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم، فقويت الحركة العامة بعامل التنافس
والتشجيع، وعلا نجم الأدب، وراجت سوق الفنون، كما قويت بعامل
آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها، ومن اختلط بهم في سياستها
من ساداتها وعميونها، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسي

الطبيعى عامل النشوء والارتقاء.

وإلى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات، عن آل بويه والفردوسيين والفاطميين الذين آل إليهم حكم العالم الإسلامى إذ ذاك .

كان آل بويه علماء أدباء، وكثير منهم شعراء، يحبون العلم والأدب، ويبحثون رجالهما على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء ويغمرونهم بالعطايا والصلوات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون، كما لا يولون ولا يستقضون، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب . فعز الدولة استوزر الحسن المهابى الأديب الشاعر، وركن الدولة استوزر ابن العميد الخنجرى عن التعريف، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد، وكذلك استوزره خفر الدولة أخوه، وكان عز الدولة بن معزها شاعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه، وكذلك أبو العباس بن ركن الدولة^(١)، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا فى عدة فنون

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله :-

اشرب على قطر السماء القاطر فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك إذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين الغصون مصنف مثل القيات رفصن حول الزامر
ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بويه وقد نكب بالحبس من جهة أخيه
أبى الفوارس قوله :-

هب الدهر أَرْضانى وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأمير
فمن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

يستجبت العلماء على التأليف ، ويغفرهم بالأموال ، ويقصد به قول الشعراء ^(١) ، ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباضعات في العلم والأدب ، كما كان شغوفاً بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده ، عارفاً لأساليب الكتابة ، ذا اقتنان في إنشائها ^(٢) فهو في هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله في خارج أرسل بطلب الأمان بعد أن ضيق عليه
أُفَّاق حين وطئت ضيق خناقه ينبغي الأمان وكان ينبغي صارما
فلأركب عزيمة عضدية تاجية تدع الأنوف رواعما
ومن شعر أبي العباس مبدعا :-

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس في فم الندمان تغرب
فحككت حين تجلت قمرًا يلثم كوكب
ورد خديته جنى لكن الناطور عقرب
فاذا مالدغت فالـريق درياق مجرب

(١) ألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو ، وأبو اسحق الصابي كتاب التاجي في أخبار آل بويه ، ورحل إليه المتنبي رحلات ملأت فم الزمان .

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزبر لتهال فيه قصيدة الأنباري التي مطلعها :-

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه في الكتابة ما كتب به إلى أفتكين التركي صاحب دمشق وقد غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه الممدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحددة الكلمات لولا النقط والشكل وهي « غرك عزك فصار قصار ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا هدا » .

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزراءهم فيها الصاحب بن عباد المذكور، فقد كان عالما كاتباً شاعراً يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء اللئاث، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء.

ولم يأل الغزنويون جهداً في نصرة العلوم والآداب - وإن كانوا أحدث فيها عهداً من آل بويه - مع إشتغالهم شرقاً بالغزو والفتوح، فقد كان مجلس سلطانهم محمود آهلاً بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذي اقترح على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأ نظمها الدقيقى باقترح نوح بن منصور الساماني، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه إليه، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسي واستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض. غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد.

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله، وناهست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة ومملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد في أيامهم سلاجقة أتراك، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والعزير والحاكم، فقام المعز بإنشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب في قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز ، واستكثر فيها من المؤلفات ، واقتدى به في إنشاء خزان الكتب بالقصور جماعة من أهله ، ثم جاء الحاكم فأنشأ دار الحكمة وتدعى دار العلم أيضا بجوار قصره الغربي وحمل إليها جميع أنواع الكتب وبالغ في فرشها وزخرفتها ووقف عليها أملاكاً تنفق من غلتها ، وأقام مشرفين ينظمون طريق الانتفاع بها ، وأباح المناظرة بين المترددين عليها ، وسهل للنقلة منها سبيل النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق . ولم يكن اشتغال الفاطميين بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه مقصوراً على علوم الدين واللسان ، فقد خدموا علوماً كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة ، وبقى رصد الحاكم على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بنى الطوسي مرصده بمراغة تركستان سنة ٦٥٧ ، ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار في حضرات الخلفاء ، وأمراء أسرتهم ورجالات دولتهم ، وكانت كثرتهم أدباء شعراء تبصر جيد القول وتجزل عليه العطاء .

ولم يعدم العلم والأدب نصيراً من الدويلات الكثيرة التي قامت ردحا مع هذه الدولات الثلاث ، فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك في بخارى كثير ، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور ، الذي كتب إلى صاحب بن عباد يستدعيه إليه سرا حتى ينوض إليه وزرائه ، والذي جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة في كل فن . وآل حمدان بحلب والموصل أشهر من أن يخاض في نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء الشعراء ، وإن في أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلاغا فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر، يلقون منه حواراً ويشهدون نقداً، ثم ينقلبون راجعين بشئ الجوائز وعظيم الهبات، وهناك غيره وإن لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير. ولو امتد الزمن بالأخشيديين أكثر من ثلث القرن الذي كان لهم لوجدناهم كتمسك الأمارات في تقريب رجال العلم ونصرة الآداب، على أن أبا المسك كفوراً الذي نشأ مع هذه الأمارات عبداً لأول أمراءها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها، ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى أمارتها، ولم يمت إلا قبيل سقوطها، قد ترك لنا في سيرته إكرامه العلم والعماء، وامتداح المتنبي شاعر العربية إذ ذاك إياه، وفي هذين إثبات لما أردناه.

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء في المشرق والمغرب الأقصى، وبمثلته في كل ما ذكرناه بالاندلس من الغرب، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها، فتكونت المعاجم اللغوية واستوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامي إلى أسلوب أصبح قاعدة، وظهرت الروايات والقصص، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبي، وحسب هذه السعة العالمية بياناً أن زادت فروع العلوم إذ ذلك لدى محصيه على ثلثمائة كتاب قسمتها كتب الإحصاء، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدن الحديث إلا في القرن الماضي أي بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها كعلوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران^(١)، فلا عجب أن

(١) فن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لابرهيم بن المهدي

عرف هذا العصر بعصر نهج العلوم . وقد أعقب هذا النهج وكثرة التأليف ، إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضا ، ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعي لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشيعا الفاطميون ، أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو سنين ، كما لنا أن نسميه أيضا عصر توطن الآداب والعلوم ، ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدنها كالبخاري والبيهقي والرازي وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالحيري والمازني أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسي في أرجاء المملكة الإسلامية فحكمها السلاجقة في الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، والأيوبيون في مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين ، ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث في كل من

ولأراهم بن العباس الصولي ولعلي بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألف في السياسة على إجمالها أبو زيد البليخي ، وفي المدينة منها الفارابي ، ولطوطوشى فيها سراج الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبي الفضل بن علي الدمشقي وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت في هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة تتناولها عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا .

الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به
سابقه كثيرا أو قليلا في شتى الأمور .

فأما في الدين فبعد أن كان المذهب الشيعي الغلبة على المذهب السني
بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا، ذهبت ريحه بذهابهم وجاء
المذهب السني يكتسحه ويعفى عليه بصو لجان السلاجقة شرقا والأيوبيين
غربا، والسلاجقة سنيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين
مضادا للشيعة محاربا لها منذ عهد المترك على الله . وكذا الأيوبيون مذجاءوا
على الدولة الفاطمية غالبين ولها مديان، حتى لقد حرم صلاح الدين
تدريس المذهب الشيعي بأزهر الفاطميين، وكم وقف هذا التبدل في
التأليف الشيعي من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما في اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خالصا، والبويهيون
بفارس متعربين مبرزين، فكان للأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم
أسلوبه وتذوقهم جماله، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة، وكردية
الأيوبيين، وإن ابتعد الأولون عن محاربتهم ومخاصمة رجاله وحاول
الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى الأدب كتابته
وشعره ضعف قلل من مقدارها، وذهب بكثير من محاسنها . وكان أنكى
بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم
يجد المتذوقين النصراء، في حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضري
يضطر إلى الإبقاء عليها ذووه وإن لم يفهموا مالها من حسن وجمال .

أما الناحية العامة لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر
بركة ونماء، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم

إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات ^(١) ثم كان شعور العلماء فيه بأشتداد ضعف ملكة الذاكرة وحاجة النسخ في تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم، دافعا للقيام أن يهيئوا للعالم أما كن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذي نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس ^(٢)، كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جليلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة في المغرب والمشرق أدبها وعلمها في هذا العصر وافدان غريبان ، أحدهما فرنجي جاءت به الحملات الصليبية بما أسست في المشرق من إمارات ، وبما حدث بين رجالها ومسيحيي المشاركة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف في الأصول

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعي لحركة التأليف ، مقاومة ما ذهب به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة إما جامعة لشقي العلوم مع حذف ما اعتادوا في غيرها من أسانيد كما فعل ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ في موسوعته المسماة «المدمش» في القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواعظ في سياق المحاضرات ، ومنها نسخ بالمكتبة الملكية بعصر وإما جامعة لفروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ في معجميه للأدباء والبلدان .

(٢) أول من قام بإنشاء المدارس في هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي التركي فقد أسس المدرسة النظامية في بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن في العالم الإسلامي كبير جعل غيره يقتدى به في إنشاء مثلها حتى امتلأ العالم الإسلامي ولماينة العصر بالمدارس المختلفة في جميع الأنحاء .

واللغات والآداب والعادات، لا بد أن يؤثر تأثيره ويأخذ طريقه غالباً غير مغلوب. والثاني عربي هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعاً لم يك للمشاركة في التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكمي فيما حلوه من بيئات^(١) وبهذا ضحفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدب القاهرة وبغداد وقويت المشابهات. تلك كلمات أرسلناها مجملات في ميزات الأعصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطتين بينها وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع. وفيما يلي من دراسة موضوعات المنهج، تفصيل لما أجملنا وإيضاح، والله ولينا وهو المستعان.

(١) من أظهر ما كان لهذا الاختلاط في عالم الفكر اتصال الفلسفة

الأندلسية بفلسفة المشرق، وفي عالم الأدب انتشار الموشحات.

ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الالهجاء بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح في العهد الأموي أشتاتنا من الأمم مختلفين في أجناسهم ودياناتهم وفي لغاتهم واجتماعياتهم، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقيا ومصر والشام والعراق وفارس وما وراء فارس؛ فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحاً جلياً في ذلك العهد لقصر زمنه نسبياً ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجم اقتداءً بخلفائهم وذوي الأمر فيهم، فكانت الأمة العربية ملوكاً وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها^(١)، ولكن ذهب تلك العصبية وهذه النعرة بمجيء العهد العباسي كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره في كثير من نواحي الحياة ذات التأثير البين في اللغة آدابها وعالمها.

ففي العهد الأموي بقي الجنس العربي متحصناً، فكان زواج العربي من غير العربية نادراً، وزواج العربية من غير العربي منكراً، فلما جاء العصر العباسي رافعا شأن الموالي أقبل الناس على زواج الأعجميات

(١) تنضح هذه النعرة في شقيها بما روي من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبني هجناء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ما عرف به مسلمة من واسع عقل وكامل خلق، وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لأبنائه نخطب مسلمة هذا «لأن أمه غير عربية» لا بغضاً له ولكن تعصباً لتلك النعرة أو خوفاً من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين ، لما هن من فرط جمال ووافر عقل ، ولما بدا على نسلهن من نجابة وذكاء ^(١) ، وتسابقوا في هذا المضمار وقدامهم فيه الخلفاء وأبناء الخلفاء ^(٢) وإذ وقف حد الدين لازوجات عند أربع انطلقوا في التسرى غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء ^(٣) ، وما من شك في أن هذا ينتج من التأثير الجسمي وبالتالى العقلى في النشء الناشء من الأعجبيات الشئ الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر ثابت من أن الزوج من البعيدات نسباً مؤد إلى فرامة الاجسام وقوة البنى فما بالناس بالبعيدات جنساً ^(٤) . وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم

(١) بقى أهل المدينة زاهدين في التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله وقد فاقوهم علماً وورعاً فرغبوا فيه ، وبما زاد إقبال الناس على زواج الأماء خفة كلفته حتى قالوا في ذلك « الأمة تشتري بالعين وترد بالعيب » وقالوا في مزيته جملة « عجب لمن عرف الأماء كيف يقدم على الحرار » .
(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور فاطهادى وأخوه هرون أمهم فارومية ، والمأمون أمه فارسية ، والمعتمد أمه تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ، وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرهما من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .
(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لاتضووا » والضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة وأضوت المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .
أنذر من كان بعيداً لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم ولهذا وجد في العصر العباسى من ضرب بهم المثل في الشجاعة حتى قال الأصمعي « ما ضرب رهوس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على سلاطنتها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الألوان،
وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهواً وأشد
لمعاناً، وهذه الميزات جميعها كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من
الصرحاء بعامل الأثر المؤثر والعرق الدساس. ولقد كان من هذا
أن عجزت المرأة العربية عن مجازاة الأعجمية في الزواج فضوء عطف هذا
التأثير، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجم زارعا وصانعا بعيدا عن
مهام الدولة وتصاريف الأمور يسوده من الموالي من كان قبل مسودا،
فذهبت من نفسه البقية الباقية للنصرة وسلم في بناته ومن هن تحت
ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات فاقرشن الأعجم ونسلوا
منهن نسلا مقرفا جاء أكثر من الهجناء عدداً وأشد منهم بالعجمة
اتصالا، على أن من بقي من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة
على صد هذا التيار الأعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين.

وفي العهد الأموي كانت للدين الإسلامي صولاته وقوته، دخل
فيه من دخل مؤمنا إيمانا حقا غير ملتفت إلى دينه السابق ولا عاد إياه
بجوار الإسلام شيئا، وبقي على دينه من بقي ذميا مستأمنا يحسد نفسه
أن أبقاء المسامون على دينه وبعد ذلك النعمة لا تعد لها نعمة،
فلم يتسرب إلى الدين الإسلامي من الديانات المختلفة نصرانية ويهودية
ومجوسية، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا شتى
يزعزع من عقائد أبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا، ولكن
حين جاء العصر العباسي مستبدلا بصولة العرب صولة الفرس وكانوا
مجوسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلاطنتهم إلحاد وإباحية وزندقة، فتهبت

في الأبحاث الدينية أبواب كانت مغلفة ، وجرت على السنة هؤلاء
المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجرى ، وتخطت الأبحاث الدينية
بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والاحاد ، السياج الذي كان مضروبا ،
وساعد على رواج هذه الأبحاث التمكن لرجال الفرس في السلطان .
وإذ ساء للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلاسفة
والدين فقد ساء لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان ، وأن
ينشط اليهود والنصارى في أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة
الدولة إلى علماءهم وتقريب خلفائها وخاصة لـ كثير من شخصياتهم ،
فكان من وراء ذلك تأثير في الدين كبير ظهر أثره في اللغة من آداب
وعلموم .

وفي العهد الأموي كان للغة العربية بحكم التوسع في الفتح وبسط
السلطان ، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان ، أزال منها ما أزال
وبقي ما بقي أضعيف المقاومة مهيبض الجناح ، كل هم ذويه أن يبتقوا أمام
الفتاحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين .
أما لغاتهم فلن يأخذ بيدها ما صاروا إليه من ضعف ولن تجرد من رجال
الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة في خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم
كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجام ، وترفعهم أن
يلوا مثل مايلي أولئك من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به
أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزا قويا وسدا محكما دون أن
يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسي
وزالت بتجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة العجم

ومشاركتهم في الأعمال فقد نُحِلَّ عن عنق اللغات المغارب أهلوهام ما كان مضيقاً عليها من خناق ، فتمنست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغي أن يكون عليه ذورها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حيناً وانقلبت هي بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام ، حتى عقد لها لواء النصر في التغلب كما سيأتي على أمة السواد ، وتسربت بما كان من التوسع في وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب ، ثم كان أن وجدت فوق هذين سبباً لا تظهر فيه أحياناً على ألسنة الأدباء ناثرين وشاعرين هذا وكما كانت النزعة العربية في العهد الأموي غالبة فيما ذكرنا من نواحي الجنس والدين واللغة كانت كذلك غالبة في ناحية الاجتماع . فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية ، عاملين بعاداتها محيين لأدبها ، يقودهم في ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصراً للعربية وفتحاً على أبنائها إذ جعلوا الإسلام دولة عربية بعد أن كان ديناً ، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها ، وسكوا النقود العربية مستعميين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا في نقل الطراز ^(١) وماعدوا الناس على عهدهم ، طبقة العرب

(١) الطراز هو أن يرمم الملوكة أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم ، كما يرى الآن على ألبسة الجنود والشرطة مثلاً ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور بكتابة الأسماء وكلمات التفاضل والدعاء لورود تحريم الصور في بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين، و قهطانيين، وطبقة الموالي السودين مسلمين و ذميين،
نعم خدام الدولة و تقرب إليها بعض العرب النصارى و الموالي ، مسلمين
وغير مسلمين، ولكن عددهم جميعا كان جديلا (١) ثم جددت أمور
لم تكن في صدر الاسلام كتحاذ السريير و الحجاب (٢) ولكنهم تعدد أشخاص
الخلفاء و من حماهم من بعض الولاة في تبسيط و اوضح و اكتفاء بالقليل
أما أحوال الاجتماع في العصر العباسي حيث انضج التمدن الاسلامي
متأثرا بما خلف عليه من مدينيات فقد جاءت مغيرة كل المغيرة لما
كانت عليه في عهد الامويين.

ساق هذا التمدن الناس بعضهم إلى أن يكونوا طبقتين و تحت كل
طبقات ، الأولى طبقة الخاصة و هي الخليفة و أهله و رجال دولته
و أرباب البيوتات ، و الثانية طبقة العامة و هي المزارعون أهل القرى
و سكان المدن من الصناع و التجار ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم
من العوام أتباعا من الجند المحافظون و الأعوان المرافقون و الموالي
المعتقون و الخدم و هم الأرقاء و الخصيان و الجوارى من السودان
و البيضان ، كما حماهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضا أهل الفنون

(١) من تقرب الخلافة الأموية لنعصارى العرب ، تقريباها الأخطل الشاعر
و بخاصة في عهد عبد الملك . و ممن خدم من الموالي غير المسلمين ، رجال الدواوين
قبل تعريبها . و منهم مسلمين ، سالم القائم على ديوان الرسائل هشام و ختمه
عبد الحميد صاحب ديوان مروان .

(٢) أول من اتخذ السريير و الحجاب معاوية لما رأى منهما في بلاد الروم ،
ولما أنبأه به صها كان لمجلس الحاكم في فارس و مصر عما له بتلك البلاد

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الادب والشعر من الأدباء
والشعراء ، وذوى الخلق والنفاسة من نابغى الصنائع وكبار التجار .
فبهذه الطوائف جميعا ماعد الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى
وتفيض ، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاسد أعوان الشرأ والنجون .
وإذ كانت هذه الجموع فى غالبيتها أخلاطا من غير العرب جنسا ، وعلى
غير ما نشأت عليه العرب استمدادا ، فأنت خبير بما تنتجه فى أبناء
العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الأبناء من تأثير .
ولقد قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التى شبوها عليها
فى بداوتهم وهدبها الاسلام فى صدر إسلامهم ، وحاطها الأُمويون بالرعاية
فى دوائهم ، كالاستقلال والشجاعة والنجدة والأنفة والعفة وغيرها
مما جبلوا على مدحه ، والتفانى فى نصرته ، وتجلت له فى أدبهم صبور
رائعة باهرة ، فأصبحنا بعد هدم من العصر العباسى نشاهد الضعف
والخور ، والقعود والاستسلام ، والفدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس
الرجال وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء ، حتى غاض ممين طاهر صاف
وفاض آخر كله رجس وأقدار ^(١) .

(١) لذلك تأسست المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى
سبيل إرضاء زوجها وصارت تهذى إليه الجوارى وتحجب إليه الاقتراب منهن حتى
ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنون فأقفل عليها
الابواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والمسالك ومنعها الخروج والكلام
وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألقت له القصص
والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار .

كما نقلت هذه المدنية العرب من التبسط في معاشهم مطعما وملبسا
ومسكنا؛ فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموي
في هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسي حتى الأذقان،
فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدايق وتجري من تحتها الأنهار^(١)
ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان، والأشكال، مفرقين بين الثياب في
الحياة العامة والحياة اللاحقة^(٢) ثم أكلوا كل ماله وطاب
من ألوان الأطعمة، وشربوا كل ما شق وراق من أنواع المشروبات^(٣)
فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالى في اتخاذ الأثاث والرياش، واقتناء

(١) اختلفت أساليب البناء في الاسلام باختلاف البيئات فكانت في كل بلد
على نمط أهله، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بنحى العرب واستخدمهم الابتكار
إلى نمط خاص هو النمط العربي وإن بقى بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة في كثير من ملابسها وظهر التغالى في
ملابس الخاصة على العهد العباسي ظهورا بينا وبخاصة في العراق إذ كان من الخلفاء
منذ عهد المنصور جهل للناس على لباس خاص، له في كل طائفة طابع يميزها عن
غيرها، وكان لابد من حبة سوداء تغطي حين الدخول على الخليفة جميع
الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض
نم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف
بثياب المنادمة.

(٣) - قد اتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع
عليها في الاتفاق حتى صار لسكل لون خدم عليهم رئيس .

ومما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعا قبل الفتح في جميع
البلاد وبخاصة بلاد فارس التي كان ماوكها مغرقين في اللذات والمسكرات.

الأحجار الكريمة والمجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال^(١)
وتم تمت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظماؤها،
فظهرت متجلية في مجالسهم التي كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع
فوقها القباب وتزين بحدرائها ومصفها بصور الذهب والفضة لما في البر والبحر
وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج، وتسبل على نوافذها ستائر
الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم إليها من مآثور الكلام.^(٢)
ثم كان للخلفاء في المواقب حين الخروج للاحتفال من الافتنان في
الزينة وإظهار المظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار^(٣).

وحينما أخذت العرب في تشرب مدنيات الأمم التي غلبتها على
أمرها وورثت حضارتها ومسلطاتها كانت هذه المدنيات في أخريات

(١) أخذ البذخ في اقتناء المجوهرات مأخذه في بغداد، وقد احتذى
بهم في ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون في القاهرة
ففاضت في المدن الثلاث المجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان.
وإن نظرة إلى ما كانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة
من الأمراء وذوى اليسار لتدل على ما بلغ إليه الترف في تلك الأنحاء.
(٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد ما يدور فيها، فبعضها التصريف
أمور الدولة وبعضها للأدب والشعر، وبعضها للمناظرات والعلم، وبعضها للغناء
والانس، وهكذا.

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواقب باختلاف الداعي إليها من أمر ديني
كالأعياد، أو دنيوي كزفاف أو ختان، أو نصر أو مالى ذلك مما هو مفصل في الكلام
على أبحاث الخلفاء.

أيامها قد سارها الشر وعمها الفساد ، فكثر من أبنائها الأشرار
الفاسدون ، الذين نشروا الرذائل في مدينة الاسلام ، وكان العرب معرضين
لها بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون في مدنياتهم حتى
كثرت الموبقات ، وتعددت المفاصد ، وغلبت الشهوات على الناس فصاروا
لها عبيدا ثم انطلقوا في تيارها بعد عن طواعية واختيار ، وكأن أبناء
العرب وقد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة صرء
ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب
فانغمسوا في شرورهم غير مباليين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه
مبغدين (١)

ولقد ولد هذا الارتفاع الشديد في تيار الحضارة تنديسا للمادة
في النفوس إشباعا لنهم الجشع ، وسدا للسكال الذي صار من الضرورات ،
فأحب الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى
لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت
حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعلا من عوامل نيل
الغرض وابتناء الثروات (٢)

(١) لذلك كانت عادات الجاليات العربية في كل قطر ، من عادات أهله
وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر في الاقطار الاسلامية قبيل الفتح
أثرا محتوما لمدينتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدينة الفارسية شرقا
والمدينة الرومانية غربا .

(٢) فشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن في حكمهم من الولاة
والعمال وتبع ذلك إقدام ذوي الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لا اعتقادهم
أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالى أو حفزهم حافز الانتقام .

على أن العرب على ما آذنتهم به تلك المدينيات في نواحي الاجتماع،
قد استفادوا من وراثتها مخازن في العلم والأدب، عادت عليهم وعلى لغتهم
بالتحيز والصلاح، فقد جرى أبناء أممها سلائل العرب في مضمار الأدب
فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بذوهم في مضمار العلم فكانوا أكثر
منهم عددا وإنتاجا في التأليف والتصنيف، هذا إلى أن أدباءهم كانوا
اللقاح الأدبي الجديد، كما كان علماءهم الترجمة الماهرين فيما نقل من
علم دخيل.

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم
واجتماعياتهم من تأثير في العرب ظهرت نتائجه في لغتهم غرضاً ومقصدات،
معنى وخيالا، لفظاً وأسلوباً، على ما سنبينه في هذه النواحي الثلاث
عقب الكلام على غلبة الفرس فيه.

غلبة الفرس في هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى

هذا الموضوع

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيقة فى التاريخ القديم ذات علوم وآداب^(١)؛ وهم أهل ذكاء وتمقل ، وفيهم استعداد فطرى يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولذلك أحرزوا منذ القديم ، قسما وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين والبابليين ، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا ، فنقلوا إلى لغتهم ما نبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون^(٢) ، ثم كان

« ١ » كانت السيادة قديما للفرس شرقا وللروم غربا ولكن سلطان فارس كان أقدم عهدا ، وأكثر جندا ، امتلكوا مصر على فراغتها زمنا وحاربوا اليونان قبل المسيح ، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا يجردون جيشا قد يصعب اليوم على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقيا وأوربة .

« ٢ » كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى فتح الاسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزائن كتب ، فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام .

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أردشير فقد بعث إلى بلاد اليونان من استجاب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية وخزنها فى خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها .

ولما كان ما كان من اضطهاد جوستينيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقصاءه هياكلهم ومدارسهم ، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك ، فاستقبلهم

أبين ما فضلوا غيرهم فيه النبوغ في الأدب الآري ، ذى الفكر الفواص
والخيال المخصب البديع ، وما ظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب
بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ في
أحضانهم وبمعونتهم ، ولما مضى على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل ،
إلا أن يتشربوا مدنياتهم ، ويتحضروا بحضارتهم ، ويظهر أثر ذلك جليا
في كلامهم ، وإن تغلبوا عليهم في اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ في العصر العباسي عهدا
بعهد . فلم يك لهم ما للفرس ولا شيء منه في هذا الميدان لما يلي من أسباب
اتصال الأتراك أول ما اتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة
لا عهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الآميين
الذين لا يزالون يضربون في الأرض ابتغاء الرزق سلبا ونهبيا ، ويذرعون
أواسط آسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم ، ومقاتلين من يصادفهم من
غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ، وما يتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا
دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ في
العصر العباسي الثاني على الخلفاء ، غاظة في غير رفق ، وقسوة لا تعرف
الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة
وأشد في النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد
والسخر والاستعباد ، تبقى ما بقي بطشها وسيلطانها ، فاذما زابتها القوة

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى
الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون في علوم الفلسفة وغيرها
حتى شاع العلم اليوناني بفارس كما شاعت قبل علوم الهند والصين .

وتعدادها النفوذ؛ ذهبت غير مخافة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الدار .
أما حضارة تؤثر في حضارة ، وأدب يؤثر في أدب ، ولغة تتدخل في لغة ،
فلا شيء من ذلك عندهم حتى يكون ، ولا أثر له في وجودهم يبقى إذا
أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر في عهدهم الثاني عهد السلاجقة الذي كان
أطول العصور ، كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم في العهد السالف
مقفرين ، فلم نجد العربية في لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم
تلك لغة علوم وآداب ، وبقيت مصبوغة بالصبغة التي كانت لها من لغة
فارس ، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك
سلطان ^(١) وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ
منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط ^(٢) .

وبما وقف في طريق أن تتأثر العربية بالتركية في هذا العهد
الأخير على فرض أن يكون لها تأثير ، أنه جاء وقد استوفت العربية

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء اقتصارهم للفارسية
دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ما سبق عن السلطان
محمود الغزنوي من تسكيفه الفردوسي إتمام نظم الشاهنامه الفارسية .

(٢) من ذلك سنجقदार الحامل الراية خلف السلطان ، ودوادار المتولى
الأحكام وتنفيذها ، وسردار لرئيس الجيش ، ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين
تركيتين إحداهما دار بمعنى تمسك والأخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق
بمعنى الرمح وهكذا .

كل ما احتاجت اليه في ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس ، وقليله من اليونان ، والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر ما تذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب في العلم عظيم . وفيض اليونان أعظم وأوفر ، وهذا داح إلى أن يكون تأثير العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ، فنقول تفهما له وتبيننا ، إن التأثير من الناحية العلمية المعنوية غير التأثير من ناحية الالفاظ والاساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليوناني والهندي على العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب ما نقل اليها منهما كان عن الفارسية التي نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستثثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين في التأثير العلمي ، إذ لا تخلو الترجمة من أن يكون المترجم في معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التي شارك أهلها الفرس في النفوذ ، فاستقلت الفارسية بالتأثير البين في العربية في تلك الأرجاء الشرقية المترامية الأطراف ، وبقي لها كيان شخصي أخذ ينزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمن ، حتى عم آخر العهد قاصية فارس ، فكانت الفارسية فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ، أما وسط الدولة فكانت العربية وهي لغة غالبية منذ القديم غالبة على ما وجدته من لغات أصبحت في ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت في لغات غربها ، وإن لم تكن لغة أهله قبل الفتح ، فلم يبق شيء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان اللغة الفارسية بذلك وعن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ في العربية من

أبنائها، الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب في ميدان الآداب والعلوم^(١) .
إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها في الميدان العلمي ، حينما ترجمت منها
مباشرة إلى العربية بعض العلوم ، وهذا ما سيظهر جليا فيما نحن مجملوه
عما جدد باللغة في تلك النواحي الثلاث ، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعي
للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .

أولا - ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها في العصر العباسي اتساعا
كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجا تاما ، وكان من
وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالابحار ، وأخرى بالسعة والازدياد ،
كانت منها هذه الأغراض

١ - تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية
وعقلية .

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعاملها وسيلة
ناجعة في الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة في جلب الغنى الواسع فخذقوها
وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها ، وكانوا لا يحصون كثرة .
أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة
آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم . ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة
صادق في تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربي على أيدي من حذقوا اللغتين معا ثمارا شبيهة
بماضجة ، كعبدالله بن المقفع ، والبديع الهمداني من الأدباء ، والفخر الرازي من
الفلاسفة ، وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد ، وغير هؤلاء كثير .

٢ - الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانية .

٣ - إشاعة المذهب الشعبي والرد عليه .

٤ - نشر النزقة والاحاد ومقاومتها .

٥ - تبديد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة .

٦ - التحريض على متع الحياة وتحسين المجانة والخلاعة وامتداح الشراب والفناء .

٧ - الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

٨ - ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة في مختلف الدواوين .

٩ - وضع القصة والرواية .

١٠ - وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة ، كالرياض بما فيها من ثمار وأزهار ورياحين ، والقصور وما حوت من أثاث ورياش وصور ورسوم ، ومجالس المنادمة والشراب ، ومسايد الوحوش والسمك والطيور ، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان ، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ - النقد الأدبي على اختلاف مناحيه .

١٢ - تدريس العلوم المختلفة في المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً — ناحية المعاني والأخيلة

لقد فتح التوسع في المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبواباً جديدة للمعاني والتخييلات ، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملاً على

انضج العلوم وسعة الأفكار ، وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعنة على قوة المباحثة والمناظرة ، وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعنا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبيحين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كن وضع القصة وخلق الرواية فاتحا أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبية ومجالي الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعاني والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوعا لدقته دون ما مات كنفاه بالتمثيل^(١)

١ - الاكثار من المعاني الدقيقة والجديدة ، التي تدل على مصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحي الفلسفة من ذلك قول ابن المقفع في الأدب الكبير :-

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فانما هو أحد رجلين ، إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع موطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يستترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكافئه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى »

(١) سنقصر التمثيل هنا على النثر ونندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعاني والأخيلة في الشعر وهي غنية بالأمثلة والشواهد على كل ما نذكر هنا .

٢ - إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رسيخ في
أذهان القوم من فلسفة معينة ، وتجارب مفهومة ساعدتهم أن يكثرُوا
من النوعين مجيدين

من ذلك قول ان المنفع في كتاب كلية ودمنة من باب عرض الكتاب
« فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما
صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى
عالماً ، ولو أن رجلاً كان عالماً بطريقت مخوف ، ثم سالكه على علم به سمى
جاهلاً ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما
هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق المخوف
الذي قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه
هو أو أعامه به غيره ، كان كالمرضى العالم بردى والطعام والشراب وجيده
وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديته ، وترك ما هو أقرب إلى
النجاة والتخلص من علة ، وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال
وارتكاب مذمومها ، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على
بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل
إلى حفرة فوقهما فيها ، كانا إذا صارا في قاعها ، بمنزلة واحدة ، غير أن
البصير أقل هذراً عند الناس من الضير إذ كانت له عينان يبصر بهما ،
وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف »

٣ - استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التي أصبحت
أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها
من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين

إلى المأمون بقتل الأمين وهو :

« أما بعد فإن كان المخلووع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والخدمة بمفارقة عمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، لقول الله فيما اقنص علينا من نوح وابنه « إنه ليس من أهلِكَ إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معاوم حقه ، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتهما وجمع به الأمة بعد شتاتهما وأضاء به أعلام الدين بعد دروسهما ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالديار وهي رأس المخلووع وبالأخرة وهي البردة والقضيب والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين حقه الراجع إليه تراث آبائه الراشدين .

٤ - الأبداع في التصوير والأغراب في الخيال . وقد كثرت موادها وتعددت ألوانها في أدب القصة من المنشور ، ومن خير ما تطالع فيه الأول أمتال كليلة ودمنة ، ومن خير ما تطالع فيه الثاني ، حكايات ألف ليلة وليلة ، وإنك لمصيب الاثنين مما فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات ، وبخاصة للبديع والحريري وسنختار مقامة لكل بعد .

٥ - الأقدام دون تهيب على المبالغة والتهويل جريا على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوع جهلهم إليه التبعاعد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا على

شكر سماه تهنئة :

« وصل كتاب مولانا جواد اعمام خدمت به حضراته المحروسة مهنثا ، فحسبتنى وقد تأملت عنوانه ، مغلوطا في أو معنيا به غيرى ، إعظاما لتلك الأيادي الفر والنعم الزهر التي أعدتها في الشرف مناسب وإلى الأيام والليالي ذرائع » إلى آخره
٦ - وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثا - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثير اللغة في هذه الناحية أظهر منه في الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثيرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرها ، وهذا بعض مظاهر التأثير نسوقها عدا كما فعلنا في ناحية الأغراض .

١ - حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى في كليهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم تك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين في شتى العلوم وضعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ - نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعى العرف العام .

٣ - دخول كثير من الكلمات الأعجمية في كل ما تقدم ، وبخاصة على أيدي المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت في حاجة

إلى غير، وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة، كما يسمى هذا التغيير بالتمريض .

٤ - الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل .

٥ - التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في

شدة أسر وقوة أداء

٦ - التوسع في استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز .

٧ - الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج

المصحوب كثيرا بالجمع .

٨ - الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته

والاستشهاد بها .

٩ - الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ الخف والبذاء وعبارات

الخلاعة والمجون .

١٠ - التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبث عبارات

الملك والخنوع في ثنايا الكلام .

١١ - التغالى في كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد نُسوِّد مع

الاول عشرات الأوراق في بعض الرسائل والعهود والمنشورات وتصل

بالثاني في قصار الرسائل إلى حد التوقيع .

١٢ - ظهور جديد في الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما

مبيّأ بيانه في الشعر^(١) .

(١) من ذلك في الوزن ما يسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجاني حبيبي واعتراني اذكار ليته إذ شجاني ماشجتي الديار

ومنه في القافية ما يسمى المسمط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقصة من قافية

ذاك أظهر ما كان من جديد في نواحي اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر في الأغراض وحسن وقبيح في المعاني والألفاظ ، ولقد كان لجانب الخير والحسن الغلبة في أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هي ناحية التخاطب العام الذي جنت عليه الأعجميات أكبر جناية عرفت للعجمة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقا أن تنفرد في هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

واحدة يأتي بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم

غزال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرثنا

بذكر اللهو والطرب

سبتني ظبية عطل كأن رضاها عسل ينوء بخصرها كفل

ثقل روادف الحقب

انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا في كتابنا الثاني من تاريخ الأدب العربي حيث الكلام على العهد الأموي، فصلا لم نعقد مثله في عصرى الجاهلية وصدر الإسلام هو « لغة التخاطب » علمنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحريف والدخيل، وأبنا السبب في نشأة تخاطب جديد في العصر الأموي مشوب بهذه الاشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك :-

« فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الامصار، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنهم لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين، فكانت بعيدة عن ذلك كله على السنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على السنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات، أما أبناءهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شىء من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا، ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاعاجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعاملوا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين، ولذلك سابقوهم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر، وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا :-

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموي لم يززع من عقيدة

الناس في لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، مع اصطباح الدولة بالصبغة العربية المحضة ، فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمون ويفتخرون بالأعراب ويمدحونه .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحادث العام كانت عربية لما تتحول إلى عامية بعد

أما في العصر العباسي الذي نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت إلى عامية انتشرت بقوة المعجمة على تتابع سذية الطوال فطارت العربية من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها في بعضها القضاء عليها والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة اختلفت قوة وضمنها باختلاف الجهات ، ولكن التحادث لم يك بالعربية الصحيحة في جهة ما حتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضاءه بزمان طويل ، واليك في هذا كله البيان .

ورث العصر العباسي إذن عن العهد الأموي لغة التحادث عربية صحيحة في مجموعها ، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة محاربة اللحن والتحريف أن يتسرب إلى السنة السواد وإن وقع من بعضهم ، جهودا مشكورة حاكاهم فيها الولاة والأمراء - العرب محاكاة المخلص المتعصب ، والموالي محاكاة المتزلف المتقرب - وبدأت هذه الجهود في شتى الألوان دفاعا عن لغة الدين والعلم والسياسة .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة في تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ، ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأدباء ، ويهيبون بالرواة أن يجدوا في جمع

شوارد اللغة وضبط مآثرها، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين في كل ذلك عناية تحفز الهمم ، ومالا يستهوى النفوس ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة في فصاحة العبارة وبلاغة المعنى، والأشوة الطيبة في العناية بتنشئ أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان، فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه ، المبرزين من شيوخ الأدب وأكابر الرواة، كالشرقي القطامي مؤدب المهدي ، والأحمر النحوي والكسائي مؤدبي الأمين ، والزيدى مؤدب المأمون ، والمفضل الضبي مؤدب الواثق ، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز ، وثلعب والمبرد مؤدبي ابنه عبد الله بن المعتز ، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء ملازمتهم أبناءهم تنقيفا عريبا يغني عن الإرسال إلى البادية التي كان يحرص خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها .

ومنها قدرهم النبوغ العربي قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله تنسى معه صنعة الأصول ولا يضمن عليه من أجلها بكبار المناصب ، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الأدبي أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم ، وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون^(١)

(١) من الحوادث التي تؤيد هذا وهي كثيرة ما ذكر من أن المعتصم وكان أميا ورد إليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر الكلا فقال المعتصم للوزير ما الكلا؟ فلم يدر ما هو فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير حامى ثم قال: انظروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات

م ٤ - أدب

غير أن هذه الجهود وغيرهما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، وللمتخذ طلائعه الغازية السنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطامعون إلى رقي من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة. قوى الزحف ، سريع الانتقال ، أنبأ عن وجوده في العصر الأول على كره الخلفاء حتى على ألسنتهم ، وأعلى مكانة نفسه في العصر الثاني فلم يكن من ظهوره على السنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده في العصر الأول فقد ظهر على ألسنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقززهم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن في مجلس به أعرابي فصر الأعرابي أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال الأعرابي أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يا فراء فقال يأمر المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطباع لحن . وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلهم على سجيتي إلا مع ابن الهيثم فأنى أتحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الأعراب . وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمتة فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

فأدخل عليه فسأله عن الكلاء فقال يأمر المؤمنين هو العشب طامة فإن كان رطباً فهو اخلا وإذا يبس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره .

على أن اللحن في العصر الأول كان من طباع أهل الحضرة لضعف
ملاكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد ، ولكنه يدل
بازاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين
باكبار أمره والتشدد في المؤاخذة به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه
وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاحين بدجلة . وكان إذا ركب
بها أعجبه غناؤهم وآله لحنهم فقال لجلسائه : قولوا لمن معنا من الشعراء
يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقليل له ليس أحد أقدر على هذا من
أبي العتاهية . وكان في الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر
بإطلاقه ، فغاضه ذلك وعمل له شعرا في الوعظ والتذكير بتقارب الأيام
لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر
يبكي للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج في بكائه حتى يأمر
من معه الملاحين بالسكوت ^(١)

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد
أن يقول شعرا في الغزل فامتنع فضربه وحلف ليجلسن حتى يقول الشعر فقال
أبو العتاهية « كل مملوك لي حر وامرأتى طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن ، أو
بلا إله إلا الله محمد رسول الله » فحزن الرشيد مما فعله وأمر أن يجلس في دار
ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد إليه .
أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح
لدواعي الخير والشر م دنو وزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح

وأما إعلائه مكانة نفسه في العصر الثاني، فكان حيث فقد الأدب
النصير من الخلفاء وأولياء العهود السابقين، وخلف من بعدهم خلف
نشئوا بين الأمهات والخواصن الأعجميات لا يخاطبون إذا خاطبوا
غيرهن، سوى الخدم الأعجم، بعيدين في كل ذلك عن الرواة والمؤدين.
ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشائن المعيب ففقدت الفصحى بذلك
معين التشجيع والتأييد، وتعدت العامية السنة السوداء إلى السنة الخاصة
فكان بها تحادتهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع، ومن هنا بدأت
العامية تعمل عملها في السنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم،

كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تمح
فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا مافيه روح
بين عيني كل حي عـلم الموت يلوح
كلنا في غفلة والـموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنـيا غبوق وهبوط
رحن في الوشى وأهـبـحـ بن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـر له يوما نطوح
نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عم م رت ماعمر نوح

التي صارت لاتسعتهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط ما لم يكونوا
كتاباً أو شعراء و بقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .
فاما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على السنة الخواص ،
وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك
اللغة في التحادث العام نصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبيتهم في الأصل
أعجام لا يزال في رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا ديناء ،
أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على السنة السواد كي تشقه
مكتسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هيء لها من حياة ، فبدأت
العربية تتقلص من الأطراف مخلفة مكانها للغات السكان الأصليين
كالبربرية في شمال أفريقية والفارسية في خراسان .

ولقد صعب هذا التقلص ظاهرة لم يرك حدودها في الحساب ، تلك
أن من عنوا بالنطق الصحيح في حديثهم العام ، أصبحوا مضغة في
الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم في
المجالس ترويحاً عن النفس وتفككة للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة
تكتسب أنصاراً ومؤيدين حتى كانت في العصر الرابع طليبة دعت
العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف^(١)

أقبل هذا العصر الأخير شاملة عجمته جميع الأطراف وفائدة
حكماء ما كان لأمثالهم في سابقه من صلة بالأدب ، فقد ر على العربية

(١) كما فعل أبو الفرج النحوي المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتاباً جمع

فيه أخبار المتقربين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مد ذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام
الأعجميات الأدبار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقرا هادئا كما
كانت في خوالي الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى
غزتها العجمة في عقر دارها ، فارتدت فصيحيتها عامية قبل أن يبلغ ذلك
العصر منتهاه ، وكان من أفعال العوامل في هذه الغارة التي قضت على
البقية الباقية في البادية عاملان .

أحدهما ديني هو انطلاق الآلاف من عامة الاقطار الاسلامية
كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم
ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم على
اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل
وصحبة دائبة لا تنكأ تنقضي حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل
على وشك الحدوث ، ولا يظن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم
من القبائل ، فإن هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن
المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما موسم الحج هو الموسم التجاري للعرب
يقدمون إليه بماشيئهم وسلعهم مبكرين ، ثم لا ينصرفون إلا حيث
ينصرف الناس ، فإن من شأنه أن يجعل جماهيرهم تراحم كل غريب ،
واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون ، فهذا الاختلاط الذي كان
يبدأ في القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الأعراب ولا ينتهي إلا حيث
يسلمهم أولئك الأعراب إلى الأنصار عائدین ، استمر يحمل إلى البادية
لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيحيتها في جوفها حتى
خرت أمامها صرعى مالها من مقيل ، قد أضر بكلماتها اللحن والتعريف ،

وصحبها ما صاحبها من أعجمى دخيل . ولقد كان لهذا الاختلاط مدد مقيم
من أولئك الذين يجمعون بين عامين في هذه البلاد ، يحجون في عام
ويزورون في عام ، وآخر أكثر إقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول
حتى يوافيهم في هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم ، فيفوزوا من
الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات في الجزيرة وأطرافها لبعدها
مركز الخلافة في العصر العباسى عنها ، إما من قبائلها على قوافل
الحج فيضطر الخلفاء إلى تجهيز جيوش الأعجام لتأديبها وإعادة الأمن
إلى نصابه في ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ
غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكنائها هاتيك الديار على
مقربة من مكة والمدينة وما إليهما من قرى الحجاز^(١) وإما من أعجام
يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرون في لغتها
بأقامتهم ويضاعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند
الأعجم إليهم ، كما كان من الزط في بادية البصرة ، والزنج بشواطئ
الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز ، وغيرهم
ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لاتزال تدعو في إخمادها إلى جوس

(١) من تلك الثورات ما كان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب
في خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه إليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة
بغا الكبير قضى قرابة السنتين في حربهم حتى انتصر عليهم وعاد بكثير من
ذوي الشعب فيهم الى سامراء .

الأعجام مضارب الأعراب^(١) . فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية قبل انتهاء القرن

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطئ الخليج الفارسي قديما وعاشوا على السلب والنهب طويلا، حتى إذا كانت الفتنة بين الأميين والمأمون استولوا على طريق البصرة، وأخذوا يعيشون وينهبون، وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون . ولما ولي المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد، فجرد إليهم جيشا هزمهم وعاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفا فسرحتهم الدولة إلى شملها ومنه نقلوا إلى أوربة حيث تعيش أنسا لهم الآن بربوعها الوسطى تحت اسم « الغجر والنور » .

وأما الزنج فقد ظهرُوا في خلافة المعتصم على الله بدعوة رجل فارسي ظهر أول مظهره بالبصرة سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطئ الفرات فخارب الدولة وهدد بغداد وبقي كذلك مصدر شغب حتى قتلت جيوش الخلافة سنة ٢٧٠ .

أما القرامطة فقد ظهرُوا أول مظهرهوا بسواد الكوفة على يد رجل من خوزستان في آخر خلافة المعتصم على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة في آل البيت فكثرت أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجاج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكني مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى إذا مات برأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيرا من الأنصار فأمكن الدولة هزيمتهم وقد مضى على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن .

الرابع الهجرى فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة^(١) على هذا النسق الذى ذكرنا تملكته العامية ألسنة السوادنى جميع الأقطار، فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص فى تحادثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها ، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات فى إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل ، تختلف فى إقليم عن إقليم إقليم اختلافا يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفا ، وإلى نوعها لفظا وأسلوبا . فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعدها إقليم عن مواطن العرب الأولى أو قربها منها ، فحيث كانت الجالية قليلة والإقليم بعيدا ، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره ، وعليهم قول الأصمعى فى غريب اللغة ، ومنهم استمد سيبويه والسكسائى مراجع أحكام النحو ، وما زالوا مستمدى رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد ، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على الفصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل « عكاد » فقد قال فى لفظ عكوتين « هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن » ثم ما يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدهما الزرائب « وجبالا عكاد فوق مدينة الزرائب ، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناسكة وهم أهل قرا ولا يظعنون عنه ولا يخرجون منه » وأيد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ فى مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة ، كما أيد شارحه الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا .

صحيحاً ، ولهذا كانت العامية في الأطراف القاصية - كخـ اسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً وأرمينية شمالاً والنوبة جنوباً - شديدة الوطأة على اللسان العربي ، لفظاً وأسلوباً ، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث ، ما شق له في هذه القاصيات طريقاً ، أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقاليم - كما في العراق ومصر والشام - فإن الدخيل يكون حينئذ قليلاً ، واللحن والتجريف لا يضحى متغلغلاً ، ومن ثم بقيت العامية عربية في هذه الأقطار وارتدت في تلك إلى لغات أهلها الأصليين ، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة ، الغلبة على حال الأقليم بعداً وقرباً ولهذا كانت عامية الاندلس على بعدها ، خيراً من عامية بلاد المغرب وهي أقرب منها .

ومن التاني التماوت في نوع الكلمات الدخيلة إذا كانت في كل إقليم من لغة سكانه الأولين . ففي الشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركية ، وفي الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية ، وفي شمال أفريقيا كان بربرياً ، أما في بلاد العرب فقد كان خليطاً من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلاً .

ومنه أيضاً التماوت في نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير ، والنفي والاثبات ، والتعريف والتنكير ، وهكذا مما له أثر في تكوين الأسلوب .

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا ، كانت العامية الواحدة تختلف في الأقليم الواحد ، فتراها في وقت غيرها في آخر ، ولو لم تطرأ عوامل سوى

مخالفتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها إذ لا بد في تلك المغالبة ،
أن تنتهي بقوة إحداها وضعف الأخرى ، وبالحري يقرب هذا الانتهاء
بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كليهما في أوائل
العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامة من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى
لغة التجاذب العام إلى غيره من لغة العلم في التأليف أو لغة الأدب في
الإنشاء والقريض^(١) ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء في هذه
النواحي الثلاث على أيدي العلماء والكتاب والشعراء ، فصمدوا ثلاثتهم
على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس
المهادي فيما جد أواخر العهد العباسي من غيم ، وأطبق بعد زواله على
أيدي التتار من ظلام . أما العلماء فلما رسخ في نفوسهم من الحرص
على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ
والتشريع ، وأما الكتاب فلما كان من حاجة الملوك إليهم في ضبط
أمور الدولة بمختلف الدواوين على ما هدى إليه الملوك من إبقاء الكتابة
عربية كما ورثوها ، زلنى إلى الدين وتقربا من الحكوميين ، وأما الشعراء
فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضمن عليهم بالصلوات لا بد أن يغلبهم ولو
بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ، على أن حراسة الله للغة دينه
وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء في أشد العصور حليكة ، وأضيق
الأيام حرجا ، وهكذا يأتى سبحانه إلا أن يكون .

(١) لم يظهر بها في لغة العلم شيء هام ، ولا في لغة الأدب إلا الزجل ،

والقوما ، وكان وكان ، وبعض المواليا

و بعد

فان لنثر اللغة جانباً أدبياً تراه ماثلاً في الخطابة والكتابة الانشائية،
وآخر علمياً يظهر في الكتابة العلمية أى تدوين العلوم والفنون .
وإننا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات .
وبعدهما يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .



الخطابه

أولا - نماذجها

١ - لما بويح السفاح ^(١) صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكمرة ، وشرفه وعظمه ،
واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكفه وحصنه ، والقوام به والذابين
عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا
برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته
واشتقنا من نبعته ^(٢) جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا ^(٣) حريصا
علينا بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع
وأُنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما
أُنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى »
وقال « وأنذر عشيرتک الاقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من
أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى » فأعاهم جل ثناؤه
فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من النى والغنيمة نصيبنا
تكمرة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم
وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا ^(٤) أحق بالرياسة والخلافة منا ،

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . (٢) واحدة النبع

وهو شجر السهم . (٣) يريد عزيزا عليه عنتنا أي مشقنا .

(٤) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين

على أبناء صهمم العباسيين .

فشأهت وجوههم ، لم أيها الناس ؟ وبناهدى الله الناس بعد ضلالهم ،
وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا
الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة وأنتم بنا
الغنيصة ، وجمع الفرقة حتى صاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر
ومواساة في دينهم ودنياهم ، وإخوانا على سرور متقابلين في آخرتهم ، فتح
الله ذلك منة ومنحة لحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر
من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحوا مواريث الأئمة فعدلوا
فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصام منها ، ثم وثب
بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا
بها وظلموا أهلها . فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم
بأيدينا ، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا
لنمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني
لأرجو ألا يأتاكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث
جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا
عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا
وأنا كم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدكم في
أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير ^(١)

٢ - قال ذلك وكان موعوا كما فاشتد به الوعك ^(٢) فجاس على المنبر

وصعد عمه داود بن علي فقام على مرقاة دونه فقال :

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحمى .

الحمد لله شكرا شكرا الذي هلك عدونا وأصار إلينا
ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا ^(١)
وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من
مطلعها، وبزغ القمر من مبرغه، وأخذ القوس باريها وعادت السهم إلى
الزعة ^(٢) ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة
بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا
ولا عقيانا ^(٣) ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من
ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم ^(٤) وبهظنا من
شئونكم ^(٥) ولقد كانت أموركم ترمضنا ^(٦) ونحن على فرشنا ويشتمد علينا
سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم، واستنثارهم بفيئكم،
وصدقتكم ومغائنكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ
وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله
ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا ^(٧) لبني
حرب بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة،
والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأثام، وانتهكوا
المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد،
التي بها استقلوا تسربلوا الأوزار وتجلبب الأصار، ومرحوا في أعنة المعاصي

(١) ظلماتها جمع حنادس . (٢) جمع نازع وهم الرماة . (٣) فضة ولا ذهباً .

(٤) كرثنا نزل بنا واشتمد علينا (٥) بهظنا أنقلنا (٦) تهرقنا .

(٧) ضلالا وخسرانا وهلاكاً .

وركضوا في ميادين الغي ، جهلاً باستدراج الله وأمننا لمكر الله فأتاهم
بأس الله بياتاً وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدها
للقوم الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان ^(١) وقد غره بالله الغرور ، أرسل
لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر
عليه ، فنادى حزبه وجمع مكايده ورعى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه
وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق
ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .
أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً إنما عاد إلى
المنبر بعد الصلاة ، أنه كره أن يخاطب بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن
استتمام الكلام بعد أن اسحنف فيه ^(٢) شدق الوعك ، فادعوا الله لأمر المؤمنين
بالعافية فقد أبد لكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع
للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حریم
المسلمين ، الشاب ^(٣) المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار
الذين أصاحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .
يأهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى
أتاح الله لنا شيعةتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ،
وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون ،
فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل
الشام ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام ، ومن عليكم بأمام منحه العدالة

(١) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان . (٢) توسع وزاد .

(٣) كانت سنة عند استخلافه ثمانياً وعشرين سنة .

وأعطاه حسن الآيالة ^(١) فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا
تخذعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا
وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ
إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ^(٢) ، وأمير المؤمنين عبد الله بن
محمد ^(٣) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسامه إلى عيسى
ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

٣ - ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، خطب أبو
العباس السفاح بالشام فقال : -

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار
جهنم يصلونها وبئس القرار » نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل
مروان يتسكعون بكم الظلم وينهرون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم
حرم الله وحرم رسوله ، ماذا يقول زعمائكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء
أضلونا فآتاهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل
ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة
واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الإقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحماله
على جهلكم فليفرخ روعكم ^(٤) ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع
أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

(١) الآيالة السياسة من آل إليه أمر الناس ساسهم

(٢) لأن الخلفاء قبله كانوا في المدينة والامويين منكرون (٣) يعني السفاح

(٤) أى ليخرج قلبكم ما به من خوف كما تخرج البيضة القرخ

٤ - وخطب عنه عيسى بن علي إذ ذاك بها فقال : -

الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت
والله الأشقر^(١) نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره
ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى، أما والله لقد كرهتهم العبدان
التي أفتروها^(٢) وأمسكت السماء درها والأرض ريعها، وقحل الضرع^(٣)
وجفر الفنيق^(٤)، وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء،
وكان ربك بالمرصاد قدمدم عليهم وبهم بذنبهم فسواها^(٥) ولا يخاف
عقباها، وملكنا الله أمركم عباد الله لينظر كيف تعملون، فالشكر
الشكر، فانه من دواعي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء
وبغيات الفتن فأنما نحن به وله .

٥ - ولما حج أبو مسلم الخراساني في خلافة السفاح خطب
بالمدينة فقال :

الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الاسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى
محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه،
نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي
حفظه بعامة وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب
عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم جعل الحق بعد محمد
صلى الله عليه وآله في أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول

(١) يعني مروان بن محمد وكان لونه كذلك . (٢) علوها . (٣) يبس

(٤) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة وجفر أمسك عن الضراب

(٥) طحنهم فسوى الطحنة بما هي عليه أي سحقها

الله صلى الله عليه وآله على اللاواء^(١) والشدة، وأغضى من أغضى على الاستبداد والآثرة، ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، إن رنق جور فتقوه، أو فتق حق رتقوه، بين ظهراني قوم آثروا العاجل على الآجل والفانى على الباقي أهل خور وما خور^(٢)، وطنابير ومزامير^(٣)، إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشبهات، والمغانم في المحارم، والفىء في الغنى هكذا كان زمانهم وبه كن يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالامر منهم، فلم وبم أيها الناس؛ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة الشمر كاه في النسب والورثة في السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم في الجذب جائعكم، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط، وما زلتم بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وسفيا نيا مرة ومر وانيا مرة^(٤) حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته^(٥) يضربكم بسيفه فأعطيتهموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن

(١) الشدة فعله لئى كفرح (٢) الماخور بيت البغاء (٣) جمعا مزار وطنبار أو طنبور من أدوات الطرب .

(٤) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفيا نى بنو سفيا ن والمروانى بنو مروان.

(٥) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الأصل.

آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الزادة السادة، بنو عم رسول الله ﷺ ومنزل جبريل بالتنزيل، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ، شيد الله بهم الهدى وجلى بهم العمى، لم يسمع بمثل العباس، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة، أبو رسول الله ﷺ بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيّه، أمينه يوم العقبة وناصره بمكة^(١) ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند ماتق الفتتين^(٢) لا يخالف له رسماً، ولا يعصى له حكماً، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله ﷺ وآله في الأحزاب^(٣) ها، إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولي الأبصار.

٦ - وخطب أبو جعفر المنصور^(٤) بالمدائن عند قتل أبي مسلم فقال:

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده وفلمات لسانه وصفحات وجهه، وأبداها الله لامامه بأعزاز دينه وإعلاء حقه، إنا لن نبغسكم حقوقكم ولن نبغس الدين حقه عليكم إنه من نازعنا عروة هذا القميص^(٥) أجزرنا خبي هذا الغمد^(٦)، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

(١) يعنى ماكان من العباس قبل اعلان اسلامه من ارسال أخبار وأمداد لرسول الله (٢) كان أحد من حول البغلة (٣) نيق العقاب الموضع الذي شفع به العباس يوم فتح مكة في أهلها (٤) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله (٥) يكنى عن الخلافة (٦) كناية عن السيف

٧ -- ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب الملقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المدينة إلى العراق
والقائم في سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبدالله المذكور أن يسلم
إليه ابنيه محمد وإبراهيم مدعيي جبهله مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد
الأموي لمحمد هذا ؛ خطب في أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :
يا أهل خراسان ؛ أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم
غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد
علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ؛ فلم نعرض
لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فتناطح بالدماء
وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختافت عليه الكافة ؛ ثم وثبت
عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده
الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل ؛ قد عرضت عليه الأموال فقبلها
فدس إليه معاوية « إني أجعلك ولي عهدي من بعدى » فخذه فأنسلخه
مما كان فيه وسامه إليه ؛ فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطأها
غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ؛ ثم قام من بعده الحسين بن
علي فخذه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق
في الفتن ؛ أهل هذه المدرة ^(١) السوداء — وأشار إلى الكوفة —
فوالله ما هي بحرب فاحار بها ولا سلم ؛ فأسالمها ؛ فرق الله بيني وبينها فخذلوه
وأسلموه حتى قتل ؛ ثم قام من بعده زيد بن علي فخذه أهل الكوفة

(١) المدرة الطينة وأهل المدر سكان القرى وأهل الحجر سكان المدن

أما أهل الوبر فسكان قيام الشعر في البوادي

وغروه فلما أخرجه وأظهره أسلموه . وقد كان أتى محمد بن علي فناشده
 في الخروج ^(١) وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إننا نجد في
 بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون
 ذلك المصاب . وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم
 يقبل وتم على خروجه فقتل وصاب بالكناسة ^(٢) ، ثم وثب علينا بنو أمية
 فأما تواسرنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تره يطالبونها
 وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد
 فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة ^(٣) حتى ابتعثكم الله لنا
 شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل
 الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فأقر الحق مقره
 وأظهر مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله
 رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها
 وحكمه العادل لنا ، وثبوا علنا ظلما وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله
 به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجن
 فاني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني
 عنهم بعض السقم والتعرم ^(٤) وقد دست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان
 نخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة

(٣) اقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحريمة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين

(٤) يعني بالسقم الخلاف في الرأي وبالتعرم التهيؤ للخروج .

أَتَوْهُمْ بِالْمَدِينَةِ فَدَسُّوا إِلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ شَيْخٌ وَلَا شَابٌ وَلَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا بِأَيْدِيهِمْ بَيْعَةً اسْتَعْلَمَتْ بِهَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَحَلَّتْ لِي عِنْدَ ذَلِكَ ، بِنَقْضِهِمْ بَيْعَتِي وَطَلْبِهِمُ الْفِتْنَةَ وَالتَّمَسُّهُمُ الْخُرُوجَ عَلَيَّ فَلَا يَرُونَ أَنِّي أَتَيْتُ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ يَتَقِينَ ثُمَّ نَزَلَ وَهُوَ يَتْلُو عَلَى دَرَجِ الْمَنْبَرِ هَذِهِ الْآيَةُ « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » .

٨ - ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء : —

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ^(١) وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأئصار الموالين ثم قال - اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وعملوا بغير كتابك ، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصيهم عددا واقتلهم بددا ^(٢) ولا تبق على الأرض منهم أحدا ^(٣) ٩ - ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله

في السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله
رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

(١) هذا زعم بعيد التصديق عن أبي جعفر (٢) متفرقين مبددين

(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه إبراهيم بالبصرة بأن قتل

المنصور كليهما .

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون مأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل
ففي كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الأمور اجتنابها
والتفت إلى الربيع فقال « قل لصاحبك قد مضى من يؤسنا مدة ومن
نعيمك مثلها والموعود الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط
أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة.

١٠ - وخطب المنصور يوم الجمعة ، فاما قال « الحمد لله أحمدوه وأستعينه
وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »
قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال :
« سمعا سمعا لمن فهم عن الله وذكره وأعوذ بالله أن أكون جبارا
عنيذا ، وأن تأخذني العزة بالاثم لقد ضلكت إذن وما أنا من المهتمدين ، وأنت
أيها القائل والله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال
فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويليك لو هممت ^(١) فاهتبلها ^(٢) إذا غفرت
وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة عاينا نزلت ومن عندنا
فصلت ، فردوا الأمر إلى أهله تورده موارد وتصدروه مصادره »
فكان كأنه يقرؤها من كفة ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله أيها الناس اتقوا الله

١١ - ولما انهزم عبد الله بن علي عم المنصور بعد خروجه عليه
بالشام ^(٣) وقدم عليه وفدها للاستطاف قام الحارث بن عبد الرحمن

(١) يريد بعقابك (٢) اغتنامها (٣) كان سبب خروج عبد الله على المنصور
مايزعمه من أن السقاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولي
العهد بعدي » وشهد له جماعة بذلك

الغفاري فقال :-

يا أمير المؤمنين إنا أسنا وقد مبأهاة وإنما نحن وفدتوبة وإنا ابتلينا
بفتنة استخفت كرمنا واستفرت حليمنا : ونحن بما قدمنا معترفون
ومما سلف منا معترفون ، فإن تعاقبنا فيما أجر منا وإن تعف عنا فبفضلك
علينا : فاصفح عنا اذ ملكك ، وامنن اذ قدرت ، وأحسن اذ ظفرت ، فطلما
أحسنك إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد
ضياعه عليه بالخطوة .

١٢ - وكان عبدالرحمن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام ، يتردد
على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به
والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ^(١) ولقد حدثني
عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع بيت
غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » تحقيق على الوالى أن يكون
لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم سائرا ، وبالقسط فيما بينهم قائما ،
لا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوانا ، فقد كانت بيد رسول الله
صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل
فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقدفها لا تملأ قلوبهم رعبا » فكيف
من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين
إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

(١) نقيير النواة قناتها والفتيل الخطيط المستقر فيها .

بخدمته أعرابيا لم يتعمده وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك . واعلم أن كل مافي يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس أحدكم ^(١) من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويزل نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعة ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة ، بعيد الغرة ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يحنق في الحق على جرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . »
واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف ^(٢) نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ^(٣) ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذلك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذلك شر الاكياس ^(٤)
واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك ^(٥) في تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »

(١) قاب القوس ما بين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان

فظلم (٤) الحزمة جمع كيس (٥) عهد الله بن عباس .

أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عماته
الأيدي ، فأعيزك بالله أن يخيل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله
عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره ، فقد قال « يا صفية عممة محمد ويا فاطمة
بنت محمد استوهما أنفسكما من الله إني لأغني عنكما من الله شيئاً » ،
وكان جدك الأكبر^(١) سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال
« أي عم ، نفس تحميها خير لك من إمارة لا تحميها » نظراً لعمه وشفقة
عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بحوضه فلا يستطيع له نفعا ولا
عنه دفعا . ثم قال : هذه نصيحتي إن قبالتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها
فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عاياه ، فقال المنصور يلي
نقيامها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ - ولما تراجع المهدي^(٢) ووزرائه وأهل بيته تدبير الرأي في
حرب خراسان كان مما قال المهدي فيمار آه رأيا استقر عاياه ، الخطب أيسر
مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عاياه ، إنه لا بد لولي عهدي أن
يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم إليهم رسله
ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشيطا إليهم . خنقا عليهم ، يريد ألا يدع أحدا
من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل ،
وألبدسه قناع القهر ، وقلده طوق الذل ، ولا أحدا من الذين عملوا في قص
جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاية الحق إلا أجرى عليهم ديم
فضله وجداول نهله ، فاذا خرج مزمعا به مجمعا عليه ، لم يسر إلا قليلا حتى
يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتبه ، ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة

(١) العباس (٢) هو أبو عبد الله المهدي بن المنصور

القلوب ووقعت طائفة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل
نظراً لهم وبراً بهم وتعطفوا عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع
طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال .
ثم كان مما قال في وصاية ولي عهده موسى الهادي حين أزمع
الشخص إلى خراسان :

أى بنى، إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصيباً^(١) ولمثنى
أعطاف الرعية غاية^(٢) ، فحسنتك شاملة ، وإساءتك نائية : وأمرك ظاهر .
فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم
بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه ،
وليس بكافيك من يسخط عليك إيثارك رضا من سواه - إلى أن قال
بعد أن أوصاه بالكرامة في الخاصة والعدل في العامة - ولا ينفكن في
ظل كرامتك نازلاً وبعري حبلك متعلقاً رجلاً ، أحدهما كريمة من
كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل وحلم
راجح ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول
بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأئحاء العرب ووضع الكتب
عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية
من مآسئك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره في حربك
وتدخله في أمرك ، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتى ويرعى
في خضرة جنانى ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأئمة

(١) السميت القصد والنصب بفتح فسكون ويحرك العلم المنسوب والغاية

(٢) يريد تدللهم من مشى ثانياً عظمه تدللاً وكبراً

أقروا ما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب
مناظرتك فيما تصدر ، فسر على بركة الله أصبحك الله من عونه وتوفيقه
دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .

١٤ - وأوصى الرشيد علي بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين

فقال :

يا أحر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ،
وصير يدك عليه مبسورة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك
أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعامه السنن
وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذ
بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا
مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير
أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ،
وقومه ما استطاعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

١٥ - ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي على الشام لهياج

العصبية بها فشنخص إليها في عدة وعدد ثم عاد وقد أعاد الأمن والطمانينة

ففيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم
تضرعي ، وأنسأني أجلى حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه وامتن
علي بتقبيل يده وردني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لا أذكر غيبتى عنه
ومخرجى ، والمقادير التي أزعمتني فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتني ، وخطابا
أحاطت بي - إلى أن قال بعد إطالة في التزلف والتقرب - إن الله

يأمر المؤمنين لم يزل يبليكم في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك . ويريك في رعيته غاية أمنيته ، فيصالح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعشعهم ، حفظاً لك فيهم ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضاتك ، والله الحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك ، طالبون لعنوك ، واثقون بحاكمك ، مؤمنون فضلك آمنون بأمرتك ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لسألتهم . وإيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخذ الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مرآقهم وأصلح دماءهم وأولاني الجميل فيهم ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك - إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر في إطالة بأسقة لهد العجز - وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشيره ^(١) أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عنى حقك وجليل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ - وخطب عبد الملك بن صالح بن علي عم الرشيد بالشام وكان

واليه عليها في نفرة أرادها منهم فتشاققوا فقال .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم في الدين وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيه حمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » فقاتلكم الله أنى تصرفون ، بحث مائة وقلوب طائرة تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرم الله فانه دريئتمكم ^(١) ، وحرم رسوله فانه مغزاكم ^(٢) أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا أو لا وسعنكم إرغاما ونكالا .

١٧ - ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح اسعى كان به إليه بطمعه في الخلافة ، حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه ويسمع منه فاستدعاه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه ، فدخل فسلم فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجادب منازعا وخصما ، فقال الرشيد ولم ، قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد على السلام ، أنصف نصفه العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثار العدل واستعمالا للتحية ، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك ،

« ١ » الدريئة هنا الحليقة يتعلم الرمي عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج

بالكعبة . « ٢ » يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد^(١)
ثم قال أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همم، وعارضها قد
لمع^(٢)، وكأني بالوعيد قد أوري ناراً تسطع فأقاع عن براجم بلا معاصم
ورعوس بلاغلاصم^(٣)، فمها مهلا فبي والله سهل لكم الوعر، وصفاء لكم
الكدر، وألقت اليكم الأمور أثناء أزمتهافنذار لكم نذار قبل حلول
داهية خبوط باليد لبوط بالرجل - فقال عبد الملك -
اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك، ولا
تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلت لك
النصيحة، ومحضت لك الطاعة، وشددت أواخي ما كك بأثقل من ركني
يلعلم^(٤) وتركك عدوك مشتغلاً، فالله الله في ذي رحمتك أن تقطعه بعد أن
بللته^(٥)، بظن أفصح الكتاب لي بفضله^(٦) أو ببغى باغ ينهس اللحم
ويالغ الدم^(٧) فقد والله سهلت لك الوعر وذللت لك الأمور وجمعت على
طاعتك القلوب في الصدور، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق
فرجته، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب
ومقام ضيق فرجته بياني ولساني وجدل

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قالها عمرو بن معديكرب الزبيدي
في قيس بن مكشوح المرادي (٢) الشؤبوب دفعة المطر وهمم هطل والعارض
السحاب ولمع أضواء برفقه (٣) البراجم جمع برجمة وهي مفصل الأصبع والغلاصم
جمع غلصة وهي رأس الحلقة (٤) الأواخي جمع أخية وهي العروة ويلعلم
جبل بالمدينة معروف (٥) قويتية بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله
بمقدم أسنانه، ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه وكلاهما يتفق ووفق الواشي

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي وزحل^(١)
فقال له الرشيد أما والله لو لا أن بقاء علي بن هاشم اضربت عنقك
ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطلقه الأمين وعقد له على الشام.
١٨ - ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى واليه على مكة والمدينة
يأمره بخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابي الرشيد
الذين كانا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما ، جمع داود الناس
وخطبهم مناديا بخلع الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة
أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة
والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يفدو فدا الله وإلى قبائلكم يأتي المسمومون وقد
علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع
لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم ، من العهد والميثاق ، لتنصروا المظلوم
منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغي ، والمغدور به على الغادر . ألا
وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر وخالف
الشروط التي أعطاه من نفسه في بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم
خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغدور به . ألا
وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت
قلنسوتي هذه من رأسي - ثم خلعها وقال - قد بايعت لعبد الله المأمون
أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة خليفتمكم - فقاموا إليه
فبايعوه للمأمون وخلعوا الأمين .

(١) يريد الفيل في قوته ، وفياله وهو سائسه في دهاقه ، وزحل نزحزح

١٩ - ولما تولى الأمر عن المؤمنين، وتسلل عنه الانصار إلى طاهر
ابن الحسين خطب من بقي معه في بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذي
يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، واليه المصير ، أحمد
على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الأموال ،
وحلول النوائب وتوفد المصائب ^(١) أحمداً يدخر لي به أجزل الجزاء
ويرفدني ^(٢) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته ، وأن محمداً عبده الأمين ورسوله
إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم أمين رب العالمين : ثم أخذ يفضل
ما ألع اليه في ديباجته إلى أن قال - فالحمد لله حمد من أسلم لأمره
ورضى بقدره والسلام .

٢٠ - وخطب طاهر بن الحسين ببغداد يوم الجمعة بعد قتل
الأمين فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز
من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا يصالح
عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين ، إن ظهور غلبتنا لم يكن من
أيدينا ولا كيدنا ^(٣) بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عماد الدين . وقوام
العبادة ، وضبط الأطراف وسد الثغور واعداد العدة وجمع الفيء ، وإنفاذ
الحكم ونشر العدل ، وإحياء السنة بعد إذ بال البطالات ^(٤) والتلذذ بموبق

(١) نزولها وفودا وجماعات (٢) يعطيني والرفد العطاء (٣) أي لم يكن من
قوتنا ولا من حيلتنا (٤) البطالات جمع بطالة وهي التماذي في الخسر والضياع ،
واذبالها إذواؤها بكثرة الأمعان فيها .

الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب درة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كاف برونق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء وعيد الله عز وجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما تكب عن عهده وار تكب معصيته وخالف أمره ، وغير ناهية وعظته مؤدبه ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة ^(١) واسلكوا مناحي سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قد حوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة ^(٢) فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢١ — وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل

الناس للنسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والثناء :

أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عهدا لا تحله حدوده ونسفكه فرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم علي ^(٣) ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي إلا ما كن في الله وله ، جعلت كاه لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا . إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسأله إياي عن حقه وخاقله ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

٢٢ — ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم :

يا أمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك

(١) جمع عصام وهو رباط القربة الذي به تحمل (٢) فرقوا مجتمعيها

(٣) النحلة العطية والهبة

عن رعيتك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك ، وأيست أن يعاين
مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعا
ندعوك ونثني عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت
نظرتك وكرمت مقدرتك ، جبرت الفقير وفككت الأسير ، فانك
يا أمير المؤمنين كما قال الأول

مازلت في البذل والنوال وإطلاق لعان مجرمه غلق^(١)
حتى تمنى البراء^(٢) أنهم عندك أسرى في القيد والخلق

ثانيا - حياتها

أقبل العصر العباسي والناس قريبو عهد بالبدواة ، فيهم المقدرة على
المشاهدة والارتجال ، وفي ألسنتهم مكة الفصاحة والببان ، فالبادية هي
البادية لم يصيبها ما أصابها بعد من عى واستعجام ، والأمصا رملية بجالية
العرب الذين ارتشفوا أفوابق البلاغة ولدانا واستدروا أخلافها يافعين
وشبانا ، وعلى رأس هؤلاء خاصة في الذروة مما ذكرنا ، من الخلفاء وذوى
القربة القريبة أعماما وأبناء أعمام ، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل
خارجين على أولئك العباسيين أو ناقلين ، ومن حولهم شيعه تشد أزهرهم
وتعمل على إنالتهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عربا خاصا أو موالى
متعربين . وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها
سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول ، ولم ينفسوا عن
خناقهم بكلام هائم في البوادي أو متخفين في الامصار ، فما إن حان

(١) العاني الأسير والغلق المحبوس (٢) جمع برى ككريم وكرام

حين بن مروان حتى كانوا في خطابتهم كالقدر أخذ ماؤها في الغليان
فاضطرب وفار وصار حيا يدهر به مافي بطونهم والجلود .
وهذا بيان ما تناولت الخطابة في ذلك وفي غيره من أغراض بعد التمهيد له :
كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذراية اللسان ،
وحضور البديهة ومتانة الارتجال ؛ يدل ذلك على ذلك ما سلف من أبي جعفر
المنصور . إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال
كأنه يقرؤه من كفه ، ثم عاد إلى الخطبة بعد ، يصل ما كان بما يكون ،
ويدلك عليه أيضا ما تقدم عن دواد بن علي في تلك الخطبة القوية
الضافية التي كانت منه إذ قطع الوعاك على أبي العباس خطبته ، وهذا
داود المذكور يقول محسنا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا
لا ننطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين وننطق
مرشدين ، ونحن بعد أمراء القول ، فينا ، وشجبت أعراقه ، وعائنا عطفت
أغصانه ولنا تهدلت عمراته ، فتخير منه ما احلولى وعذب ، وانطرح منه
ما املوح وخبت » ثم هم بعد كثرة كثيرة مألآت الأُمصار واحتلت
المنابر والأعواد ^(١) .

(١) منهم الخليفةان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدهما سائر
الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسي الأول ، ومنهم عبدالله وداود وصالح وسليمان
وعيسى من أعمام الخليفتين الأولين ، ومنهم من أبناء هؤلاء الأعمام عبد الملك
واسماعيل وعبد الله أبناء صالح ، وداود بن عيسى وجعفر ومحمد ابنا سليمان ، ومن أبناء
جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قل الجاحظ فيهم :

« لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلال وفي العلم بقريش والدولة

١- بهذه الكثرة في العدد وتلك القوة في العدد ، كان بنو العباس نقمة
ولعنة على الدولة الدائلة لا يزالون يذكرون اجترائها على الدين ،
واحتجائها الفى ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان
جورها يقض منهم المضاجع ويرمض الميرون ، ثم يذكرون كيف كان
غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على
رجال الطغيان ، فأبدل الأمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح ،
إلى غير ذلك من المعاني التي أكثروا فيها تعفية لآثار بني مروان
وتبديتها لهذا الملك الجديد ، وهأنت ذا تراها ماثلة في كثير من خطبهم
أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة
وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبي مسلم بالمدينة
عقب حجة .

٢- وما كاد الله اعى إلى استخدام الخطابة في التعفية على الدولة الدائلة ينقضى
بانهضاء عهد السفاح الذي أفنأهم قتلا وتشريدا ، ويحل بعدد عهد المنصور ،
حتى نبت لها داع جديد هو استخدامها في مقاومة العلويين ، فقد خرجوا
على المنصور يطالبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذي يقربهم إلى
رسول الله كما يقرب العباسيين العباس ، ثم هم بعداً ببناء فاطمة البتول بنت
رسول الله ، وللحامة إلى أبنائها هوى متغلغل في السواد . وقد هال ذلك
أبا جعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكر نا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله
وبرجال الدعوة مع البيان المتيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقذار
الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يشبهون عن هذه الأسماء
إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

وأيديهم المسجونين، ووجهه بالجيش إلى ولديه محمد بالمدينة وإبراهيم بالبصرة
للقضاء على خروجيهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفي خلال ذلك كانت
تستخدم الخطابة من العلويين تسويغاً لخروج وأداة لجمع الأنصار ،
كما كانت تستخدم من المنصور تبيننا لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا
للموقف الذي وقفه إزاءهم من قتال ؛ مطيلاً في ذلك ومكثر من الأدلة
والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينزع محبتهم من القلوب حتى قلوب
قواده وعظماء دولته كأبي مسلم الخراساني الذي قتله ليلة إلى هؤلاء ثم
استغل الخطابة كما تقوم بعد هذا الحدث الخطير في تفهيم الناس أنه لم
يك فيه من المعتدين .

٣- هذا الوادي وذلك كان الأثر الأودية بتيار الخطابة ؛ فجرى فيهما
عظيم اللجة قوى الاندفاع ؛ ثم كان كذلك في واد ثلث اطرد واياها ،
هو استخدامها في الثورات لتحميدس الجيوش والنهوض بها إلى ميادين
القتال ، أولتذيبط همها والقعود بها حتى عن نصرته من يكون له في نصرته
أمل ورجاء . وإليك في هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمن والمأمون .
أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض بجيشه إلى جيش على بن
عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جندك قد هابوا هذا الجيش ،
وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعبا . فلو أقمت مكانك ودافعت » فلم يسمع له
طاهر الأريثا خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم
لستم كم هؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ؛ إن هؤلاء ضيعوا
ما حفظتم ، وصغروا ما عظمتم ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ، وإنما يطلبون
الباطل ، ويقاثلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ، فلو قد

غضضتم الأبصار وأثبتتم الأقدام ، قد أنجز الله وعده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره ، فجالدوا طواغيت الفتنة وبعاسيب النار عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فانما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين » ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل .

وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأُميين ليده عليه في إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ، ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رهوسها ووجوهها ، ولكن ما إن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال « يا أهل حمص ، الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنختم ، إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقترب الأجل » وقام آخر من كاب فقال « يامعشر كاب إنها الراية السوداء والله ماولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ونخطوه قبل أن يضطرم ، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت الفلسطى خير من العيش الجزرى ، ألا واني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي » ثم سار هو والحمصى فسار معهما عامة أهل الشام ، وحدث أن مات عبد الملك بن صالح ، فأقبل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وكان معه جند الجزيرة الى بغداد وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة

بعقول الناس ما كان من الحسين هذا، فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأمين حتى قام فيهم مناديا بخلمه يقول « يا معشر الأبناء إن خلافة الله لا تجاوز بالبطل و نعمه لا تستدحب بالتجبر والتكبر، وإن محمد يريد أن يوتغ أديانكم ^(١) وينسكت بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم إلى غيركم، وبالله إن طالت به مدة وراجعته من أمره قوة ليرجعن ربك ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يتطعم آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يذبح عزكم، فو الله لا ينصره منكم ناصر الاخذل، ولا يمنعه مانع الا قتل، وما عند الله لأحد هواده ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له في خلع الأمين وحبسه والبيعة للمأمون . وإنالذا كرون هنا وفي هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك في نلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى ^(٢) فقال « يا معشر الحربية هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرهم فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبل على فارس فصاح بالناس اسكتوا فسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لا رزقكم ؟ قالوا لا ، قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا ما علمنا ، قال فهل عزل أحدا من قوادكم ؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتوه وأعنتم عدوه على اضطهاده

(١) يفسدها (٢) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله

وأُسره، أما والله ما قتل قوم خليفة تم قط إلا سلط الله عليهم السيف
القاتل والحتف الجارف، انهضوا إلى خليفةكم وادفعوا عنه وقاتلوا
من أراد خلعهم والفتك به «فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه
وأُسروا، ثم دخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس
الخلافة. ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأُمصار وخاصة مكة كما
تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليهما، وهجمت جيوش طاهر على بغداد
وليس لأهلها نظام، لما بعد أن يدوم انتفاعه بهذا الانتصار.

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحي الثلاث
كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار.

١- منها أن يتجدها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من
سخائم القلوب وغضبات النفوس، فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى
تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان
يُدخل بالمغضوب عليه على الغاضب، وقلب الثانى على الاول حميم آن، فياً أخذ
فى الترضى والاستعطاف فاذا هذا الحميم بزد وسلام، وإذا هو قد انتقل
بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى ذروة المكافأة والثواب، وقد
سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد
خروجه عليه مع عمه عبد الله، فشفع رضاه عنه برد ضياعه عليه.
وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول
« يا أمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه أيتهم ما سيفك،
وأضرعهما خوفك، فنادى بك الله يا أمير المؤمنين أن تصعر لهما خدك،
فيناى عنهما رفقك، أولت عطفك عليهما شوابك النسب وأواصر الرحم »

فلا يملك أن يأنفت إلى الربيع فيقول اردد عليهم ما ضياع أبيهم ما ثم يقول
 كذا والله أحب أن تكون نساء بني هاشم . بل هذا جعفر الصادق
 يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقتله فيسلم فيرد عليه
 « لا سلم الله عليك يا عذر الله تعمل على الغوائل في ما كى » فيقول
 جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر،
 وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم »
 فينكس أبو جعفر رأسه ملياً ثم يرفعه قائلاً « إلى أبا عبد الله فأنت
 القريب القرابة، ذو الرحم الواشجة، السليم الناحية : القليل الغائلة » ثم
 يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفاً له عن
 بعضه، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله : ثم يقول ياربيع عجل لأبي
 عبد الله كسوته وجائزته وإذنه . ومن بعد أبي جعفر طالما استعطف
 الخطباء الخلفاء فقالوا بقولهم غفران عظام الذنوب ، وتخطوا ذلك إلى
 الخطوة برد ما صودر من أموالهم زائداً أسنى العطايا وأجزل الصلات
 كما فعل المأمون مع عمه إبراهيم ^(١) وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل ^(٢)
 وغير هذين وهذين كثير .

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى علي بن موسى الرضا من العلويين وسمع
 العباسيون ذلك أنكروه وخلصوه وبايعوا عمه إبراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب
 وتوارى فجد في طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله .

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطىء الفرات وعظم أمره، فوجه إليه
 المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقاً إلى المعتصم . ولم نذكر استعطافه
 أطوله أيضاً .

٢ - ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدد أداة مسخطة وعقاب، وسوط نقمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفاً ورفقاً، ويطيروا به مما يسمع رعباً وجزعاً، استمع إلى داود بن علي يقول وقد بلغه أن قوماً أظهرُوا شكاً أبي العباس السفاح فقال «أغدر يا أهل الختر والتبديل، ألم يردكم الفتح المبين عن الخوض في ذم أمير المؤمنين، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بمدان حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنها، الآن يا منابت الدمن مشيتم الضراء وديبتم الحمر^(١) أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأتم لأحصدنكم بظلمات السيوف ثم يغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم» ثم لا يكونوا أمثالكم» وفي مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه، تنبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ في يومه لغيره، ففشي القصد وقال الفصل وجانب الهجر ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه - أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفاؤه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فانما بعد الوعيد الإيقاع و«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»

٣ - وبين حالي الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان، يستخدم الخطابة في معاتبة من ارتكب معه عسيماً فقدر عليه، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران، لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة، فإن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر، ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام

(١) الضراء الشجر الملتف والحمر كل ما وارى وستر وكلاهما كناية عن التخفي في تدبير المسكايد لأوما وجبنا .

بعامل الرحمة والحنان: فيأتي قوله لذلك بين المشدة واللين كذاي كنت
من الامين للحسين بن علي بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك
على الناس وأوله أعنة الخليل وأمهلاً يده من الأموال وأشرف
أقداركم في أهل خراسان وأرفع منازلكم دلي غيركم من القواد: قل
بلى: قال فما الذي استعقتت به منك أن تخام طاعتي وتؤلب الناس على،
وتندبهم إلى قتالي: قال الذقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحة
وتفضله: قل فإن أمير المؤمنين تدفعك ذلك بك وولاك الطامب بشارك
ومن قتل من أهل بيتك »^(١) ثم دعاه له بخلمة فخلعها عليه وحمله على
مراكب وأمره بالسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب في نفر من
خدمته ومواليه فنادى الأُميين في الناس: « ذلم بعد هناك موضع لنعو -
فركبوا في طامبه فأدركوه وقتلوه. وكذاي كن من المأمون للفضل
ابن الربيع »^(٢) إذ ظفر به فقد قال له « يا فضل أكن من حقي عليك وحق
آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثابني وتسبني وتحرض على دمي،
أحب أن أفعل بك ما فعلته بي » فقال يا أمير المؤمنين إن عذري
يحققك إذا كنت واضحا جميلا فكيف إذا حفته العيوب وقبخته
الذنوب: فلا يضيق عني من عفوكم ماوسع غيري منك فأنت كما قال
الشاعر فيك

صفوح عن الأجرام حتى كأنه من العفول يعرف من الناس مجرما

(١) يعني أخذه بشار أبيه من طاهر بن الحسين فانه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأُميين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الامين

معهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه

وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم ينفش بالكره مسامحا
٤ - ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء والمتصالحين
الأصفياء أو الراغبين في التفاصح من البلاء ، فتري فيها حيث الخصام
نارا وجحما ، وحيث التحاب جنة ونعما ، وحيث الرغبة في التفاصح علوا
في البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين
الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفهم والرد المقتنع ، وأما حوار التحاب
والتواد فاليك منه ما حدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور
بالربيع فقال له ياربيع سلني ما تريد فقد سكمت حتى أنطقت ، وخففت
حتى أثقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أذهب
بحلك ولا أستقص عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتني مالك ، وإن
يومي بفضلك على أحسن من أمسي ، وغدك في تأميلي أحسن من يومي ،
ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد ، قال
صدقت علمي بهذا منك أحلك هذا المحل فسألني ما شئت ، قال أسألك
أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه ، قال ياربيع إن الحب ليس بمال
يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب . قال فاجعل لي طريقا
إليه بالتفضل عليه ، قال صدقت وقد وصلتته بألف درهم ولم أصل بها
أحدا غير عمومي لتعلم ماله عندي فيكون منه ما يستدعي به محبتي ،
ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق
كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه ، قال صدقت .
أما حوار التفاصح فنجد منه ما روى من أن خالد بن صفوان دخل علي

السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب^(١) فقال ما تقول في أخوالي فقال ، هم هامة الشرف وعربين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لما ، واكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعما ، وأوفاهم ذمما وأبعدهم همما ، الجرة في الحرب والرفد في الجذب والرأس في كل خطاب وغيرهم بمنزلة العجب ، فقال وصفت أبنا صفوان فأحسنت فزاد أخواله في الفخر حتى غضب لأعمامه فقال : انخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه فقال « وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد^(٢) ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرد ومليكتهم امرأة » فأشرق وجه أبي العباس .

هـ - ولقد كانت الخطابة مر كباذلول في التعازي والتهاني ، يبلع به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنتون أبهج درجات البشر ، ذكر الطبري أنه لما ماتت الباقوة بنت المهدي جزع عليه جزع عالم يسمع بمنزلة نجاس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبه^(٣) له إذ قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرا وأعقبك صبورا ، ولا أجهد الله بلاءك بنعمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده » وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمؤمنين

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الممدان بن الديان

الحارثي ولذا يقال له ابن الحارثية .

(٢) العرد الحمار (٣) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقري

حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيرا ما كان يجمع بين التعزية والتهنئة في الخلافة وفي غير الخلافة . فمن الاول ماذكر في صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادثين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك . واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » . ومن الثانی ماذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد - قبل غضبه عليه - فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سرک الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرک ، وجعل هذه بهذه مثوبة علي الصبر ، وجزاء علي الشكر » .

٦ - ولقد اتخذ ذوو الحسن الخطابة رقي سحرية يتزلفون بها إلى أولى الأمر والنهي يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للمأمون يوما ، « الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك وسني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن فسح له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ما ألبسك ، أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيته لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيم للإسلام انتهت إلى عنايتك ودرجتك ؟

تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذي أنثت ناصره ، وسببها
الله أي نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء في فلكها
ضياء يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جرهر زها حسنه ونوره ، فهل
لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولي من أوليائك
سعد بأفعاله في دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فانما نالها بما
أيدته من رأيك وتديرك ، وأسعدته من حسك وتقديرك .

ولقد صار الحسن بهذا وزيرا للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .
وقيل للمهدي عن شبيب بن شيبه للإيقاع به ، إن شيبه يستعمل
الكلام ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح
فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعده المنبر وقال خذ في مدح أمير
المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال :
« أيها الناس ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة الأسد الخادر ، والبحر
الزاهر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهه منه
بأسه ومضاءه ، وأما البحر الزاهر فأشبهه منه بجوده وأعطاه ، وأما القمر
الباهر فأشبهه منه بنوره وضياءه ، وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه
وبهائه ، ثم نزل وهو يقول : -

وموقف مثل حد السيف قت به أحمى الدمار وترميني به الخدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا
فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ - وكثيرا ما كانت إحالة الرأي في مهام الأمور على السنة ذوى

البصائر والعقول : تلبس الأسلوب الخطابي فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجود لفظه كما يحصص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة في الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك في هذا ما صدر عن المهدي وأهل بيته ورجالات دولته من تدير الرأي في حرب خراسان وهو كثير . وقد سبق منه بعض ما كان من المهدي في إبداء رأيه ووصايته لولي عهده موسى الهادي ، واليك بعض ما كان من موسى هذا في الموضوع ، وعو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختياره قال « أيها المهدي لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادي بمضمرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها سترا ، واتخذوا العائل من دونها حجابا ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأُمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتلاحق ما دُهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأُمور بهم ، والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمانة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأي المهدي وفقه الله ألا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحرق بهم القتل ويحرق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فإن فعل بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي في مثونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

٨ - ولم تقف الخطابه إبان ازدهارها في هذا العصر أن تكون ذات باع يطول وقوة تجول في نواحي الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكننا عطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها في المراد .

فأما الوصايا فأنا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لجة نسب وقرابة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين ، وكوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول : « يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعاليه تكامل حذري ، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك نafs أخاه في سلطانه وغاراه ^(١) على ما في يده ، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبه بالكلام فإنك لست نظيره ، ولا تقتصره اقتصار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساور في المسير ^(٢) ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا في هذا العصر كثيرات كوصايا أبي جعفر المنصور لولي عهده المهدي وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما .

وأما النصائح فهي كالوصايا في مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها

(١) لاجه وخاصمه (٢) أي لا تحتد فيه .

تخلو من قيد الرابطة في القرابة والسن ، ومثلها في هذا العهد ما حدث من يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) ، إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضا « يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ، ولا تضق ضيقا حجازيا . » و كثيرا ما وجهت النصائح في هذا العصر توجيها عاما لفشو الحكمة فيه كقول مسلم بن قتيبة « لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ، لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة ويبعدا وهي قريبة ، ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك ، ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته » والنصائح على العكس من الوصايا يغلب فيها الإيجاز .

أما العظات فهي خلو من القيدين السالفين ، وإنما قيدها أن ترمى إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة بمختلف الطرق وشتى الأساليب ، كالذي رأيته فيما اخترنا بالنماذج من عظة الأوزاعي للمنصور وهي من العظات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك^(٢) إذ دخل على الرشيد يوما ، وبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأثى بقلة فلما أهوى بها إلى فيه ليشرّب ، قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشرية بك كنت

(١) كان والي العراقين مروان بن محمد (٢) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد

الكوفي قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ .

تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال اشرب هنالك الله، فلما شربها قال له
أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها
من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال بجميع ملكي، قال فما اغترارك بملك
قيمته بولة « فبكي هرون وانصرف ابن السماك .

تلك أم النواحي التي توضح ما كان للخطابة في العصر العباسي
الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من
الخطب الدينية في الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيّلون،
وقدما تصدر منهم في هذه الناحية القصار، وهذا نموذج من قصارها يوم
جمعة عن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة في خلافة المنصور إذ
لا يتسع المقام لطوالها قال .

الحمد لله أحمدته وأستعينه، وأستغفره وأؤمن به، وأتوكل عليه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .
من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد في الآخرة
والأولى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا
مبيننا . أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتتبع
رضوانه ويتجنب سخطه، فانما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى
الله، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله، فان تقوى الله أفضل
ما تحاث الناس عليه وتذاعوا إليه وقوا صوابه، « فاتقوا الله ما استطعتم
ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

هذا وإن فيما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبننا بها الكلام

على الأغراض ، لمرءة قرينا أن الخطابة في العصر العباسي الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ، ذلك بأن رجالها به كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية في بيانهم ، وتوافر الدواعي إلى الكلام أمامهم ، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمي ولبنى هاشم في ميادين القول سبق لا ينال . وأهم الطوابع التي تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما سلف هو مانسوفة الآن على سبيل الاجمال .

١ — طبعها بطابع ديني لا تزال تعتر به وتستمد منه وهذا أمر ما كان لرجالها عنه فكاك ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون لائقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بني أمية واجترأهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين ، ومن هنا عادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت في خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت في خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومن أقدر من بني هاشم في دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا لآيه مستغلين في شن الغارة على بني أمية ومن كانوا لهم أنصار ومشايخين ، وقد كانت الآيات تواترهم كما يواتي الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم في بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون :
أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل : والحمد لله الذي أفلج حجته وبعدها
للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا والفيء إرثا وجعلوا القرآن
عضنين ^(١) ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة
وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة ^(٢) وعندوا
واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم
من أحد أو تسمع لهم ركزا » . وعلى وتيرتها كانت خطبة عبد الملك بن
صالح في أهل الشام وقد ذكرت بالناذج .

٣- وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة المؤمنين ،
خطب داود بن علي فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم ^(٣) ،
أما أن لراقدم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون ، أغركم الأمهال حتى حسبتموه الأهال ، هيئات منكم وكيف بكم
والسوط كفى ^(٤) والسيف مشهر :

حتى تبديد قبيلة فقبيلة وبعض كل مثقف بالهام ^(٥)
وتقوم ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الإيتام
وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاء النفاق وعبد الضلالة ، أغركم
لين أساسي وطول إيناسي حتى ظن جاهداكم أن ذلك لفلول حد وفتور
جد وخور قنائة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فأما

(١) جمع عضه ، أي فرقا من سحر و كهانة وشعر (٢) العشيرة الأقربين

(٣) الصريخ هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المنقهر

إذ قد استو بلتم العافية^(١) فهندي فطام وفكالك وسيف يقدا لهام وإني أقول:
أغر كم أنى بأكرم شعبة رفيق وأنى بالفواحش أخرج
ومثلى إذا لم يجز أحسن سعيه تسكهم نعماء بفيها فتنطق
لعمري لقد فاحشتني فغلبتني هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أرفق

٤ - السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع
بقائها جزلة الأسلوب قوية الأداء ، نتيجة للحضارة التي صقلت اللغة
كما صقلت كل شيء ، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود ،
والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال ، ثم خطت نحو مزاجية الجمل
وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات ،
وإن فيما قرأت لها الشواهد على ما ذكرنا كثيرة كخطبة شبيب في المديح ،
على أنني أزيد هنا شاهداً مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان
مقدوراً للنثر بعده من صناعات . دخل رجل على المأمون يتظلم
من عامل له فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما ترك لي فضة إلا فضها ، ولا ذهباً
إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلبا^(٢) ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقاً إلا علقه ،
ولا عرضاً إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها^(٣) ، ولا جليلاً إلا أجلاه^(٤) ،
ولا دقيقاً إلا دقه^(٥) » .

٥ - ظهورها على السنة الموالي بجانب ظهورها على السنة العرب
وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير منهم أزمه الحكم
مع إجادتهم العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبي مسلم

(١) عدتوها وبيلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ما في ضرعها
(٤) رفعه (٥) كسره .

وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكي والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر في خطاب هؤلاء وأمثالهم من التعامل البادى فى الصياغة ، والخنوع الممعن فى الضراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لاتسكاد تجده من من مئيل فى هذا العصر على السنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وثبتت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين . لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت ، وكذلك كان الخدم الاتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بني مروان فى الأندلس والغالبة فى أفريقية (تونس) - وكلاهما يود لهم البقاء - إلى أن ضعف أمر بني العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمتد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء

على أيدي الخدم الأتراك من السلطة الدينيّة التي كانت تجعلهم مرغوبين
مرهوبين ، وإذا ماتت الرغبة إلى شخص والرغبة منه ، تقطعت بينه
وبين الناس أوامر الكلام ، وثانيهما ضعف أولئك الخدم في المقدرة على
الكلام وفي فهم ما يلقي إليهم من بيان ، ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك
الفراخ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالي الفرس المتعربين ،
وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ما كانت تتناول الخطابة في غير الناحية
الدينيّة من أغراض .

أما الناحية الدينيّة فقد استمر أولئك الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل
ما يودون ، فبقوا يزاولون الخطب في الجمع والأعياد ، ويخرجون إلى هذه
المواسم كما كان أسلافهم في مواكب الأبهة والجلال^(١) فبقى للخطب
الدينيّة في هذا العصر على أسنتهم وألسنة محاييمهم من فصحاء الولاة
والعمال شبه ما كان لها في سابقه من شأن واعتبار ، وما ساعد على هذا
أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على مال العربيّة من مكانة في التخاطب
العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الرازي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أي
قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون في تصويرها

ما شاء لهم البيان كما حدث من البحترى في رأيته التي يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل مما أتم وبسنة الله الرضوية تفر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل في خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس

أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة في هذا العيد وستأتي في نماذج

الشعر بعد .

وأنه كان كاسلافه الأول يجالس في بيته العلماء والأدباء (١) ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ، بسطا لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ما كان قد بقي لهم في سابقه من نفوذ ديني خالوا بينهم وبين الظهور في المواكب للناس حتى ما كان للخليفة في الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لتفقاته جماله معز الدولة المستكفي بالله خمسة آلاف درهم كل يوم (١) فقطع بذلك ، المدد الروحي الذي كان للخطابة من كلام الخلفاء ، ثم أخذ ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ، ففقد على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة حرفة تسند في بغداد بعد الخلفاء ، وفي سائر الحواضر بعد الولاة والعمال ، إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب .

ثم جاء العصر الرابع فجرى الأمر فيه على ما كان في الثالث من بقاء الحجز على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ، ولقد اشتهر من خطباء الحواضر في العصرين رجال كانوا ذوي مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه ، فأغنوا في هذه الناحية غناء عظيما وصاروا مددا لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة في غير حواضرهم وفي سائر المدن وأمها

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفي الذي لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كما تقدم وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير ، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوما ثم خلعه أشنع خلعة يجعل رجلين من أتباعه يجذباناه عن سريره ويجعلان صمامته في عنقه إلى حيث اعتقل ، على زعم أنه يلدس عليه ويكيد له .

القرى، حتى دونت خطب بعضهم في دواوين^(١) غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذي أخذ يحل بالعربية في العصر الأخير، لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول، فقد سار القائمون بها في طريق الاضمحلال مسرعين، وكان أول ما بدا عليهم من ضعف، عجزهم جملة عن الارتجال، ثم عجزهم عن المشافهة بعد إغداد، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المتابر من أوراق، ولشد ما كان الخطب فادحاً حينما عجزوا عن تحضيرها بأنفسهم، وأخذوا يكتبون خطب غيرهم، فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال، حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملئونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع، ولا يأمون فيها من نواحي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء ذي بال، على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث، وما نسمع الآن من مجموعهم في هذا الوقت المقيم الذي حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار.

(١) من هؤلاء على حسب سني وفاتهم في العصرين أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببغروت. والخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣. والخطيب التبريزي يحيى بن علي الشيباني المتوفى سنة ٥٠٢. والخطيب الرازي عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢ وزكي الدين الدمشقي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤. ثم خطيب القسطنطينية إبراهيم بن منصور العراقي المتوفى سنة ٦١٣.

الكتابة

قلنا إن لنثر اللغة جانباً أدبياً هو الخطابة والكتابة الانشائية، وآخر علمياً هو لغة التدوين والتصنيف، وإنا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة، وأن أن نشرع في الكلام على الكتابة جرياً على مارسمنا من نظام، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله في الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها في هذا العصر الطويل، فقد لبست فيه أثواباً عدة ذات تغاير في الاشكال والألوان، دفع إليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه.

فكانت منها الكتابة الديوانية وهي التي يتولاها رجال الدواوين على النحو الفني الذي نراه من كتيبة الوزارات الآن. منها ديوان الرسائل والتوقيعات، وديوان الخراج والنفقات، وديوان الضياع والاقطاعات، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى ما يشمل عدد المصالح العامة في تصريف الأمور، وهي مع اشتراكها جميعاً في ضم عدد من الكتيبة يتولى عملاً فنياً، مختلفة بعضها عن بعض في نوع الكتابة تبعاً لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان، والنظام الكتابي الذي يقتضيه إنجازها فيه، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره، كثيراً ما تأباه طبيعة العمل الجديد، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذفها كتيبته ولا يلزمها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين، غير أن الكتابة فيها جميعاً ماعداً ديوان الرسائل والتوقيعات لا تحتاج بعد معرفة فنيته إلى روية وإجهاد، إذ

لا تعدو القيد في الدفاتر أو التحرير من غير مشقة في الانشاء فهي خلو من المسحة الأدبية للغة كما هي الآن . أما في الديوان المذكور ، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع ، تنسأى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ما ينشئه الكتاب من رسائل على نمط ما في ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، وما يصورونه من القصص والمقامات ، ثم ما يدونه العلماء في التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العلمية من فنية خاضعة للطابع العلمي وإن كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الإخوانية ، وكتابة القصص والمقامات فإنها ذات جانب أدبي رفيع . جعلها نظيرة ما في ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيرة ما في غيره من سائر الدواوين ولما كان الأدب وحياته ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها ، صارت الكتابة الانشائية في ديوان الرسائل والتوقيعات ، وخارجها في الرسائل الإخوانية والقصص والمقامات من أبحاثهما في الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عنها البعد كله ، أما الكتابة العلمية فإنها يمان بها الإمام اليسير لما هو معروف من صلتها بكثير من العلوم والفنون . وعلى هذا الذي يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير في التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بإفازة في الشعر إن شاء الله .

الكتابة الانشائية

أولا - نماذجها

أ - في الرسائل والتوقيعات

١ - لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ،
أما بعد فإنا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا
من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا
الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولك
عهد الله وذمته وميثاقه ، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، إن تبنت من
قبل أن أقدر عليك ، أن أوثقتك على نفسك وولدك وإخوانك ، ومن
بايعك ومن تابعتك وجميع شيعتك ، وأن أعطيتك ألف ألف درهم
وأزلك من البلاد حيث شئت واقضى لك ما شئت من الحاجات ، وأن
أطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع
أحدا منكم بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من
يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ - فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من
عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم
يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة
منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن
لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»
وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني ، وقد تعلم أن الحق
حقنا وأنكم إنما طلبتموه بناء، ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلائنا،
وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والأمام، فكيف ورثتموه دوننا
ونحن أحياء؟ وقد عامت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا
ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وأنا بنو أم رسول الله صلى
الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم^(١) وبنو ابنته فاطمة
في الاسلام من بينكم ، فأنا أوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أبا وأبا، لم تلدني
العجم ولم تعرق في أمهات الأولاد ، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار
لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه
أقدمهم إسلما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على بن أبي طالب ، ومن
نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن
بناته أفضاهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الاسلام الحسن

(١) ينتهي نسبها إلى كعب بن لؤي وكانت زوجا لعبد المطلب بن هاشم
فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف
ثم الزبير وعبد الكعبة .

والحسين سيدا شباب أهل الجنة^(١)، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدتي الحسن والحسين^(٢)، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشعرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار، ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن آؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهدا، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت علي، فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام^(٣).

٣ - فكتب إليه المنصور - بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

(١) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن علي، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

(٢) يرجع على إلى هاشم من قبل أبيه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه علي بن أبي طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

(٣) هؤلاء الثلاثة آمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد ابن صهر بن هبيرة والى العراقيين لمروان بن محمد

أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فإذا جل خرك بالنساء لتضمني به الجفافة والفرغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأدي فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام « واتبعته ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب » . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة ، فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر اثنان أحدهما أبوك ^(١) فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهم ، فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأُحساب ، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب ، فإن الله لم يهد أحدا من ولدها للإسلام ، ولو فعل ، لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غدا ، ولكن الله أبي ذلك فقال « إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة واحدة ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة ، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ، فإن الله عز وجل أبي ذلك فقال « ما كان محمداً أباً أحدهم رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولكنكم بنو ابنته وانها

(١) المجيبان حمزة والعباس ، والكافران أبو هب وأبو طالب ، والثاني أهون

لقراءة قريبة: غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف
تورث الإمامة من قبلها؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها
تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين، ولقد
حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالصلاة غيره، ثم
أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان من أصحاب الشورى
فكل دفعه عنها وبايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أبوك طلحة
والزبير، ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعد، وأفضى أمر
جده إلى أبيك الحسن فسأله إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه
شيعة وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير
حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه. فأما قولك إن الله اختار لك في
الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار ولا من
عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر
بالنار، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما قولك
إنك لم تلدك العجيم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، وأنتك أوسط بني
هاشم نسباً وخيراً وأباً فقد رأيتك نخرت على بني هاشم طراً وقد مت
نفسك على من هو خير منك أولاً وآخراً وأصلاً وفصلاً، نخرت على إبراهيم
ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد ولده. فانظر ويحك أين
تكون من الله غداً، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيراً من
جده حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد،
ثم ابنه جعفر، وهو خير منك، ولقد علمت إن جده علياً حكيماً حكيماً

وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعوا على خلعه، ثم خرج
عمر بن الحسين بن علي، علي ابن مرجانة^(١)، فكان الناس الذين معه عليه
حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطئة كالسبي المجلوب إلى
الشام^(٢)، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصابوكم
على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بنأركم إذ لم تدركوه،
ورفعنا أقدراكم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك
في أدبار الاله المكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرتهم، وبيننا
فضله وأشدنا بذكره فآخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا لما ذكرنا
من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا
سالمين مسالما منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن ما ثرنا في الجاهلية
سقاية الحجاج الأعظم وولاية زمزم، وكانت للعباس دون اخوته فنازعنا
فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه، وتوفي رسول الله ﷺ وليس
من عمومته أحد حيا إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب،
وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينأها إلا ولده، فاجتمع للعباس
أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب
بفضل القديم والحديث؛ ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات
عماك طالب وعقيل جوعا، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة^(٣) فأذهب

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ومرجانة أمه (٢) الأقتاب جمع قتب وهو الرجل على قدر السنام، والأوطئة جمع وطاء وهو ما يقابل الغطاء.

(٣) يؤيد الكره قول رسول الله ﷺ يوم بدر « من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه أخرج كرها » وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أسرا يوم بدر،

عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الاسلام والعباس بمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم ، ثم فدى عقيلا يوم بدر^(١) فقد مناكم في الكفر وفديناكم من الأسر ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزننا شرف الآباء ، وأدركنا من ثأركم ما جزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ - وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الأول « طريقة الترسل » في التعريف بكتاب كيلة ودمنة ، فكان مما كتب في أول باب عرض الكتاب :

هذا كتاب كيلة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا ، ولم نزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل ، ويبتغون إخراج ما عندهم من العاقل ، حتى كان من تلك العمل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطيور فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة وهوا . فاختره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهو ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يندري ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ، وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمل من أمر

فكانا من الآكلين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضا .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا ، أما طالب ففدى نفسه .

معيشتته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

٥ - ومما كتب في الدرة اليتيمة وهي رسالة دونها للخليفة المنصور في وجوب طاعة الناس لبني هاشم ويسمى الجاحظ الهاشمية ، قوله على ما ذكر أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه المنثور والمنظوم ^(١) .

فتفكروا فيما جمع الله لأمر المؤمنين في معدنه وفي سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يمتنع فيه الغمز والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس والسننهم في الأثر نصيبا ، وإن له لستراحا حين يستوفيهم أمانيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفا وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيبا لجهنم من أجزاءها المقسومة لأبوابها وحطبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وإمام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمؤمن عليهم ما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتفبيح عنها أو النقل منها في بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها في بيروت فهي الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لا تتفق وما تذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها في كثير من الكتب وهي السلطان ثم الصديق .

بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، ثم هو بأعمته يوم القيامة
مقاماً محموداً، شرع الله له دينه وأتم به نوره، وحقق به وعوس الضلالة
وجبارة الكفر، وخوله الشفاعة وجعله في الرفيق الأعلى ﷺ

٦ - ومما كتب في رسالة الصحابة وهي رسالة دونها للخليفة
المنصور أيضاً، لتكون دستوراً فيما يجب على كل ذي مصاحبة للسلطان
في عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به، قوله من أولها :
أما بعد، أوصليح الله أمير المؤمنين، وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة
والرحمة، فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه، المسألة والاستماع،
كما كان ولا الشسر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء، وليستوثق
لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم
كما كان أولئك يكتبون بالدعة، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع
العدر، في الامتناع أن يجترى عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الذئاب،
وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله، ويمكن له
في الأرض وآتاه ملكها وخزائنها، من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش^(١)
والتأمل والأخلاء، وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس
منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه، وذلك من
أبين علامات السعادة وأنجح العوامل على الخير. وقد قص الله عز وجل
علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك
وعلمه من تأويل الأحاديث، وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته،
أثنى على الله عز وجل بنعمته، ثم سأل عما كان فيه، وعرف أن الموت وما بعده

(١) التفيش هو ادعاء المفاخر باطلاً

هو أولى فقال «توفني مساماً وألحقني بالصالحين». وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه، ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً أو مذكراً، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. ٧، ٨ - ومما كتب في الأديب الكبير وقد جعل بابه الأول في السلطان والثاني في الصديق، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم، قوله في أول الباب الأول بعد الديباجة.

إن ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته، وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذ لعماله من جميع شغله، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه وطموه ونسائه. فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلاً مغتبطاً به محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلاً كارهاً قال: كاره عامل في سخرة إمام الملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره. وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون نامة من التلم يتقحمون عليك منها، وبأبى فتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كمدح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب.

ثم قوله في آخر الباب الثاني يصف صاحباً له:

إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس

مأعظمه عندى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يجد ولا يكتر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعوهُ إلى مؤونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذ القائلين ، وكان يرى متضاعفا مستضعفا ، فإذا جاء الجدف والايث عاديا ، وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مرء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا إلا الى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ، ولا يخلص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحيلاته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق إن أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٩- ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منشورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة:

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد ، فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه ، فانما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم ، خصال سبع . الا يثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ،

والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

١٠ - وكتب إلى بعض إخوانه يستقضييه حاجة .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت اليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة: أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قبلنا.

١١ - وكتب إلى بعض أصدقائه وقد تفارقا يخبره ويستخيره .

كان من خبري بعدك أنني قدمت بلد كذا فتهياً لي بعض ماشخصت له، والحمد لله على ذلك الله عز وجل، وأنا إلى أن يأنيني خبرك محتاج، فأما جملة خبري في فراقك، فقلبي مكة كل مأسواك حرام فيها .

١٢ - وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينة وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها فانهن الأمهات والأخوات والعلمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام سوء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مسامتهم

١٣ - وكتب يعزى صديقا عن بنت له

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك عما رزقته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزأك منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ - وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والموض منه فإنها أعظم المصيبةين عليك وأنتى المرزئتين لك ، أخلف الله عليك بخبر وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ - وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئ بمولود .

أما بعد فإنه ليس من أمر يجهل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقت وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سرى أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشتد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ - وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن

ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فإن هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمحكك عنده ومكانك من دولته وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سرى فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا .

١٧ - وكتب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبيب

حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فإنك يا نصر بن شبيب قد عرفت الطاعة وعزها وبر دظلمها

وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسارة . وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يعلو لمن يلتبس مظاهرة الحجة عليه لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك ، فإن الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك مني في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على انقاذك والانتياش لك ^(١) من خطئك مني ، فبأى أول أو آخر أو سلطة أو امرأة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبیت آمنا مطمئنا أو وادعا ساكنا أو هادئا، فو عالم السر والجر، لئن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة ^(٢)، ثم لا بد أن بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض وفسادا كبيرا، أما لا طأن بمن معي من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب اليك ^(٣) من أداني البلدان وأقاصيها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس، ومن لفظه بلده ونفثه وعشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لأمة،

(١) انتاشه أنقذه (٢) لتجدين العاقبة وبيلة وخيمة (٣) التف بك

إما تقصير في عملك دعاك للأخلال بالحزم والتفريط في الواجب ،
وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت
منك محلة النكرك بك وموجبة المقوبة عايتك ؛ لولا ما ياقاك به أمير المؤمنين
من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم في الاعتذار والانداز ، وعلى
حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهدك في تلافى التقصير
والإضاعة والسلام .

١٩ - وكتب إلى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز
في تقصيره بنفسه يقول :

قله نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حظك
عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت
من قوة الأمل معتاضا شدة الوجل ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس
الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الامن والكرامة ، وصرت
معرضنا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا ببر فقصر عن حمله

ولم تره قابلا للجميل ولا عرف الفضل من أهله

فسمه الهوان فان الهوان دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنا بك ، وإضافة ما أضفت بتزويق
الكتب بالأقلام ، وفي كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم وعوض منك وهو
حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ - وكتب ابراهيم بن العباس الصولى الى ذى نعمة يتوصل :
لا أزال « أبقاك الله » أسأل الكتاب اليك ، فرة أتوقف توقف

المخفف عنك من المثونة، ومرة أكتب كتاب الراجع منك الى الثقة والمعتمد منك على المقييل، لا أعهدنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا بهجتها بك ولا أخلانا من الصنيع لك، فانا لا نعرف الا نعمتك ولا نجد للحياة طعما إلا في ظلك، ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خماسة وذلا، لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لا تعرف حرا قعد به دهره إلا سبقت مسأله بالعطية، وصننت وجهه عن الطلب والذلة.

٢١.. وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الثاني «طريقة الازدواج» من رسالة في مدح التجار وذم عمل السلطان، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الأتباع يقول: وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان^(١) فأما علميتهم ومصاصهم^(٢) وذوو البصائر والتمييز منهم، ومن فيقته الفطنة وأرهقه التأديب وأرهفه طول التفكير، وجرى فيه الحياء، وأحكمته التجارب فعرف العواقب، وأحكم التفصيل وأنطق غوامض التحصيل، فأنهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أروع الناس أبدا وأهنؤهم عيشا وآمنهم سربا، لأنهم في أفئيتهم كالمملوك على أسرته، يرغب اليهم أهل الحاجات وينزع اليهم ملتصق البياعات^(٣)، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدونهم بالضرع لمعاملاتهم، وليس هكذا من لا لبس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته، فإن أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم خول

(١) نواع البطانة (٢) مصاص كل شيء خالصه (٣) السلع

مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا في تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلت بهم وكثيرا ما تحمل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لا يعز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها ، وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنعة وطوق عنقه الامتنان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ - ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب - نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربه ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليء علما وظرف حشى ظرفا وإناء شجن مزاحا ، إن شئت كان أعيان من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله وبناسك فاتك وناطق أخرس : ومن لك بطبيب أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك

بمؤنس لا ينال الابنومك ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من في الأرض
وأكرم للسمر من صاحب السر ، وأحفظ للوديمة من أرباب الوديمة .
ولا أعلم جارا آمن ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملا ولا إبراما ، ولا أبعد
من مرء ولا أترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال
من كتاب ، ولا أعم بيانا ولا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا شجرة
أطول عمرا ولا أطيب ثمرا ، ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد
في كل إبان من كتاب ، ولا أعلم تتاجافي حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص
ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار
العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب
القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة
والامثال السائرة والأهم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن
شئت كانت زيارته غباء ، وورد ، وخساء ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان
منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي
لا يقلبك ، والرفيق الذي لا يملك والمستمتع الذي لا يستزيدك والجار
الذي لا يستبطنك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمق
ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذي إن نظرت
فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك ونخم
أفذاذك وبجميع نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصدقة
الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر ، وهو
المعلم إن افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ،

وإن عزات لم يسمع طاعتك وإن هبت ربح أعدائك لم ينقلب عليك
ومتى كنت متملقاً منه بأدنى سبيل لم تضطرك معه وحشة الوحدة
إلى جليس السوء وإن أمثل ما يقطع به الفراعنه هارم وأصحاب الكفايات
ساعات ليأهم نظرك في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة ، وعقل
ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتعمير مال ورب صنيعه^(١) وأبتداء
إنعام ، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا متعه لك من
الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك^(٢) مع ما في ذلك من التعرض للحقوق
التي تلزم ، ومن فضول النظر وملازمة صفات الناس ، ومن حضور ألقاظهم
الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة وجمالتهم المذمومة لكان
في ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع ، ولو لم يكن
في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخط المني واعتياد الراحة وعن اللعب
وكل ما تشتهي به ، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن ،
وجملة الكتاب وإن كثرت ورقه فليس مما يعمل لأنه وإن كان كتاباً واحداً
فانه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة
والتدبير .

٢٣ - ومن كلامه في محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه
الاستطراد في مقدمة كتابه البخل .

وإذا كان البكاء مادام صاحبه فيه فانه في بلاء ، وربما أعمى البصر
وأفسد الدماغ ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبهه بالأمه

(١) رب الصنيعة تربيتها . (٢) المارة جماعة المارين

اللكماء^(١) وبالحدث الضرع^(٢) كذلك ؛ فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؛ ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل لازهرة والخبرة والحلى والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطليق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم الحيا^(٣) وهو مكفهر أبدا وهو كرية الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار والمزح موضع وله مقدار ، متى جازها أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطأ والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جادا والضحك وقارا .

(١) اللثيمة الحقاء (٢) المستكين (٣) كرية الوجه .

٢٤ - وكتب إلى الفتح بن خاقان في يوم عيد مهنثا:
أخرتني العلة عن الوزير «أعزه الله»، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب
عني ويعمر ما أخلته العوائق مني ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العبد
أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلية فيما يحب
ويحب له ، ويقبل ما توصل به إلى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على
الاحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يره في مسرة
نقصا ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلني من كل سوء فداءه ، ويصرف عيون
الغير عنه وعن حظي منه .

٢٥ - وكتب إلى قليب المغربي معاتباً:
والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة ، وروحي بك
مجروحة ، لسا جللتك هذه القطيعة وما ددتك حبل المصارمة ، وأرجو الله
تعالى أن يدل صبري من جفائك ، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم ،
فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء .

٢٦ - وكتب مستنجزا عدة طال مطالها
أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك ، وطال مقامنا في سجون
مطلق ، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها ، بنعم منك مشمرة
أولا مريحه .

٢٧ - وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ في الشكر :
من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكركي
لك على مهجة أحيتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقت بين
التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي اليه ، ومدى يوقف

عنده، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد
فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل
غاية ، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الطسود : فنحن نلجأ منك إلى
ظل ظليل وكشف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جهد المجتهد .

٢٨ - وكتب أبو الحسن علي بن الصياح الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ مستعظفا
ترفع عن ظلمي إن كنت بريئا، وتفضل بالمعفو إن كنت مسيئا،
ووالله إنني لأطالب عفوَ ذنبي لم أجنه ، وألئس إلا قالة مما لا أعرفه ، لترداد
تطولا وأزداد تذلا ، وأنا أعيد حالي عندك بكبريائك من واش يكيدها
وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل
حظي منك بقدر ودي لك ، وحظي من رجائك بحيت أستحق منك .

٢٩ - وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ إلى عايل يرجو شفاءه :
أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك
ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لشوابك
٣٠ - وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف :

لن تكسب « أعزك الله » المحامد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على
النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال . وبذل الجاه والمال . ولو كانت المكارم
تنال بغير مئونة لا شراك فيها السفلى والأحرار ، وتساهمها الأوضاع من
ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها
نخفف عليهم حملها وسوغمهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم
عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعارها منهم .

٣١ - وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ إمام الطريقة

الكتابية في العصر العباسي الثالث «البيص» إلى عضد الدولة في انقراض
العلوم بملك الجبهة الظالمين ونائها بملك العلماء العادلين ، رسالة كان
من فصولها قراء

وقد يعد أهل التعميل في أسباب انقراض العلوم وانقباض
مددها وانتقاض مردها ^(١) والأحوال الداعية إلى ارتفاع جبل الموجود
منها وعدم الزيادة فيها ؛ الظوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم
الأوباء ، وتسليط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم
العلوم اختراماً ويذهب كها انتهاكاً ويبحث أصولها اجتثاثاً ، وليس عندي
الخطب في جميع ذلك يقارب ما يورده تسليط ملك جاهل تطول مدته وتسمع
قدرته ؛ فإن البلاء به لا يمد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفتها ،
والبلى بمن هذه جورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل
كالأمير الجليل الذي أحياه الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ،
وهي نور ^(٢) نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه . وشرذ نوازع حيث حات
حتى تقع عليه ، تلفت إليه تلفت الواثق ، وتنشوف نحوه تشوف
الصنب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزهم فكلو حش يدنيها من الآنس الحل
٣٢ — وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن ونداد خورشيد ، عند
استعصائه عليه ، رسالة قامت في رد غوايته مقام الكتاب يقول فيها
على ما ذكر الثعالبي في اليتيمة :

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك

(١) هم مردها قوة الجبل وانتقاضها فكها (٢) جمع نوار وهي البقرة الوحشية

وإعراض عنك، فانك تدلى بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرها
 بوجوب رعاية، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعها بحادث غلول^(١)
 وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك
 ويمحق كل مايرعى لك، لاجرم انى وقفت بين ميل إليك وميل عاك،
 أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسطيدا لاصطلامك
 واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال
 بعض الأمور فيك ضنابا لنعمة عندك، ومنافسة فى الصنعة لديك وتأميلا
 لفيتتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك. فقد يغرب العقل ثم
 يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم
 يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء
 ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء. وكما أتيت من
 إساءتك بالم يحسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بمالاتر يقبه
 أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ماركبت واخترت
 ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه انتباهة تبصر، فيها قببح ما صنعت وسوء
 ما آثرت، وسأقيم على رسمى فى الإبطاء والمماطة ما صالح وعلى الاستيناء^(٢)
 والمطاولة ما أمكن، طمعا فى إنابتك وتحكما لحسن الظن فيك، فلمست
 أعدم فيما أظاھرہ من إعدار وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك
 واستدراجا لك، فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك،
 فانه على كل شىء قدير وبالإجابة جدير

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا

كنت كذلك فقد عرفت حالهم وأحلبت شطريها ، فشدت لك الله لما صدقت
 عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه ؟
 ألم تكن من الأول في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى
 وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقياك
 المتآلف ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من
 طوارق الحدثن ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد
 الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ،
 وظفرت بالولايات وخفقت فورك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت
 بك الآمال وصرت تكأثر ويكأثر بك وتشير ويشار إليك وبذكر على
 المنابر اسمك وفي المحاضر ذكرك ، فقيم الآن أنت من الأمر وما العوض
 عما عدوت والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة
 نفسك ونفست منها كفك وغمست في خلافتها يدك ؟ وما الذى أظلك
 بعد انحسار ظلمها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من
 اللهب ؟ قل نعم كذلك فهو والله أكتنف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى
 الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود .
 تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي إليك فستذكرها ، والمس
 جسديك وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وقتش ما انحنت
 عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت
 سريح أو موت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله .

٣٣ - وكتب الى أبي عبد الله الطبرى فى الشوق

كتباي إليك وأنا بحال لو لم ينغصمها الشوق إليك ولم يرنق صفوها

التزويج نحوك ، لعدتها من الأحوال الجميلة. وأعددت حظي منها في
النعم الجميلة . فقد جعلت فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة ، وعظيبت منها
في جسمي بصلاح وفي سبي بنجاح . لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع
بعدي عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب
مع انفرادى دونك ، وكيف أطعم في ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم
لشمل أنسى وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن
نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت
كتابك جماني الله فداءك فامتلاأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل
تصرفك في لفظك . وما أفرظهما فكل خصالك مترظ عندي وما أمدحهما
فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة
أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك
وما ألقى على بصري »

٣٥ — وكتب إليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥
الملقب بالصاحب لطول مباحبه ، جوابا عن كتابه إليه في وصف
البحر يقول .

وصل كتاب الأئمة الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف
ما شاهد من عجائبه وعان من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح
كيف أدارتها واستجابة أدواتها لما متى نادتها . وركوب الناس أشباحها
والخوف برأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك
والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم
الخطر وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حجب إليهم الغرر ، وعرفت

ما قاله من تمنيته كوني عند ذلك بحضرته وحصولي على مساعدته ؛ ومن رأي بحر الاستاذ كيف يزخر بالفضل وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفوته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستقامته لأحواله ، كما لا شيء أبلغ في مناخره وأنفس في جواهره من وصف الاستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال ^(١) والسحر الحرام لا الخلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بغيره صعدة صدره ؛ ولو فعل ذلك لرأي البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وثمد الا يكتر عن الترشف ^(٢) وكلم من جبال بحيث تشهد أنك الجبال وبحر شاهد أنك البحر ٣٥ - وكتب الى صديق أهدى إليه مصحفا فأجاد نعمت القرآن والخط .

البر «أدام الله الشيخ» أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيهما هو أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتعفة الشيخ ، إذ أهدى ما لا يشا كاه النعم ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهدايه وسبيله ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله طبع دون معارضته على الشفاء وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان وبقي ما بقي اللوان . لا تح سراجته واضمح منهاجه منير دليله عميق تأويله

(١) الزلال الصافي السهل الاساغة ، والسلسال الصافي الذي لا ينقطع فهو يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن التبرض لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والتمد الماء القليل غير المتصل ، ولا يكتر عن الترشف لا يزيد عن أن يتناول بالافواه .

يقسم كل شيطان مريد، ويدل كل جبار عنيد، وفضائل القرآن لا تحصى في ألف قرآن . فأصف الخط الذي بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع صحة الاقسام وزاد في نحوه الاقلام،^(١) بل أصفه بترك الوصف، فأخباره آثاره وعينه قراره^(٢) وحقا أقول إنى لا أحسب أحدا ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة^(٣) ، بل زيادة الحبح على العمره

لقد أهديته علما نفيسا وما يهدى النفيس سوى النفيس
٣١ - وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابي المتوفى سنة ٣٨٤
إلى صاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه، ويثنى عليه فقال :
أنا أعتذر إلى سيدى «أطال الله بقاءه» من تأخر كتبي عن حضرته
الجليلة ، بعدر اذا تأمله حق تأمله، وعرضه على نقده وتمييزه، وعرف صدق
منطقه وخلوص مصدره ، علم أنى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت
بظاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدى وإن أخللت ببادى مسلكى، وهو
أنى جربت مكاتبته «أيده الله» مواظبا عليها مكبا، ومراخيا بين أوقاتها
مغبيا ، لا تتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لى أن الاجام
أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على فى الحالين محروس النواحي
والجوانب محي الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره
وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتسم أحواله وأسكن إلى اطرادها

(١) فى نحرها (٢) أى ومعاونته قرار له بما أقول (٣) يريد زيادة الذؤابة

والتسامح وابتهج بما يصير اليه «أيده الله» من ذروة مرتبة يعتليها وغارب
مرتبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما على أنه
لم يستوف بعد حفظه ، ولم يستوعب قسطه فأن للدينامو اعيد فيه لا بد
أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧ - ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة إذ
قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء
أبينهما ركن الدولة يستشفع له :

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال
والصبر على الأدال ، واجتمع له الى ذلك ، التقلب في نعمة حازها حياز
وارث لها ، لم يكدر في تأثيلها ولا مسه النصب في تميمها ولا اهتدى
إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها ، ومن ألزم
اللاوازم في حكم الرعاية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناها بكأسها
وأن نعدوه عن هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه
محروسة ، والبقية من ماله بعد أخذ فضائلها المفسدة متروكة وأن يتحدث
الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم في القبض عليه ثم طبق
مفصل الكرم في التجاوز عنه .

٣٨ - وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى
عظيم يخطب اليه كريمة جاء فيها :

ولو لم يكن للخاطب إلى الخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة
والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا في الولد والحملة والمال والنعمة ،
لكفاه وأجزاه وأغناه عن كل ماسواه ، حتى إنه لو خطب الي زاهد

لرجب عليه أن يرغب أو إلى محتاص^(١) لازمه أن يشق : لأن هذا المطالب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعي الأجابة وارتفعت دواعي المدافعة؟ وبالله جهد المقسم، إن والديّ «أيدها الله» تعالى يسو ما نبي التأهل منذ سنين كثيرة، فأجل نفسي على التقاعس عما آثراه مع ما افترض على من طاعتهما اشتطاطا مني في شرائط أحببت أن تجتمع لي في البيئة^(٢) التي أوصلها، وقما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجعل أمره وأظهر فضله . وقد دعاني بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأ' كبار وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائط عليهم . حتى اذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة وجعلها إلى في منازل المصونة ، بعثني البواعث وحفزني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمك فلانة ، على أن أكون لها كالجنف الواقى لقلته والصدر الحاوى لمهجته ، ولك كالولد الطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاصد لأخيه، فان رأيت ياسيدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة وتسمع من موصليها ما تحمله عني من تفصيلها وتوخي بأجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني وتصديق أملي ، فعلبت إن شاء الله

٣٩٠ م وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ م بعد إبلاله^(٣) من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده في مرضه ولم يهنئه بشفاؤه كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبرز

(١) عاص ممتمنع (٢) الخبوة (٣) شفاؤه

البدر من الظلماء ، وقد فارقني المحنة وهي مفارق لا يشترق اليه وودعتني وهي مودع لا يبكي عليه ، والحمد لله تعالى على محنة بجليها ونعمة ينيلها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسليم واليوم بالتهنئة . فلم يكتبني في أيام البرحاء بأنها غيمته ولا في أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قاي : فقلت : أما إخلاله بالأولي فلا أنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تخافله عن الأخرى فلا أنه أحب أن يوفر علي مرتبة السابق إلى الابتداء ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوظة من كل بيئة به ، فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الاحسان وليكتب إلي بالاستحسان ، وإن كنت أسأت فايخبرني بعذره فانه أعرف مني بهمه وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي ، وقلت يأنفس اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد والعود أحمد

٤٠ - - وكتب إلي تاه يذله قطع زيارته بعد أن أتم تخرجه :

إن كنت « أعزك الله » لا ترانا موضعاً للزيارة فنحن في موضع الاستزارة ، وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقي حقلك علينا ، فقد بزور الصحيح الطيب بعد خروجه من دائه واستغناؤه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله ، ولو لم تزرنا إلا لترينار جحانك كما طالمارأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلاً صائباً وفي القياس واجباً .

٤١ - - وكتب به يع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني

المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » في العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمي الذي عاداه بعد مناظرته إياه يقول:-
الحر «أطال الله بقاءه» ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ووصف
أحواله صفتي ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهي
أمانى فأن وجدت فهي عواري ، وأن محن الزمان وان طالست فستنفد وإن
لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها في نفسه ولا
يعدها في جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يموت فسوف
يموت ، وما أقبح الشماتة بمن أمن الأمانة فكيف بمن يتوقعها بعد كل
لحظة وعقب كل نفضة ، والدهر غرثان طعمه الأختيار وظمان شر به
الأحرار^(١) وهل يشمت المرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله
وهذا الفاضل «شفاه الله» وان ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطننا ودا جميلا ،
والحر عند الحمية لا يصطاد ولكنه عند الكرم ينقاد وعند الشدائد
تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته
والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقاني سماع السوء فيه
بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ - وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزیه
ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدي والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع
جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغي وقد
مات الميت فايحي الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم

(١) الطعم بالكسر ما يطعم ، والشرب كذلك ما يشرب .

غيرك بالأُمس، قد كان ذلك الشيخ «رحمة الله» وكيلك تضحك ويبكى لك،
وقد مولك بما ألف في سراه وسيره، وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره.
وسيمعجم الشيطان عودك فإن استلانه رماك يقوم يقولون خير
المال ما أتلّف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب^(١)
والعيش بين الاقداح والقداح^(٢)، ولولا الاستعمال لما أريد المال، فإن
أطعتهم فالיום في الشراب وغدا في الخراب، واليوم واظربا للكأس
وغدا واحربا من الافلاس. يا مولاي، ذلك الخارج من العود يسميه
الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع في الناي هو الآن في الأذان
زمر وغدا في الأبواب سمر^(٣) والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار
في هذا العمل بضاعة. فإن لم يجد الشيطان مغمزا في عودك من هذا
الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقراء حذاء عينيك، فتجاهد قلبك وتحاسب
بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه
في الآخرة في ميزان غيرك لا. ولكن قصدا بين الطريقتين وميلا عن
الطريقتين لا منع ولا اسراف فالبخيل فقير حاضر وضير عاجل وإنما يبخل
للمرء خيفة ما هو فيه فليكن لله في ماله قسط والمروءة قسم. صل
الرحم ما استطعت، وقدر اذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير
خير لك من أن تكون في جانب التبذير.

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩

(١) الحباب بالفتح فقايع الخمر، والأحباب الأصحاب (٢) الاقداح جمع
قدح بالتحريك وهي الكأس، والقداح جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم
للعيسر والصيد والاول المراد (٣) للمصادرة استيفاء للديون

ينهى بقدوم من سفر :

أهني سيدي ونسي تطيب بمايسر الله من قدومه سالما . وأشكر
الله على ذلك شكر اداثما . جعل الله قدومك مقرونا بالخبر القامة العامة ،
والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقرونة بغيبتك وأوبة النعم موصولة
بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضداد ماقرن به سفرك
من السلامة ، وهنالك بآياتك وبلغك غاية محابك . ما زالت بالنبأ معك
مسافرا وباتصال الذكر والفكر ملاقيا . إلى أن جمع شمل سروري
بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ - وكتب أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ
إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الرابع « استخدم البديع »
إلى الرئيس أبي الفتح هبة الله بن الفضل بن مساعد بن التاميد الكاتب
في التعارف قبل اللقاء :

جزى الله خيرا والجزاء بكفه بنى صاعد أهل السيادة والمجد
هم ذكروني والمهامة بيننا كما ارفض غيث في تهامة في نجد
لو أخذت في وصف شغفي بمناقب سيدنا « أطال الله بقاءه ، وأدام
علاءه ، وحرس نعماءه ، وكبت حساده وأعداءه » ، وما أنا بصدده من
مدح سودده ، وشرح تطوله وتودده ، لكنني بمثابة المغترين في محاولة
عذر مل يبرين . لكنني راج أن أحظى من ألمعيته الشاقبة وبصيرته السائبة
بما يمثل له عقيدتي ويطامعي على تخيله مودتي ، وما أملك في مقابلة مفاآحته
التي أخلصت له إيجاب الحق وفضيلة السبق إلا الثناء الذي أتوا صحائفه
والدعاء الذي أقيم في كل وقت وظائفه والله سبحانه يحسن توفيقي لما

يشيد مباني المودة التي أعتدها أفضل مقاني العدة . ثم إنى لفرط اللهب باستملاء فضائله النيرة ، واستطلاع محاسنه المسيرة ، أسائل عن خصائصه الركبان وأطرب بسماعها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز «أدام الله تمكينه» ألفيته مواليا مغاليا وداعية إليه وداعيا فازدت كفا بما وعيته منه وشغفا بما استوضحته عنه ، واستدللت على كمال سيدنا باستخلاص شكر مثله وتحققت وفور أفضاله وفضله ، فافتتحت المئذنة بتأدية هذه الشهادة ، واستمداد سنة المواصلة المعتادة والتكرمة التي تقتضيها بواعث السيادة ، ولرايه في الوقوف على ما كتبت والتطول فيه بما توجبه أريحته علوه ، إن شاء الله تعالى .

٤٥ - وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ في التهنئة بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف الليالى ، من سفرته الميمونة التى أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهى ما كنت بصدده من الجزع لغيبته ، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغانيه والطلوع على بلدة جر فيها ذبول أمانيه ، وسألته جللت قدرته أن يجعل ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار ، موصولا بطول العمر والبقاء مقرونا بدوام العز والعلاء ، إنه سميع الدعاء .

٤٦ - وكتب القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ وهو الذي أفرط في استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه ، عن العاصد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك في شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابنا «أطال الله بقاء الملك» عن مودة طاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، ضافية جباب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعي مساعد لا ينقص معروفها ، ولا ينفذ مسوقها^(١) ، وسعادة بالخلافة التي عدى إليها أمرها^(٢) وأوضح سرها وملا سر أثرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقرها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالى ميامنها وتتلألا محاسنها^(٣) وتشرف درجاتها وتتضاعف سعادتها ، والكلمة قائمة على أصولها وأمور الخلق جارية على مأهولها ، ونظام الاسلام بسياستها لا يهوى ، وسياقة الدوام في سعادتها لا تنتهى ، والله الموزع شكر هذه المنن ، المستول في الانهاض لمانهضت فيه النية وقصرت عنه المنن^(٤) . ولم نزل «أدام الله إقبال الملك المعظم» معظمين لأمره ، عارفين نبيل قدره وجليل نخره مشيدين بجميل ذكره وجزيل نصره ، معيدين لما تتهادى الالسن من مستطاب نشره ، قارئين من صفحات الأيام ما أمدّها به من بشره غير مستيمين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، موردين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه^(٥) بالمقامات الشريفة من آثار سلفه ومآثرهم ، ومأثور مكارمهم ومفاخرهم ،

(١) لا ينثر مشمومها (٢) عدى جمع من باب ضرب (٣) مخفف تتلألا

(٤) المنن الأولى بالكسر النعم والمنن بالضم القوى (٥) مناقبه

واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم ، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم
عن أهل القبلة ، وسدادهم في الأمور وسدادهم الثغور ^(١) وسيادتهم
الجمهور ، واستقلالهم بالمشقات المتقدمة ، وإخادهم نيران الخطوب
المضطربة ، وكفهم سيول السيوف العرمة ، وموالاتهم أمور الدولة
العلوية التي اشتهر بها منهم الأكابر ، وورثها كبر عن كبر ، وحافظوا منها
على سيرة معروف لا ينسخ ، وعقد صفاء لا يفسخ ، وسريرة صدق تستقر
في الضمائر وترسخ ، وتتوضح بها غرة في جباه السبق وتشدخ ^(٢) ،
وتستهدى عند إيراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهم ، من الدعوات
الشريفة العاضدية المعضودة بالنجح ، المتوضحة عن مثل فلق الصبح ،
ما تهلّل لمساعيه باليما من المستهلة ، ولمراميه بالاصابة المتصلة ، بينه وبين
هذه الدولة العالية ، والخلافة الحالية ، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها
اللاحب ^(٣) واستدعينا به إجابته التي تتلقى بالمراحب ، وأعلمناه أن
تمادى الأيام دون المراسلة وتطاوّلها ، وتنقل الأحوال والدول وتناقها ،
لا يزيد مودته إلا استحكام معاقده ، وانتظام عقائده ، ووفاء مواعده ، وصفاء
موارد ، وأنه لا تباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ، ولا تفرق
المسافات القواصي ما بين النيات القواصد ، فلما تأخرت الإجابة تقدمت
الاستجابة ، وتناجت الظنون المعتلجة ^(٤) وتراجعت الآراء المختلجة ^(٥) بأن
الرسول حافته دون المقصد عوائق ، وتقسمة من الأحداث دون الطريق
طرائق ، فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ، ولا أسعد السعي بطروق جنابه ، الذي تنال

(١) السداد بالفتح الاصابة والكسر الكفاية (٢) تنشر سفلا (٣) الواضح

(٤) المضطربة (٥) المضطربة

السعادة وتجنّي به . وإلا فلو أنه أم له ، بلغ ماأمله ، ولو وصله لأجاب عما أوصله ، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض ، وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض ، فجددنا هذه المكاتبة مشتملة على ذلك المراد ، وفاوضناه بمايعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء ، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ، ورسمنا أن يكتبه حتى عن لسانه ، وأن يطويه حتى عن جنانه ، وأن يتمسك بالأمر النبوي في استعانته على أمره بكماله ، فمن حسن الحزم سوء الظن ، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت في السجن ، وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن ، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن ، ونحن تحببنا بما يعلم به حسن موقع رسالة الاسترسال ، وبما يبين به عن دلالة الادلال ، وبما يرحب بمودته بحال الجمال ، والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار ، وسعادة لا تتصرف في تصرفها أحكام الفلك المدار ، وإقبال يقابل آراءه وآدابه في فاتحة الورد وعاقبة الاصدار ، وعز لا يزال منه متوقلا^(١) في درجات الاقتدار ، إن شاء الله تعالى .

٤٧ - وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الأثير الموصلی المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراق حديث العهد بعداقته يستهديه رطباً فقال هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي ترف كلمة زفيف الأوراق^(٢) وتسجع سجع ذوات الاطواق ، وتهتف وهي مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق ، وأبرج الشوق ماكان عن فراق غير بعيد ، وود

استجدت حلته واللذة مقترنه بكل شيء جديد، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباساً، وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا ناساً، وقد قيل إن للموده طعاماً كما أن لها وسماً، وإن ذا اللب يصادق نفسه قبل أن يصادق جسماً. وإني لأجد لموده سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها. وقد أذكرني الآن بحلاوة الرطب الذي هو من أرضها، وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار، وفارق بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار، فلا ينظر سيدنا على في هذا التمثيل، فلربما كان ذلك تعريضاً ينوب مناب التطفيل.

ب — في القصص والمقامات ^(١)

سنكتفي في هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لامام الكتابة فيه.

١ — قال ابن المقفع في باب عرضه كتاب كلیلة ودمنة وهو من إنشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم ويحب للناس ما يوجب لنفسه: ولا يلمس صلاح نفسه بفساد غيره فانه من فعل ذلك، كان خليقاً أن يصيبه ما أصاب التاجر من رقيقه فانه يقال:

إنه كان رجلاً تاجراً وكان له شريك فاستأجرا حانوتاً وجعلوا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت، فأضمر في

(١) إننا انتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للترقيعات، لأن إيجاز

نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها :

نفسه أن يسرق عدلاً من أعدل رفيقه، ومكر الحيلة في ذلك، وقال إن أتيت ليلاً لم آمن أن أحمل عدلاً من أعدل أو وزمة من رزى ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلاً، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبي، ولا أحسبه إلا قد نسيه، وما الرأي أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمه فعمله يسبقني إلى الخانوت فيجده حيث يجب، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدل رفيقه وأقفل الخانوت ومضى إلى منزله، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه، وضمن له جعلاً على حمله، فصار إلى الخانوت فالتمس الأزار في الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلاً يتراوحيان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة، ثم انطلق نحو الخانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الخانوت ووجد العدل مفقوداً، فاغتم لذلك غماً شديداً وقال واسوأتاه من رفيق صالح قد ائتمنتني على ماله وخلفني فيه، ماذا يكون حالي عنده ولست أشك في تهمة إياي، ولكني قد وطنت نفسي على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتافسأله عن حاله فقال: إني قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلاً من أعدالك ولا أعلم بسببه وإني لأشك في تهمة إياي وإني قد وطنت نفسي على غرامته. فقال له يا أخى لا تغتم فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبداً وما جاد وبال البغي إلا على صاحبه، وأنا أأحد من مكر وخدع واحتمال.

فقال له صاحبه وكيف كان ذلك؟ فأخبره بخبره وقص عليه قصته. فقال له رفيقه: مامثلك إلا مثل اللص والتاجر، فقال له وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجرا كان له في منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً، فترقبه بعض اللصوص زماناً حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكن في بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم. فقال له الخائن: ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك، وعزير على أن يكون هذا كهذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فتقبل الرجل معذرتة وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به. وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله

٢ - وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجدين في كتابه البخلاء:

قال أصحابنا من المسجدين: اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستمطاراً بذكره.

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيغه الإبل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مثونة، فكنا نزرع منه للحمار فاعتل منه وانتقض علينا من أجله،

فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة^(١) كثيرا ماغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا من الملح مثل ما يعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلا ، ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح ، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها^(٢) وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة ، وصوبت إليها السيل ، فذبح الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء والحمار لا تقزر له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرج في سقيه منه ، وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال : اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابنى ، فأمرنى قوم بالفانيد السكرى^(٣) ، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز^(٤) وأشباه ذلك ، فاستنقلت المئونة وكرهت الكلفة ، فبينما أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموفقين : عليك بماء النخالة فاحسه حارا ، فحسوت فاذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جعت ولا اشتهيت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر ، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويت العشاء وعرفت قصدي ، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعمياننا في كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدور ، وقوتها غذاء وعصمة

(١) يعنى زوجته (٢) كصرجتها طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلطها

(٣) عرب بانيد لضرب من الحلوى (٤) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم وبحلى ، والشاهنج دقيق البر .

ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعينها بمثل الثمن الاول ونكون قد ربحتنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أرفى وضع الامور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية : قالوا وما شأن معاذاة هذه ؟ قال أهدي إليها العام ابن عم لها أضحية ^(١) فرأيتها كئيبه حزينه مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يا معاذاة ؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لي قيم ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أما كنهن وقد علمت أن الله لم يخاق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف فيتعلق عليه الزبل والكيران وكل ما خيف عليه من القار والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فإنه لا وتار المندفة ^(٢) وبنائى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس والالحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ^(٣) ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان المصباح

(١) شاه للتضحية (٢) الزبل ككتب جمع زبل وهو القفّة أو الجراب أو

الواء والكيران جمع كبير وهو زق ينفتح فيه الحداد (٣) المصران جمع مصير وهو المعى والمندفة آلة تدف القطن (٤) يؤكل ما عليه من اللحم

واللأدام والعصيدة ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير
الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لها منه وإذا كانت كذلك فهي
أسرع في القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه
جراب وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرث والبعر فخطب إذا جفف
عجيب . ثم قالت بقي الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل
لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها
ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع
به صار كية في قلبي وقذى في عيني وهما لا يزال يعاودني « قال الشيخ »
ثم لم ألبث أن رأيته قد تطلعت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد
انفتح لك باب الرأى في الدم قالت أجل ذكرت أن عندي قدورا
شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ لها ولا أزيد في قوتها من
التلطبخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء بموقعه ،
قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة ^(١)
قالت بأني أنت لم يجىء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والألية ^(٢) والعظم
المعرق وغير ذلك معاش ولكل شيء إبان . فقُبض صاحب الحمار والماء
العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لا تعلم أنك من
المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ - المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبالغني من مقامات الاسكندى
ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره

(١) لحمها المحقق (٢) ماركب العجز من شحم ولحم

ما يترج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل
الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتمجيب من قعودهمته بحالته مع حسن آله^(١)
وقد ضرب الدهر شئونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لي
حاجة بجمص فشجذت إليها الخرص في صحبه أفراد كنجوم الليل
أحلاس لظهور الخيل^(٢) ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل
شأفته ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن
كالقسي وتاج لنا واد في سفح جبل ذي آلاء وأثل^(٣) كالعذارى يسرحن
الصفائر وينشرن القدائر ومالت المهاجرة بنا إليهم ونزلنا نغور ونغور^(٤)
وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل
ونظرت إلى فرسى وقد أدهف أذنيه وطمح بعينيه يجذ قوى الخيل
بمشافره ويخذ خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت
الأبوال وقطعت الحبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى
سلاحه فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا في إهابه
كاشرا عن أنيابه بطرف قد مليء صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر
لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر
إليه من سرعان الرفقة فتى

أخضر الجلد في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب
بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر^(٥) وملكته سورة الأسد نخافته

(١) استعدادهم فيما يزاول (٢) جمع حلس بالكسر وهو الملازم (٣) شجران
فلا آلاء الصنفاص والآثل الطرفاء (٤) نغور بالتضعيف نهبط ونغور ننام في
النغور (٥) قدر الرجل مكانته وأثر السيف على وزنه فرنده وجوهه

أرض قدمه حتى سقط ليدنه وفه وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ودعا الحين أخاه بمثل مادعاه فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه واقترش الليث صدره ولكن رميته بعمامتي وشغلت فيه حتى حقت دمه وقام الفتى فوجأ بطنه^(١) وقد هلك الفتى من خوفه والاسد للوجأة في جوفه ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنامنها ما أفلت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حشونا التراب^(٢) فوق رفيقنا جزعنا ولكن أي ساعة مجزع وعمدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد ولم نملك الذهاب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حرسه ينقش الأرض بشفتيه ويأقي التراب يديه وعمدني من بين الجماعة فقبل ركابي وتحرم بجنابي ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وعارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملائق وقضيب ريان ونجار^(٣) تركي وزى ملكي ، فقلنا مالك لا أبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهي حيث تراني ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ثم قال أنا اليوم عبدك ومالي مالك فقلت بشرى لك وبك أذاك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب ، وهنأتني الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا أخطاه وينطق فتفتننا أخطاه ، فقال يأسادة إن في سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء نخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه

(١) وجأ شق (٢) أهله (٣) أصل

وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان^(١) فقال ألا
تقيمون في هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل
عن فرسه وجلى منطقته^(٢) ونحى قرطقته^(٣) فما استتر عنا إلا بغلالة
ثم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان وهرب من
رضوان ، وعمد إلى السروج فخطها وإلى الأفراس فحشها^(٤) وإلى الأمكنة
فرشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأَبصار عليه ، فقلت يا فتى
ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة فالويل لمن فارقه وطوبى لمن
رافقه فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ماسترونه منى أكثر
أتهجيبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة فكيف لو رأيتموني في الرفقة
أريكم من حذقي طرفا لتزدادوا بي شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا
فأوتره وفوق سهمها^(٥) فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء ،
وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه
ورمى أحدنا بسهم أثبتته في صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك
ما تصنع قال اسكت يالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه
بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا
بعيدة وهو راكب ونحن رجاله والقوس في يده يرشق بها الظهور^(٦)
ويعشق بها البطون والصدور^(٧) وحين رأينا الجد أخذنا القد^(٨) فشد
بعضنا بعضا وبقيت وحدي لأجد من يشد يدي فقال اخرج باها بك

(١) الجنادب جمع جندب وهو نوع من الجراد يفرح للحجر ولكن الرمضاء

قد تشد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباهه (٤) ربطها

(٥) وضعه في الفوق ليرميه (٦) يشبثها فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والسيف

عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلى خفان جديدان فقال اخضعهما لأمر لك فقلت هذا خف لبسته وطبا فليس يمكنني نزعها فقال على خلعها ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدي إلى سكين كان معي وهو في شغله فأثبتته في بطنه وأثبتته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجره وقت إلى أصحابي خلعت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه وصرنا إلى الطريق ووردنا حصن بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرضة من سوقها^(١) رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا في جرابي مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم وهي لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندري الذي سمعت به وصألت عنه فاذا هو وقد لفت اليه^(٢) وقلت احتكم حكمتك فقال درهم فقلت

لك درهم في مثله ما دام يسعدني النفس^(٣)
فاحسب حسابك والتمس كما أنيل الملتمس

وقلت له، درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ، ثم قلت لغلامي كم معك قال عشرون رغيفا فأمرت له بها وقلت ، لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان .

(١) طريق منه (٢) أسرعت (٣) أي حتى ينتهي النفس الواحد

٤ - المقامة السنجارية للحريري^(١)

حدث الحارث بن همام قال . قفلت ذات مرة من الشام أنحو
مدينة السلام ، في ركب من بني نيمر ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا
أبو زيد السروجي^(٢) عقلة العجلان^(٣) وسلاوة الشكلاان وأعجوبة الزمان
والمشار اليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار
فدعا إلى مأدبته الجفلى^(٤) من أهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته
إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة فلما أجبنا مناديه وحللتنا نادية
أحضر من أطعمة اليد واليدين^(٥) ما حلا بالفم وحلى بالعين ثم قدم
بجاءا^(٦) كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء
أو قشر من الدرة البيضاء ، وقد أودع لفائف^(٧) النعيم وضمخ بالطيب
العميم وسيق اليه شرب من تسنيم^(٨) وسفر عن مرأى وسيم وأرج
نسيم . فلما اضطرممت بمحضرة الشهوات وقرمت^(٩) إلى غيرة اللهاوات
وشارف أن تشن على سريره الغارات وينادى عند نهبه باللنارات ، نشر
أبو زيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون^(١٠) ، فراودناه على أن
يعود وألا يكون كققدار^(١١) في ثمود ، فقال والذي ينشر الاموات من
الرجام لا عدت دون رفع الجلام فلم نجد بدا من تألفه وإبرار خلفه ،

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق العجم (٢) سروج بلدة قرب حران

(٣) محبس المتعجل (٤) الدعوة العامة (٥) أي مما يقطع بيد ومما لا يقطع الا بيدين

(٦) ظرفا من زجاج (٧) جمع لفيفة ما لف من الخوى (٨) عين بالجنة (٩) نهمت

(١٠) النون الخوت والضب أشد الحيوان تبديا (١١) طاقرة ناقة صالح

فأشلهناه^(١) والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة ، فلما فاء إلى مجتمه
وخاص من مائمه سألناه لم قام ولا شيء معنى استرفع الجاه؟ فقال إن الزجاج
تمام وإني آليت منذ أعوام ألا يضمني ونمو ما مقام فقلنا له وما يمينك
الصرى^(٢) وأليتك الحرى؟ فقال :

() إنه كان لي جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع
وخبثه سم منقع ، فليت لجاورته إلى محاورته وانغرت بمكاشرته^(٣) في
معاشرته واستهوتني خضرة دمنته لمنادمته وأغراني سمته بمناسمته ،^(٤)
فمازجته وعندي أنه جار مكسر^(٥) فبان أنه عقاب كسر وأزسته على أنه
حب مواس فظهر أنه حباب^(٦) مواس ، وما لحته ولا أعلم أنه عند نقده
ممن يفرح بفقده ، وطاقرته ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لفره ، وكانت
عندي جارية لا يوجد لها في الجمال مجارية ، إن سفرت خجل النيران
وصليت القلوب بالنيران وإن بسمت أذرت بالجمان^(٧) وبيع المرجان بالجمان ،
وإن رنت هيجب البلبال^(٨) وحقت سحر بابل وإن نطقت عقلت لب
العاقل واستنزلت العصم من المعامل وإن قرأت شفت المفتود^(٩) وأحيت
الموود وخلصتها أوتيت من مزامير آل داود ، وإن غنت ظل معبد لها عبدا
وقبل سحقا لا سحق وبعدا وإن زمرت أضحي زنام^(١٠) عندها زنا بعد
أن كان لجياها زعما وبالاطراب زعما ، وإن رقصت أمالت العمايم عن الرؤوس
وأنستك رقص الحبيب في الكئوس فكنت أزدري معها حجر النعيم وأحلى

(١) رفعناه (٢) المصير عليها بعزم (٣) بسبب تبصمه (٤) بمحادثته

(٥) ملازم لكسر البيت (٦) ثعبان (٧) اللؤلؤ (٨) الوسواس والهموم

(٩) المصائب في فؤاده (١٠) زامر المتوكل

بتعليقها جيد النعم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكرها عن
شرائع^(١) السمير، وأنا مع ذلك أليح^(٢) من أن تسرى برياها ربح
أو يكهن بها سطوح أو ينم عنها برق مابيح، فاتفق لوشك الحظ المبخوس
ونكد الطالع المنحوس، أن أنطقتنى بوصفها حميا المدام عند الجار النمام،
ثم تاب الفهم بعد أن صرد السهم^(٣) فأحسست الخبال والوبال وضيعة
ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاهدته على عكم مالفظته وأن يحفظ السر
ولو أحفظته، فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن اللئيم الدينار وأنه لا يهتك
الأسرار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم
أو يومان حتى بدا لأثير تلك المدرة، وواليها ذى المقدرة أن يقصد باب
قبيله مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله، وارتاد أن تصحبه تحفة
تلائم هواه ليقدّمها بين يدي نجواه، وجعل يبذل الجمائل لرواده ويسنى
المرائب لمن يظفره بمراده، فأسف ذلك الجار اختار إلى بذوله وعصى في
أدراع العار عدل عدوله، فأثى الوالى ناشر أذنيه وأبته ما كنت أسرته
إليه، فمراعى إلا انسياب صاغيته^(٤) إلى وانثيال حفدته^(٥) على تسومنى
إيثاره بالدرة اليتيمة على أن أتحمك عليه فى القيمة، فغشيتنى من الهم
ماغشى فرعون وجنوده من اليم، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع
وأستشفع إليه ولا يجدى الاستشفاع، وكما رأى منى ازدياد الاعتياص^(٦)
وارتياد المناص تجرم وتضرم وحررق على الأرم^(٧)، ونفسى مع ذلك

(١) موارد (٢) أشفق (٣) خرج من القوس (٤) حاشيته (٥) الحفدة

هنا الخدم والأتباع (٦) الامتناع (٧) الاضرار

لا تسمح بمفارقة بدرى، ولا بأن تنزع قلبي من صدرى؛ حتى آل الوعيد
إيقاعاً والتقرير قراعاً، فقادني الشفاق من الحين إلى أن قضته سواد
العين بصفرة العين^(١) ولم يحظ الواشى بغير الأثم والشين، فعاهدت
الله تعالى منذ ذلك العهد؛ ألا أحضرُ مُماماً من بعد، والزجاج مخصوص
بهذه الطباع الذميمة، وبه يضرب المثل في النميمة؛ فقد جرى عليه سيل
يميني ولذلك السبب لم تمتد إليه يميني

فلا تعذلوني بعد ما قد شرحته على أن حرمتم بي اقتطاف القطائف^(٢)
فقد بان عذري في صنيعى وإني سأرتق فتقى من تايدي وطارفي
على أن ما زودتكم من فكاكة ألد من الحلوى لدى كل عارف
قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره، وقبلنا عذاره، وقلنا له قدما وقذت
النميمة^(٣) خير البشر حتى انتشر عن حمالة الخطب ما انتشر، ثم سألناه
عما أحدث جاره القتات ودخله المفتات^(٤) بعد أن راش له نبيل السعاية
وجذم حبل الرعاية، فقال أخذ في الاستخذاء والاستكانة والاستشفاع إلى
بذوى المكانة، وكنيت حرجت على نفسي ألا يسترجعه أنسى أو يرجع
إلى أمسى؛ فلم يكن له منى سوى الرد والاصرار على الصد وهو لا يكتئب
من النجى^(٥) ولا يتئب^(٦) من وقاحة الوجه، بل يلبط^(٧) بالوسائل ويلج
في المسائل، فما أنقذني من إبرامه ولا أبعد عليه نبيل مرامه إلا أبيات
نفث بها الصدر الموتر، والخطر المبتور، فانها كانت مدحرة لشيطانه

(١) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب (٢) تناول الفطائر

(٣) آلمت وأذت (٤) مخالطة الكذاب (٥) الردع والزجر (٦) لا يستحي

(٧) يلتصق

ومسجنة له في أوطانه ، وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل
والثبور ويئس من نشر وصلى المقبور كما يئس الكفار من أصحاب
القبور ، فنادى أنه أن ينشدنا إياها وينشقرناريها ، فقال أجل خلق الانسان
من عجل ثم أنشد لا يزويه ^(١) خجل ولا يثنيه وجل .

ونديم محضته صدق ودي	إذ توهّمته صديقا حميا
ثم أوليته قطيعة قال	حين ألفيته صديدا حميا
خلتة قبل أن يجرب إلها	ذا ذمام فبات جلفا ذميا
وتخيرته كما ^(٢) فأمسى	منه قلبي بما جناه كما ^(٣)
وتظنيته معينا رحيا	فتبينته لعينا رحيا
وتراءيته مريدا ^(٤) فجلى	عنه سبكي له مريدا ^(٥) لثما
وتوسمت أن يهب نسيما	فأبى أن يهب إلا سموما
بت من لسعه الذي أعجز الرا	قي سلما ^(٦) وبات مني سلما ^(٧)
وبدا نهجه غداة افترقنا	مستقيا والجسم مني سقيا
لم يكن رائعا ^(٨) خصيبا ولكن	كان بالشر رائعا ^(٩) لي خصيا
قلت لما بلوته ليته كا	ن عديما ولم يكن لي نديما
بغض الصبح حين نم إلى قلبى	لأن الصباح يلقي نمويا
ودعاني إلى هوى الليل إذا كا	ن سواد الدجى رقيبا كتوما
وكفى من يشى ولو فاه بالصد	ق أثاما فيما أتاه ولوما ^(١٠)

(١) لا يصرفه (٢) متكلما (٣) مكولما (٤) بضم الميم محبا (٥) بفتح

الميم متعمدا (٦) ملدوفا (٧) صحيحا (٨) جميلا معجبا (٩) مخيفا
(١٠) مخفف لؤم

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسبعه^(١)
 بواه مهاد كرامته وصدره على تكرمته^(٢) ثم استحضّر عشر صحاف من
 الغرب^(٣) فيها حلواء القند والضرب^(٤) وقال له لا يستوى أصحاب النار
 وأصحاب الجنة ولا يسم أن يجعل البريء كذى الظنة ، وهذه الآنية
 تنزل منزلة الأبرار في صون الأسرار، فلانولها الأبعاد ولا تلحق هودا
 بعاد ، ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا
 أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرع، فقد جبر الله
 ثكلكم وسنى أكلكم وجمع في ظل الحلواء شملكم وعسى أن تكرهوا
 شيئاً وهو خير لكم، ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال
 للآدب إن من دلائل الظرف، سماحة المهدي بالظرف : فقال كلاهما لك
 والغلام فاحذف الكلام وانفض بسلام، فوثب في الجواب وشكر شكر
 الروض للصحاف، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنافى حلوائه، وجعل
 يقلب الاواني بيده وينض عددها على عدده^(٥) ثم قال لست أدري
 أشكو ذلك النمام أم أشكر، وأتأسى فعلته التي فعلها أم أذكر، فانه وإن كان
 أسلف الجريمة ونعم النعمة فن غيمه انهلّت هذه الديمة وبسيفه انحازت
 لي هذه الغنيمة، وقد خطر ببالي أن ارجع الى أشبالي وأقنع بما تسنى لي وألا
 أتعب نفسي ولا أجمالي، وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ
 ثم استوى على راحلته راجعاً في حافرتة^(٦) ولاويا إلى زافرتة^(٧) فغادرنا
 بعد أن وخذت عنسه وزايلنا أنسه، كدست غاب صدره أوليل أفل بدره.

(١) مدحه وذمه (٢) وسادته (٣) الفضة (٤) السكر والشهد

(٥) يفرقها على صحبه (٦) طريقه التي جاء منها (٧) ناكها إلى عشيرته

ثانيا - حياتها ١ - الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

١ - في العصر الاول - ما كاد العصر الأموي يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعي لأثر للصناعة فيه إلى ترسل صناعي أرسى أسسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر ، في رسوم رسمها للمبادئ والخواتيم ، وفي جولات بعيدة الاطراف بين طرفي القلة والاكثار ، ثم تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع ، وفي طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسل الطبيعي لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذ طابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين . وإذ كان صدر العصر العباسي الأول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسل الطبيعي الى الورا واطراد الانشاء الصناعي الى الأمام حتى يعظم هذا ويفنى ذاك وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الاسلوب الفطري في كلام الخليفةتين الأولىين وأضرابهما كما رأيت في الرسائل التي سقناها بين المنصور ومحمد بن هبة الله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدها واحتضنه التاريخ ولذا انصدف عنه ونعتبر الكتابة منذ جاء العصر العباسي

صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتبعه
فيما رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لاغنى عنها في الموضوع .
نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس خلال
ابن عبد الله القسرى والى العراق ، وهى حينئذ حلبة العربية ومجتمع
الرواة وقرارة المربد - كاظ الاسلام والحاضرة التى يفد اليها فصحاء
الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسى فى الدواوين
العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف
ذلك إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتدشى الأحداث
عليها ، فخذق فنونها وتخرج فى آدابها . وكان من حسن حظه وحظ العربية
معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت
الأهتم المنقرى فكان فى نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب
ابن شيبه وناهيك بهما فصاحة منطق وذراية لسان . ولما تمت آتاه فى
العربية تمامها فى الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع إلى التخرج فى صناعة
الكتابة وكان عبد الحميد المذكور كاتباً مروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك ،
فتقرب عبد الله اليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات
الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فيه ذا النواحي المبتدعة
والطرائق المستحدثة ، ضاماً إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار
كاتباً يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس فاستكتبه فى
عصر بنى أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق .
ولما دالت دولتهم استكتبه فى زمن بنى العباس عيسى بن على والى كرمان
وعلى يديه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى كتب

لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأنبار فاتصل به وترجم له كتاب كليله ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسميستها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التي كان كسرى أنوشروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التي كانت له من عبد الحميد الذي عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترسل الذي كان لعبد الحميد ، وقصاراه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاجه أو سجع إلا ما جاء عفوا غير متعمد ولا مقصود والذي يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسي الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عنايه بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صارا عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة في شرف المعاني وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العي الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل المعتنع . وثانيهما توجيه همه في تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعاني لا الألفاظ وللفرس في المعاني مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غنوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التي ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا في

كتاب كليله ودمنة ، وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة
اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكيم عن علم وثقيف
لا عن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب ، ولم تكن للعرب غنية عن
ترجمة كثير من هذه الحكم في هذا الطور العباسي الذي حصلوا فيه
على قسط وافر من التعليم . ولعل أول من نقل هذا الحكيم وتلك الفلسفة
إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباد وبهرام وسابور وأنوشروان
وأزدشير وغيرهم في السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس ، رجلنا
الذي نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب
المعنوي إلى الجانب اللفظي بحال

هذا وكما يمثل ما نقلناه من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ،
يمثل كذلك ما أشرنا إليه في ناحية المعاني أتم تمثيل ، فكل ما كتب
ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا
الذي رسم ، سار من ورائه كتاب عمره كيجي بن زياد وعمار بن حمزة
والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدر كوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم
رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبي عبيد الله
معاوية بن يسار وأبي عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى
ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا المهدي والمهدي والرشيد ، ثم رجال
الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابني يحيى والفضل والحسن ابني
سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد
والأمين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي
ونحوهما ممن تربوا في عصر المأمون وأدر كوا العصر الثاني فاعتبروا رجال

طبقة الاولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذوا بن المقفع
فى الالفاظ السهلة الممتعة البعيدة عن المزوجة والسجع إلا ما جاء عفوًا ،
وفى المعانى الشريفة النبيلة المشهرة بسعة العقل وقوة المنطق ، ولذلك
نقول إن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى
ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الالفاظ ولستنا نقول ذلك
عن غير دليل نتقدم به ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور
فى كتاب بغداد يقول « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهابى قال
حدثني يحيى بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إني بالرقعة بين يدى
محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بسلام لى فكلمته بالفارسية
فتدخل العتابة^(١) وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت
له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلىدكم هذه ثلاث قدمات
وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرور وكانت الكتب سقطت
إلى ما هنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة فكتبت منها حاجتى ثم
قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتبنا لم أقض
حاجتى منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهرًا - قال فقلت - أبا عمرو ولم
كتبت كتب العجم فقال لى « وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، البلاغة

« ١ » هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابة ينتهى نسبه إلى عمرو بن كلثوم
التغلبى ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابة
ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى
البرمكى لولده وكان العتابة منقطعًا اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم
ابن عمرو العتابة فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله » .

في اللغة لنا والمعاني لهم» قال ثم كان يذكرني ويحدثني بالفارسية كثيرا .
ولهذا الذي كان من الكتاب في هذا العصر من العناية بالمعاني
ليست الكتابة فيه ثوب الايجاز أكثر مما جررت ذبول الاطناب
وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع في نفوس الخلفاء ، حدث أحمد بن
يوسف وزير المأمون قل دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده
وقد أطل النظر فيه زمانا وأنا ملتهفت اليه فقال يا أحمد أراك منكرا
منى متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكره وأعاده
من المخاوف ، قال فإنه لا مكروه فيه ولكني قرأت كلاما وجدته نظير
ما سمعته من الرشيد يقوله في البلاغة فإنه كان يقول « البلاغة التباعد عن
الاطالة والتقرب من معني البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من
المعنى وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة في هذا المعنى حتى
قرأت هذا الكتاب - ورمى به إلى وقال - هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى ،
قال فقرأته فاذا فيه « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده
وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة
جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت
لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استجسائي
إياه بعثني أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة
الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته . هذا وإنك لتجد الايجاز باديا
فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت
اسم الكتب وإن طالت لأن العبرة في الايجاز ليست في طول ما يكتب
لنفس الطول ، وإنما هي في طول ما يكتب بالنظر إلى ما عبر عنه من معان ،

ولذلك قد يوجد الطول مع الإيجاز كما هي حال تلك الرسائل، وقد يوجد
الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده
كذلك في كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما في الكتاب
السابق كان من أعلام الموجزين . كتب أحمد إلى إبراهيم بن المهدي وقد
استقل هدية أطفه بها « بلغني استقلالك لما ألفتك ، والذي نحن عليه
من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم
إلى من لا يغتنم » وكتب في التهنئة بافراق من مرض « قد أذهب الله وصب
العلة ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيهما من إرغام العدو بعقبها أضعاف
ما كان عنده من السرور بفتح أولها » . وكتب عمرو موصيا بشخص
« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معني بمن كتب له ولن يضيع
حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع في رجل بالزيادة له
في منزلته ويعترض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين
لنطولاك على ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن
أمير المؤمنين لم يجعاني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى
طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك
وتعريضك لنفسك وأجبتناك إليهما ووقفناك عليهما » وقال الرشيد يوما
ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر
وقد استحييت من مكاتبتك في هذا المعنى فاكتمب أنت إليه فكتب
يحيى إلى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم
من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير
المؤمنين في أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة

طلعت عليه » . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعدائك وجعل من شنؤك فداءك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى في حجرى وخاتمه فى يدي والحمد لله رب العالمين » .

ب - فى العصر الثانى - منذ عهد الرشيد ، قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية اذذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضه ذات ذبول وإن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجل ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاعت الاقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أبا اسحاق

ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ما ترجم أيام المنصور والرشد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكهيا عالما فيلسوفا، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوعبه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكترى دكا كين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت، وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لا نصع دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جناه منها من فائدة، وكان محبوبا من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرنسا، لا يزال محبوبهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزالون بحبونه بجزيل العطايا وسنى الصلات وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى، فكان ينتجع اليهما الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان، ولما قتل ابن الزيات عاد الى البصرة فأقام بها كما كان عالما مصنفًا وأديبا كاتبًا الى أن فليج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا الى بغداد يستمتع به، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين.

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو آدهم وإن ذكر علم الأدياء فهو أعلمهم، وقد استخلص مما قرأ علومًا جامعة شارك بها أهل كل علم، وآدابًا ممتعة ضرب فيها بكل سهم، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات، إذا ألف ألف بين الاشتات وإذا

كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات .
فكان راوية متكلمة وفيلسوفا مسامرا وأديباً مؤرخاً وشاعراً عالماً دارساً
أحوال الحيوان والنبات والجمادات والجماعات ، وهو في
كل ذلك الكاتب المكثّر الذي لا يدرك له شأؤ ولا يشق له غبار حتى
لكأنه المعنى بقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
لذلك عد أحد الأفاضل وإحدى حجج اللسان . قال يصف كتبه ابن العميد
« كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والادب ثانياً » وقال يصفها السعدي أيضاً
على تشييعه وعثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه - أي عن
التشييع - تجلو صدى الأذهان ، وتكشف واضح البرهان . لأنه نظمها
أحسن نظم وورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ .
وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع خرج من جدد إلى هزل
ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب
البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم وغرر
الشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر
لا كتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ، وسائر كتبه في
نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى تعصب أو إلى دفع حق ، ولا يعلم ممن
سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب في هذا
العصر العباسي الثاني ، وكما قامت ميز العصر الأول على الترسل والايجاز
تقوم ميزة الثاني بما من الجاحظ على الازدواج والاطناب . وإن عودة

إلى ما اخترنا له في مدح التجار وذم عمل السلطان وفي وصف الكتاب
وفي محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف
وإتباع الشيء بمثله والقرين بقرنه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات
حتى ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة في ابتداع مستحدث وابتكار
ليس له فيما سبق مثيل ، وهانحن أولاء نأفلون هنا شيئاً مما قال في
الحسد مسبقاً بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون
الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع في الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف
به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم
ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والا كفء الخلفاء .
فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون ، حين تكون مع من
هو خير منك وأن غمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك
في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجأه ،
وأفضل منك في الدين فبزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ما تنظر فيه
من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو ،
فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الإعداد والفرصة فتحمله على
التسليح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال في رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام
لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك
الله تسألني عن الحسد ماهو ومن أين هو وما دلائله وأفعاله وكيف
تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار في العلماء

أكثر منه في الجهلاء ولم كثير في الأقرباء وقل في البعداء وكيف دب
 في الصالحين أكثر منه في الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان؟
 الحسد أبقاله الله داء يهلك الجسد ويفسد الأود علاجه
 عسر وصاحبه ضجرو وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى
 وما بطن منه فداويه في عناء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دب
 اليكم داء الأُمم قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس لجلسائه أي الناس
 أقل غفله فقال بعضهم صاحب ليل إنما هم أن يصبح فقال إنه لكذا
 وليس كذلك وقال بعضهم المسافر إنما هم أن يقطع سفره فقال إنه لكذا
 وليس كذلك فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفله فقال الحاسد ، إنما هم أن
 ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبدا . ويروى عن الحسن
 أنه قال « الحسد أسرع في الدين من النار في الخطاب اليابس » وماتى
 المحسود من حاسد الأمن قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه قال
 الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد
 آتيناهم آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد
 عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى
 أهل الكتاب فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من
 بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق »
 فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل
 جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح
 الشر بين الخلطاء ، يكمن في الصدر كمن النار في الحجر ، ولو لم يدخل
 رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكن الحزن في

جوفه وكثرة مضضيه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد
لذاذة عيشه الاستصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما
أفاده عبده وتمنيه عليه أن يرجع في هيته إياه ولا يرزق أحدا سواه ،
لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم في القياس مظلوما وقد
قال بعض الاعراب « مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد نفس دأب
وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب
ومنصور ، والحاسد مهوم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور - إلى أن
قال في آخر الرسالة وهي اثنتا عشرة صفحة - وما أرى السلامة إلا في
قطع الحاسد ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ولا الراحة إلا في صرم
مداراته ولا الربح إلا في ترك مصافاته . فإذا فعلت ذلك فكل هنيئا
واشرب مريئا ونم رضيا وعش في السرور مليا ، ونحن نسأل الله
الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ويجنبنا وإياك دناءة الاخلاق ، ويرزقنا وإياك
حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

وعلى هذا النحو من المزاوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا
لملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفي وطبع رخي
فيطلب ماشاء له الاطناب ، كما يتضح ذلك حتى في قصار رسائله مالم
يتعمد فيها مساواة ، كما في تهنئته الفتح بن خاقان ومعاتبته قليبيا المغربي
أو إيجازا كما في كتابه السابق معهما يستنجز مما طلا ، فان القلة كما قلنا لا تأتي
الاطناب ، كما لا تأتي الكثرة الايجاز ، وهذه رسالة له في ثلاثة سطور
ولكنها من الاطناب قال « أما بعد فأقبح الأحداث من مستمنح حرمة

وطالب حاجة ردده، ومتأثر حجبته، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل عليك بعنايته لويت عنه، فتثبت في ذلك، ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم» ولم يكن موضوع الكتاب مهما نجافى عن الادب والفن ولج في السيرة والعلم، ليقف بالملاحظ دون تلك الطريقة الفذة، أو يصرفه عن تناولها، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش «قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها وذكائها، وكيف سياستها وتديرها، وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها لأحاديث غدو قلة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودهاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراضها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبهه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره وهل غفلته إلا في صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره» وانظر إليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعاني والالفاظ، لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال «ومن قرأ كتب البلاء وتصفيح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن الريح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ، حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، وبضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء

لصاحبه: أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك؟ قال: لاني أقول البيت وأخاء،
وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسياحة وسماع الألفاظ
ضار ونافع، فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في
صدره، فإذا طال مكثها تناحكت ثم تلاقحت، وكانت نتيجةها أكرم نتيجة
وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة
ولادالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره،
وبين اللفظ إذا عشت في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن
يكون اعتسافا واعتصافا بفرق بين. ومتى اتكل صاحب البلاغة على
الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتتيال، لم ينل طائلا وشق عليه النزوع
واستولى عليه الهوان، واستهلكه سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ
ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك
الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا
ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلفا لمعانيه، مضطرب التأليف
منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وبجهاذة المعاني، استخفوا
عقله وبهرجوا عامه.

وقد اقتدى بالجاحظ في هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا
إنهم تربوا في عصر المأمون، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب
العربية، الآداب الدخيلة تامة الأني والاستواء بما استبحر من آداب
الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان، وقد
ذكرنا منهم الصولي وابن الزيات، ونضم إليهم الآن الحسن و-يمان ابني
وهب وسعيد بن حميد، وأحمد بن إسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم

والوائق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي
والمعتمد وهم رجال الطبقة الأولى في العصر الثاني ، وقد أعقبتهم طبقة
ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبي العباس بن ثوابه ، وأبي
الحسن علي بن الفرات ، وعلي بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد
للمعتضد والمكتفي والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن
عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو علي
ابن مقله وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والرازي والمتقي
والمستكفي الذي انتهى على أيامه العصر الثاني بدخول بني بويه بغداد .
فكل هؤلاء كانوا للجاحظ في طريقته محتذين ، ولا أسلوبه مترسمين ، كما
نرى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا في غيرها مما
يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات ، فهذا حمزة الاصفهاني جامع
ديوان أبي نواس يقول في مقدمة هذا الديوان « سألتني أبقاك الله وأعلى
قدرك ، وبلغك أقصى أملك ، وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك
ولا أعدمك جميل ما عودك ، أن أصرف لك عنايتي إلى عمل مجموع من شعر
أبي نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره ، وقد أسعفتك أيديك الله
بطلبيتك ، وأجبتك إلى ملتصاك » إلى آخر ما قال على هذا النمط الذي ابتدأه
بالدعاء كما كان يبتدئ الجاحظ ، وعاد يكرر الدعاء في ثنايا ما يقول بعد البدء
كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر
الجاحظ فيما خالف من مصنفات جاءت في الأسلوب والاطناب على
نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات ، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .
وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمداً ويحمداً لهم الإيجاز ،

فقد أوحى هذا العصر الثانى إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقاداً منهم أن فى التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى، وشدة تأثير فى النفس، ثم غلوا فى هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعاً فى العصور قبلهم من إيجاز، قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية، كتب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلك كونه فى بيعته - أما بعد فانى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت - لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدى ويبحذر وينذر » ونحن نقول: ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعانى كما كانت لدى أولئك الأسلاف بل صارت فى ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الامر لجهلهم، عن التشجيع، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان، ثم نصرة الشعوبية الداعية إلى احتقار العرب وتهوين ما لهم من كفايات، قد أصاب الأدب والأدباء، فأثر ذلك فى صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف فى كتابات الكتاب . ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب . فاسمع إليه يقول فى مقدمته : « أما بعد فانى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهل كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم، والشاى تارك للزيادة، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المجدودين . فالعلماء

مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون، حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على النفوس، والجاه الذي هو زكاة الثرف يباع ببيع الخلق، وآصنت المروءات في زخارف النجد وتشديد البنيان، ولذات النفوس في اصطفاف المزاهر ومعاطاة الندمان، ونبتت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس - إلى أن قال - فاني رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة.

ج - في العصر الثالث - كانت الثروة على ما علمت في العصر الثاني ممدودة الرواق، وكانت الحضارة وارفة الظلال، وكان الأثرياء منغمسين في المتع غارقين في النعيم. غير أن جهل القائلين بالأمر على الدولة فيه، جعل الأدب كما تقدم تركد ربحه، وتفتقر حر كته، وجعل الكتاب وهم قطب الأدب الذي عليه يدور رحاه بعيدين في جمهورتهم أن يشركوا أولئك القائلين في سعة النفوذ وبالتالي في الاستمتاع بمباهج الحياة. ولكن ما كاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الاتراك عن بغداد وجعله في أيدي آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الادباء، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن

الكتابة وناقست بغداد في ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هذه المنافسة أشد ما تكون بين رجال الكتابة الحاليين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التي انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذي نتكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التي زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ، وشارك ملوكها في سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة ، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذي لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة في التعظيم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ في هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم ، فأحسن أبوه في هذه البيئة تربيته ، ورشحه لصناعاته وهياؤه لمنزله ، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات ، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ في العربية والفارسية وتضلّع في آدابهما حتى لقب بالاستاذ والرئيس . ثم نبه شأنه وضاعت الدولة السامانية عن قدره ، فاجتذبت به دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر في هذا السلطان ثلاث قرن كان فيه محط الرجال وكعبة الآمال والممدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، حتى توفي سنة ٣٦٠ .

ذاك ما أردنا من التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره وخفض عيشه ، لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقيم دعائمه يد ابن العميد ، فإن الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم

والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتألقوا في كل ذلك ما وسعهم
التألق ، فغلوا فيما حملوا عليه ، وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما
ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار . ومن أولى من
ابن العميد ، واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات ، وهو الناشئ يحوطه
الترف ويحدوه النعيم ، أن يحكى في كتابته ما يشهد في عيشه ويعكس
على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ، اللهم لا غيره يصلح لأن يكون
صاحب الأسلوب الجديد . فبأى شيء يأتى يحدث الزخرف ويحصل
التمسيق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه
أول ما يدل في صاحبه على ذلك ، وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى
قوة فوق تحليته الألفاظ ، وبعد السجع يكون الالمام بأجل الحلى اللفظية
من جناس ، وأجل الحلى المعنوية من طباق ، على أن تبقى الصورة الظاهرة
للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع ،
قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح
يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا في السجع ملزوما يصحبه الجناس
قليلًا والطباق نادرا ، مع الالمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة
وإكثار وترادف وإطناب ، ولكن في عدول غالبا عما كان لها من تقصير
الفقرات إلى إطالتها التي أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع
الزواج ، فنت بها إلى العصر الأول ، وجمع بذلك كله بين محاسن العصور .
على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية
بالمعاني وهو الحكيم الفيلسوف ، الجامع بين سعة المتقول وغور المعقول ،

فما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات
حظ فيما لكلامه من بهاء وكتاهها لصاحبها زين وجمال كما قيل :
تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعاني
وحسبه أن يظفر في وصف بلاغته بأبيات من المتنبي قد طلعت على
الأكوان شمسا، وسارت في الآفاق مثلاً، فهو القائل فيه :
إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له في القلوب الحسد
وهو القائل فيه :

عربي لسانه ، فاسفي رأيه ، فارسية أعياده
خاق الله أفصح الناس طرا في مكان أعرابه أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد
وختمت بابن العميد » فإن الحسن الذي وصلته على يده لم يزد على يد
أحد وإن ماثله من بعده، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكانها
كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه ، وطابع كتابه يودون
رسمه ولا يعرفونه ، فما إن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه
تسابق الجياد في الميدان ، فكانت الطبقة التي لم يعد الدهر يسمح لها
بمثال، ويكفي أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى
سنة ٣٧٥ وأبو اسحق الصباني ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤
وأبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع
الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وأبو منصور الثعالبي
عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود
بأريج أنفاسهم، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأمنه أعلامهم ، فكان

لها على أيديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكتشاف، ما نشير الآن إلى أهمه في ناحية الأسلوب .

١ - جعلوا الطابع المميز لها في هذا العصر السجع مع الاطناب يصحبه الجناس على قلة والطباق نادرا، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هي السجع دون غيره، ولهذا أغرم القوم به اغراما والتزموا التزاما في تمكن وقوة، فجاء عفووا صفوا كسجع الحائم حسن وقع وجمال انسجام وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الأدب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ في تاريخه المسمى اليميني نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي، فقد ترجم فيه حياته وحياته أليه سبكتكين، وكان كاتبها، في أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه وكما فعل الثعالبي المذكور في يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه، ثم كما جاء سجع الكتاب في هذا العصر على ما قدمنا لا تكلف فيه جاء كذلك ما قد يأمون به مع السجع من جناس وطباق، انظر إلى الخوارزمي يقول مستخدما لها في كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو ذا « كتبت إلى الأستاذ معاتباً مره ومستعتياً كره، فواجدت للعتاب إعتاباً، ولا قرأت عن الكتاب جواباً، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني » .

٢ - أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والأشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم

الكافة كالذى كان من ابن العميد إلى أبي العلاء السروى فى رسالة يشكو
فيها رمضان سنة شديدة الحر فانها من أجمع الرسائل^(١) لما ذكرنا تقريرا
ولذا أثرنا الاستشهاد بها عليه قال .

كتابى جعلنى الله فداك ، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان ، وفى
جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر
من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضا^(٢) أتى أصحابه وهو منضج^(٣)
وممتحن به واجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرياء
عن التحنف ويزويه عن التنصر^(٤) ويقبض يدها عن إمساك ساق
وإرسال ساق ،

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب^(٥) ويقدح النار بين الجلد والعصب
ويغادر الوحش وقد مالت هواذها^(٦)
سجود الذى الأرتى كأن رءوسها علاها صداع أو فواق يصورها^(٧)
وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه تظل المها صورا جماجها تغلى
وكما قال مسكين الدارمى

وهاجرة ظلمت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون مسجود

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرىء ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد
يصرف الحرياء عن عاداتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدتها (٣) الجأب حمار
الوحش والجلب أنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرتى نبات مستعلق
يتمسح فيه الوحش إذا اشتد الحر تبردا

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لا ذل من وخز السنان طربد
وممنو بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً وليال كاهام القطا قصرأ ، ونوم كلا
ولا قلة^(١) وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفية الطائر المستحرج خفة
كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجات

ومثل

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع العنب
وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركتته ويبقيني الخير
في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر
سيره ، ويخفف حر كته ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائره
ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة شوال فهي أسر الغر عندي
وأقرها لعيني ، ويسمعي النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله
أخفي من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر وأضنى من
قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور^(٢)
ويرسل على رقاقته التي يغشى العيون ضوءها ويحط من الأجسام نوءها
كلها يغمرها وكسوفاً يسترها ويرينيه مقمور الظهور مغمور النور ، قد
جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما
تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدي إليه
السوس ويغري به الدود ويباليه بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل
ويجتاحفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرى به مسترق السمع ويخلصنا
من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به

(١) أي كالمن بين هذا الحرف مكرراً في الإجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالالوان، ويقال له بما تقتضيه دعوة السارق
إذا افتضح بضوئه وتهتك بطموعه « ويرحم الله عبدا قال آمينا » وأستغفر
الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستغفیه من توفيقى لما يذمه وأسأله
صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب
وتهوى جارية، والله الحمد تقدست أسماؤه والشكر

٣ - أغرموا بالخيال الشعرى إنغراما شديدا فهاموا فى أوديته
كما يهيم الشعراء واستخدموا صوره كما يستخدمون ، حتى صار كلامهم
والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا فى الاستشهاد به
حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول الصاحب بن عباد فى كتاب
يصف به فصلا من كتب العميد

فصل رأيت فصيحا الإشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حاتم وإن رام إسهابا أنى الفيض بالمد

فصل قد نظرت فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه وغمهم بشيمه

وغزاهم بسوابع من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله

وهكذا - ثم جاوزوا هذه المبالغة فى الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب

بالشعر كل فقرة بشرط كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمى فى

الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا لقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب
ولقد ساعد كتاب هذا العصر - على ذلك ، أن جمهرة كبيرة منهم -
وهذا ميزة له - كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين
على صاحبيتها ^(١) ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته
أشعاره ويذيل رسائله بأبياته . كتب الصابي إلى قاضي القضاة أبي محمد
ابن معروف وكان قد زاره في معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول .
لقد قوى دخول سيدنا قاضي القضاة إلى نفسي وجددا نسي وأغرب
نحسى ووسع حبسى فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له ، فإن
لم أكن أهلا لأن يستجاب مني فهو أيده الله أهل لأن يستجاب
فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم الزمان على صنيعه لك رهن الحبس ممتحن
أخنت عليه خطوب جار جأثرها حتى توفاه طول الهم والحزن
فماش من كلمات منك كن له كالروح عائدة منه إلى البدن
ولنصوع الجمال الذي فاض على الكتابة بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر
وصفها في العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه ، من حسن
وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن في مجالى الطبيعة ومبدعات

« ١ » من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتوفى المتوفى
سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كشاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاسم
الجرجاني على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى أبو الحسن
محمد بن الظاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩

الحضارة على السنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصري الصابي يصف رسائله نظما .

أصبحت مشتاقا حليف صباية برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة ساوة العشاق
طورا كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الأَطواق في الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز كتبت بدائع على الأحداق
وكتب ابن العميد إلى القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن
خلاد الرامهرمزي يصف كتابا وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى
وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك ، فارتحت
لكل ما أوليت وابتهجيت بكل ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل
فصل إلى نظائره التى وكأت بهاذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت
النظم فلمكنى العجب به وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على
العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحالى وحلى ، وشذور الفرائد
فى نحر الخرائد .

بالعذارى غدون فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السود
فلم أره لشيء عدلا ولا أرضى ماعدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله
ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويلهمك من بر إخوانك ما تنعم به
صنيعك اليهم ، وترب معه إحسانك عليهم .

٤ - أغرقوا فى عبارات التعمظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلا
بشأنهم وأقدارهم وانما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها ،
والفرس أميل الناس الى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير جريا على

عاداتهم وإجابة لطبائهم، فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم وبالاطناب لهم فى جمل الدعاء والتفخيم، ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عريبتها وعربية كتابها، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنه

« أسأل الله تعالى مبهتلا لديه مادا يدي اليه، أن يحيل على مولانا هذه السنة ومايتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات : ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفيا على المتقدم له قاصرا عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزا منصورا محبباموفورا ، باسطا يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحساد ساميا طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز وملاك فائزة قداحه فلا يجيلها إلا لحيازة مال وملاك حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جاحما والسمو له همته طامحا » اهـ . ثم لم يبق ذلك مقصورا على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الاخوان كما قرأت سابقا فى كتاب ابن عباد الى الطبرى، وكتاب الصاحب الى ابن العميد ، وكتاب الشعابى فى التهئة بالقدوم، وغيرها فى هذا المعنى كثير .

هـ - ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وألقابهم الى الكناية عنها تزيها لهما وتصونا عن ذكرها فصاروا يكتنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون

ديوان الانشاء ، كما يكتنون عن الوزراء بالحضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لا يخاطبون إلا بها تبعاً لاختلافهم في مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك ما نال غيرهم ، فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب . على أنهم تعدوا في هذا ، الألقاب إلى الدعاء فتوعوا في في جملة مراعاة لمكانة المکتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا .

٦ - اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدءوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعتيه بعد الإشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب ، ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا ، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب في بعض الأحيان ، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعي هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء في العصر العباسي الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان في الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون فلبت ركة إلى العصر الأخير لتري ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د - في العصر الرابع - ورت العصر العباسي الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسيج جميل الرواق ، قد حالفه السجع في غير تكلف ، وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار ، فبهر القاريء بأشراق معانيه ، كما راقه بحلى ألفاظه ، وشهد للكاتب بسعة الاطلاع في فنون الأدب

وقوة العتاد في صناعة القيم . وقد دعت سنة الرقي المطردة ورغبة النفس الدائمة في الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره في الاكثار من الجنس والطباق ، وأن يضموا اليهما ما وسعهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه ، واتفق أن ولد في آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب في هذا العصر الذي يليه ، هو أبو محمد القاسم بن علي المعروف بالحريري .

ولد الحريري بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجامح سنة ٤٤٦ ، ولما كان قد خلق مفطورا على الأدب مهيا لما ذكرنا ، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها في محلة بني حرام ، وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار في كليهما إماما ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما ، واتصل بالخلفاء العباسيين والأمراء الساجوقيين ، وما زال عالما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفي بالبصرة سنة ٥١٦ . خلفا من الكتب ، درة الغواص في أوهم الخواص ، وملحة الاعراب وهي أرجوزة في النحو ، وشرح ملحة الاعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التي شخصته شاعرا ، ونصبت في الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله في كتاباتها الابداع كله . وتلاعب بالالفاظ تلاعب الصوالة بالأكر ، فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه في قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الالفاظ اللغوية والحكم المختارة ، والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة ، والاقتباس من القرآن والحديث ، والامام بكثير من دقائق العلوم ، ومتناولات الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما

جعلناه فذا في ابتكاره، وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى في مضماره لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعاً وعلى غيره عبثاً، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعاني حتى خفيت، واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نضب معين الأجداد من الكتبيين والفهم من القارئ بما أناخ على الأدب، وعصف بذويه من تسلط الأتراك شرقاً والأكراد غرباً على الفاطميين العرب، والبويهيين المتعربين، وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه، منذ أواسط العصر ظهوراً حاداً بأسلوب الكتابة في نصفه الثاني عما كان عليه في النصف الأول، وخلع على طريقة فيها اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق في استخدام البديع، وغالى في التأنيق حتى تجاوز الحد، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد، وقد تقدمت له رسالة فارجم إليها تجدد التكلف بادياً والمعنى خافياً. ولقد كان هذا الخفاء أبدي في الكتب العلمية التي تكلفوا فيها البديع اذ ذاك، منه في رسائل الانشاء كما هي الحال في كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» الذي أرخ فيه عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبیت المقدس. فان من عباراته ما لا يفهم إلا بالتأمل، ومن ألفاظه ما لا غنية عن المعاجم في معرفة معناه على عكس ما ذكرنا عن كتاب اليميني آنفاً.

وقد هالت هذه الغلبة للالفاظ على المعاني بعض أدباء العصر اذ ذاك، فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الالفاظ، وذلك بما ألفوا ورسموا كأبي الفتح ضياء الدين بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر»

فقد بين فيه ما يتطلبه الأدب من كليهما في المعنى واللفظ على السواء ،
وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ما كان لعصره من تكلف اللفاظ
وإخفاء المعاني .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الأسلوب الكتابي في كل
عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك
واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لاكل كاتب فيه . فقد يحدث في
عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده
كالزهرة تتفتح مبكرة في بستان ، ولما يتفتح بعد شيء من الأزهار .
واليك في هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي التي
يقول فيها مستعظما : - الأصيل الجواد الواري الزنادي الماجد الاجداد ،
الوزير الفاضل الأثم الباذل اللباب الحلال ، من المستكين المستجير
البائس الضرير ، فاني أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولي الصغير والكبير
بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاغتم واسلم واعلم إن كنت لاتعلم
أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغم ومن يصنع
المعروف لا يعدم . وقد سبق إلى تغضبك على واطراحك لي وغفلتك
عني بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا
بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك غميك ولذلك قلت

أسرعت بي حنا اليك خطائي^(١) فأناخت بمذهب ذي رجا

راغب راهب اليك يرجي منك عفوا عنه وفضل عطاء

ولعمري ما من أصرو من تا ب مقرا من ذنبه بسواء

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك في خير ، ألا تزهد فيما ترى
من تضرعى ونخشى وتذلى وتضعفى . فان ذلك ليس لى بنجيزة ولا
طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنه تذلل وتخضع وتضرع
من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن
التضرع له عز ورفعة وشرف . ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر
كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر
لاحق متأثراً بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه ، فتجىء
كتابه على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه ، عن محاكاة أو معارضة ، على أنه
فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هناك خضوع من الجميع
لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

مامن داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلا دعت
إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد إليه الخطيب ثمت إلا قصد إلى
مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل
الدواعى والأغراض هنا اتسكالا على ما فصلنا هناك ، وإن هى إلا كرة
منا تذكرو فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو نأتى
بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به
الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

١ - فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد
الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهأت ذاق
قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أبى

جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله ، والآن فاقراً ماكان بين
أبي جعفر هذا وبين أبي مسلم الخراساني إذ بعث إليه من يحصى عليه
المغانم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن علي ، فغضب وقال « أكون
أميناً على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته فنهى بالخروج وهم
أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إني قد وليتك مصر
والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم
بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيتك من
قريب » - فكتب إليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريباً منه
لقتله - كما حدث بعد - « إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدواً إذا أمكنه
الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من
الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على
الوفاء لك بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد
حيث تقاربها السلامة . فإن أرضناك ذلك كسناً حسن عبيدك ، وإن أبيت
إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى »
فكتب إليه المنصور - « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة
أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة
لكثرة جرائمهم ، فإن راحتهم في انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك
بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء
هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن
موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول
بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أو كسر

وأقرب من طُبه من الباب الذي فتحه عليك . فأثرفيه ذلك على ما فهم
آنفاً، وقدم عليه فلقى حتفه .

٢ - والكتابة قد استخدمت في الاستعطاف والوعيد والعتاب
المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك، وتعدته دون الخطابة إلى ما يدور حوله
فن الأول في الاستعطاف : كتاب الصابي عن عضد الدولة إلى
أخيه مؤيد الدولة بشأن ذي الكفایتين علي بن محمد بن العميد ، ومنه
في الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبث وكتاب
ابن العميد عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه في العتاب المصحوب
بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال .

ومن الثاني في الاستعطاف كتاب ابن الرومي السابق ، ومنه في
الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولي ، ومنه في العتاب كتاب الخوارزمي
إلى صديقه الذي لم يعده في مرضه ولم يهتئ به بلال وكتابه إلى تلميذه
الذي لم يزره بعد أن تخرج عليه .

٣ - والكتابة قد استخدمت في الحوار بين الخصماء وفيه بين
الأحباء وفيه بين المتفاحين . فن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور
والنفس الزكية ، ومن الثاني كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل في
تنازله عن الخاتم لجعفر ، ورد الفضل عليه . أما الثالث فاليك منه رسالتين
مما كان بين الخوارزمي والبديع ، فإن الخوارزمي لما لم يحسن مقابلة البديع
على ما كتب له قبل لقائه في رسالة الشوق الماضية كتب إليه البديع -
الأستاذ والله يطبل بقاءه ، ويدميم تأييده ونعماءه ، أزرى بضيفه أن وجده
يضرَب أباط القلة في أطمار الغربة ، فأعمل في ترتيبه أنواع المصادفة وفي

الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إجماع بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام وتكاف لرد السلام ، وقد قبلت هذا الترتيب صغرا واحتملته وزرا واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ولم آله عذرا ، فإن المرء بالمال وثياب الجمال ، وأنامع هذه الحال وفي هذه الاسمال لا أتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السحابة والبذل ولو طوحت بالاستاذ أيدي الغربة إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ، ورأيه أيده الله في أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذي معناه ود ، والمر الذي يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمي -

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

فهمت ما تناوله سيدي من حسن خطابه ، ومؤلم عتبه وعتابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذي لا يخلو منه من نيا به دهر ، ومسه من الأيام ضر ، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسه ومظنة مشتكى ما في نفسه ، أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه زعم في القيام وتكافى لرد السلام ، فقد وفية حقه كلاما وسلاما وقياماً على قدر ما قدرت عليه ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبي القاسم ، وما كنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه

البتول وشاهداه التوراة والانجيل، وناصره التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل ومكائيل . وأما عدم الجمال وورثاة الحال، فما يضعان عندي قدرا ولا يضران نجرا، وإنما اللباس جلدة والزي حاية بل قشرة، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل، ونحن بحمد الله نعرف الخيل حارية من جلالها، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأحوالها، وأما القوم الذين صدر سيدي عنهم وانتمى اليهم، ففيهم لعمري فوق ما وصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فنلت المرتاد وأحمدت المراد .

فإن أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذمهم والله يعلم نيتي للاحرار عامة ولسيدي من بينهم خاصة . فإن أظنني على مرادى له ونيتي فيه بحسن العشرة، بلغت له بعض مافي النية وجاوزت مسافة القدرة، وإن تطع نلى طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة صرفت عناني عن طريق الاختيار بيد الاضطرار .

فما النفس الانطفة بقرارة اذالم تذكر كان صفوا غديرها وعلى هذا فخبذا عتاب سيدي إذا صادف ذنبا واستوجب عتبا . فأما أن يسلفنا العريضة ويستكثر المعتبة والموجدة، فتلك حال نصونه عنها ونصون أنفسنا عن احتمال مناهها . فايرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجل له ولست أسومه أن يقول « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

٤ - والكتابة قد استخدمت في التعازي والتهاني وقد سلفت في النماذج تهنئة ابن المقفع بمولودة وتعزيتة عن بنت، ثم عن ابن، وتهنئة أحمد بن

يوسف بن مولى د ، وتهنئة عمرو بن مسعدة عن المأمون صهره الحسن بن سهل بن مولى د أيضاً ، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خافان في يوم عيد ، وتهنئة النعماني بالقدوم من سفر ، وكذا تهنئة رشيد الدين الطواط وغيرهما بما جاء بعدها .
وباب التعزية والتهنئة من أحمل أبواب التراسل وأكثرها مقولاً لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها . ويتصل به ما يكتب إلى المكرويين بمرض أو غيره تصبيراً لهم وتغنياً لزواله عنهم ، كما كتب ابن المعتز سابقاً .
هـ - والكتابة قد استخدمت في الترف والتقرب عن طريق المدح والثناء ، كما فعل ابن العميد في كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به ، وكما كتب الصاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول
« بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته ، وإن كنت حيث تصرفت لأتقياً إلا به . وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزين بحضور مجلسه وتلقيح عقلي بحسن رأيه ، فلا شيء عندي آثر من قرب به وإن كنت في سعة من عيش وهبة الله جل ذكره لي به . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المصير إلى دار السلام لأحدث عهداً بالنعيم علي ، وأتهنأ بالنعمة التي أقرها لذي ، فعل - فكان جواب المأمون إليه - قربك إلى يابا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك ، فالزم مكانك واتبع قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيداً

٦ - والكتابة قد استخدمت في بيان وجه الرأي لمن طلبه مستشيراً

كما كتب ابن المهز آتفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع أن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وإن لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون في الثواب رد الجواب ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها نارا ، فكان من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانيت يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سعيا لو اذا وهربا ، ويبتغي في الأرض نفقا فرارا وفرقا » . ومما يتصل بهذا ما يصدر في كتب الترفع عما لا ينبغي أن يكون إلى ما يجب أن يكون ، كما تقدم في كتاب البديع إلى من هنأه بمرض الخوارزمي ، وكما كتب محمد بن يحيى وإلى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى إليه برجل ليأخذ ماله يقول « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله في أيامنا كاسدة والسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما في ديوانك ، فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الدائرة . وجنبنى وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا
وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لأعلينا ، واعلم أنها مدة
تنتهي وأيام تنقضي ، فاما ذكر جميل ، وإما خزي طويل »
٧ - والكتابة قد استخدمت في النصائح والوصايا وفي العظات أيضا

على النهج الذي أوضحناه فيها، وإن كثر استعمالها في الأوليين وكان في الأخرى قليلا . فمنها في الوصية ما كان يكتب به الخلفاء لأولياء عهودهم ، وذوو الاقدار لنابهي أبنائهم ، كما كتب المنصور لولي عهده المهدي ، و طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، ثم ما كان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قرباه ، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول : « أنت ولدي مادمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والدفتر أليفك والمحبرة حليفك . فان قصرت ولا إخالك فغيري خالك » . ومنها في النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذي مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وما كتب ابن المقفع في أدبه الصغير من شتيت النصيح والارشاد . أما العظة فمنها ما كان من سفیان الثوري إلى الرشيد إذ كتب يدعوهُ إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنئوه ، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلوات . فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه ، وقرأ ما فيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول : - بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفیان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان . أما بعد فاني قد كتبت اليك أعرفك أنني قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك وقليت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه ، وأنفذته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني ، حتى كتبت لي تشهدني على ذلك . أما إنني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدى الشهادة عليك

غدا بين يدي الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد ياهرون منرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جوابا ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيد القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظامون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويضربون من شربها ، ويزنون ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون يد السارق ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها الناس؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكهما إلا عندك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام إلى النار . كأنى بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك ، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية فاتق الله ياهرون في رعيتك ، واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته

وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد، فمنهم من تزود إذا نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام^(١)

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .
وهاهي ذى مصحوبة بما يتصل بها، وبما لا يتصل من سائر الأغراض التي لم يسبق لها في النماذج شيء

١ - الأخبار والاستخبار - كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب إبراهيم بن المهدي إلى صديق له يقول « كتابي إليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديق العزيز على إبطائي بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل هذا ، فإن السؤال كاشف ما سلف مصلح لما استؤنف »

٢ - الاستمتاع والتوصل - كما كتب ابن المقفع والصولي أنفا

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين: قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلت به بالحديد، وضيق عليه السجن فقال لهم « اتركونا يا عبيد الدنيا فالمغرور من غرغموه، والشقي من أهلكتموه، إن سفيان أمة وحده » ثم أبقى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفي

ومن أجهل ما وقع في هذا الباب ما كتب العتاني إلى أحد أصدقائه وهو :
« أما بعد أطال الله بقاءك وجهه يمتد بك إلى رضوانه والجنة ، فأنك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم ، تبهج النفوس بها وتستريح القلوب
اليها ، وكنا نعفيها من النجعة استئمانا لزهرتها وشفقة على خضرتها
وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف
اشتد علينا كابها وعاث قحطها ، وكذبنا غيومها وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا
صالح الإخوان فيها ، فاتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك
عظيم المقة لك والثقة بك ، مع علمي بأنك موضع الرائد وأنتك تغطي
عين الحاسد ، وأنتك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الورد ، والله يعلم
أنى ما أعدك إلا في حومة الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحميا من
إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ولم تظهر همته « فشاطره
ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ما كان في طلب المصاهرة : ولعل من
أوقع الرسائل فيه رسالة الصابي السابقة عن صديقه .

٣ - الاستنجاز - وقد تقدم للجاحظ نموذج منه ، وهو مثل
ما كتب العتاني قبله يقول « أما بعد فقد تركتني منتظرا لو عدك متنجزا
لرفدك ، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة ، والعذر الجليل
أحسن من المثل الطويل وقد قلت

بسطت لساني ثم أوثقت نصفه فنضف لساني بامتدادك مطلق
فان أنت لم تنجز عداني تركتني وباقي لسان الشكر باليأس موثق
وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكرم إلى المأمون « أنت يا أمير

المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، وتقابلتك بالأذكار، وأنت شاهدي على وعدك، لا تأمر بشيء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن نستولي علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده إحسان ولا يعجزه كرم، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرما وتزداد به نعماً، وتلقاه بالشكر الدائم»

٤ - الاعتذار - كما كتب الصولي سابقا يعتذر من تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته فامى عن قدمي، ويسعد برؤيته رسول قبل وصولي، ويرد مشرع الانس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق حجة

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره، وماني حب للحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ - الشكر - كما كتب الحسن بن وهب سابقا، وكما كتب للعتابي الى بعض الرؤساء « كتب اليك ونفسي دائمة القيام بشكرك ولسماني لهج بالثناء عليك، والغالب على ضميري لأئمة نفسي واستقلال جهدي في مكافأتك، وأنت أعزك الله في عز الغني عني، وأنا تحت ذل الفقافة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك، من هو عان في الضراعة إليك ». ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبدالله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده « ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيري، فاني جزيتها اخير وشكرت نعمتها على، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرابي الذي جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم الدين خير افانه أرانا على علاته أم حارث
أرانا ربيبات الحدور ولم نكن نراهن الا بانبعث الحوادث

٦ - الاستهداء - كما كتب ابن الاثير الموصلي فيما سبق يستهدى
صديقه العراقي تمرا ، وكما كتب ذو الكفایتين حفيد العميد يستهدى
شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدي ومولاي رقدة
من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع
أصحابي في سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات
نعش والسلام »

٧ - الاهداء - كما كتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون وقد أهدى
اليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب في
الصعداء ، ويجاوز الأطباء في الاستواء ، ويسبق في الحدور جرى الماء
فهو كما قال تأبطشرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تنتحي بمنخرق من شدة المتدارك
وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت اليه تفاحة ،
« إني لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك ، وتواتر ألطافهم عليك ، فكرت
في هدية تخف مئونتها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرهما ويكمل موقعها ، فلم
أجد ما يجتمع فيه هذا النعمت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح ، فأهديت
إليك منه واحدة في العدد كثيرة في التقرب ، وأحببت يا أمير المؤمنين
أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها . وأشرح لك لطيف
معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء في أوصافها ، حتى ترمقها

بعين الجلالة، وتلمحظها بمقلة البصيانة، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد
رضي الله عنه: أحسن الفاكهة التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة
الخرية، والشقرة لذهبية، وبياض الفضة ولون التبر، يلذ بها من الحواس العين
بدهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها»

٨ - الشوق .. كما تقدم للاجماحظ إلى قليب ولا بن العميد إلى الطبرى.
وكتب العتابي «لواءتصم شوقى إليك بمنى سلوكى عنى لم أبذل وجه الرغبة
إليك ولم أتجشم مرارة تماميك . ولكن استخففتنا صبايتنا فاحتملنا
قسوتك لعظيم قدر مودتك . وأنت أحق من اقتص لصالتنا من جفائه
ولشوقنا من إبطائه » . وكتب عبد الله بن العباس العلوى إلى ابراهيم بن
الهدى « ما أدري كيف أصنع ، أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتفى ، ثم يجدد
لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوعا من تجديد الحرقه بلوعة الفرقة »
فكتب إليه ابراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لآنى شكوت ذلك إليك
فهيجت مثله منك » . ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء
كما كتب اليديع إلى الامير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله
بقاء الأمير وبودى أن أكونه فاسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ،
لو بلغ الرزق فاهل لولا هفاه . وبعد فانى فى مفاتيحه فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ،
ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ، ومن رأى من السيف أثره
فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجعل خلقه . وما وراء ذلك
من تالذ أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فمعلوم تشهده الدفاتر والخبر
المتواتر ، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس
إدراكا ، والاذن أكثر استمساكا »

٩ - الاستزارة - كما سبق من الخوارزمي إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سمعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لأني أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ، ولأن نفسي لا تساوي نفسك فتقبل في فديتك ، وعلى كل حال جعلني الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلي المنزلة ، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعمت ، لاجتهدت أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك ، ويخنو على الرقة والتحنى أثناء جوائحك ، ولكن ما أمسيت وأصبحت ممتحننا به فيك ، منع كل بيان ونزع عن كل لسان ، والود أيها الصديق لم يشبه قذى ريبة ، ولم يختلط به ثاب معاب ، فلا ينبغي لمن كرمته أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته والذي أتمناه أيها الولي الحبيب محاسن أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدي وفتت كبدي ، فإن خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطا من نفسك اليه ، كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عليلا ، رسلك من الخير سبيلا ، يتوعر سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر ، فأليك أيها السيد المعتمد في الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بيني وبين ما نزعته اليه النفس ، مواصلا برا إن شاء الله ^(١) .

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعة في الضراعة والتزلف رسالة مثلها في ذلك وهي « تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ولا حافر تشيت ، وضمننا وإياك في أوثق حبال الأنس وأؤكد أسباب الآفة . وقفت على ما خلصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك وانطوى في ضميرك من

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأنس والمنادمة؛ كما كتب
إسحق بن ابراهيم الموصلي لبعض الكبراء «يومنا يوم لين الخواشي وطيء
النواحي، وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور
ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل». وكما كتب
الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اضطجح في يوم دجن لم
يمطر «أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر
وبعده كأنه قول كثير عزة:

وإن ونهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكم ترجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقبل اضمحلت

وما أصبحت أمنيته إلا في لقائك، فليت حجابا هتك بيني وبينك،
ورقعت هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتعيفه، وبعثت في
نشاطا حر كني للكتابة إليك، فرأيتك في إمطارى سرورا بسار خبرك
إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موفقا إن شاء الله^(١). وكتب

الشغف المقلق والهوى المضرع، ولعمري لو كشف لك عن معشار ما اشتمل
عليه مضمهر صدرى، لا يقنت أن الذى عندك إذا نسبته إلى ما عندى كالمثلاشي
الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا إلى كشف ما في الضمير. وأما طاعنى
لك وزماني إليك، فطاعة العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه ومالكه،
وأنا صائر إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد عافية وأتم عاقبة وأسعد نجم
جرى بألفة إن شاء الله تعالى»

(١) كانت إجابة ابن وهب له «وصل كتاب الأمير أيده الله وفي طاعم
ويدي عاملة، ولذا تأخر الجواب قليلا. وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم

الحسن بن سهل أيضا في مثل ذلك إلى صديق « نحن في مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد بان السماء تعلها ، فهي مشرقة بأشجارها حالية بنوارها. فأريك فينا لكون سوا في استمتاع بعضنا ببعض . » فكان الجواب « هذه صفة لو كانت في أقصى الأطراف لوجب انتجاعها وحث المطى في ابتغائها ، فكيف في موضع أنت تسكنه ، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك ، وطيب شمائلك وأنا الجواب . » وقد رقت المكاتبات في هذا الباب وما تقدمه حتى أصبحت غزلا منتورا لا يفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ - شكوى الدهر - كتب الصولي إلى بعض إخوانه « يا أخى أشكو إلى الله وإليك تحامل الأيام على ، وسوء أثر الدهر عندي ، وأنى معلق في حبال من لا يعرف موضعي ولا يحلو عنده موقعي . أطلب منه الخلاص فيزيدني كلفا ، وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا ، فالتواء ثواء مقيم ، والنية نية طاعن وبزمام الرأي مرتحل . ما أذهب إلى ناحية في الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبي وحسن الصبر . » وكتب ابن العميد في مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلي الله فداك دهرا خثونا غدورا ، وزمانا خدوفا غرورا ، لا يمنح ما تمنح إلا ريثما ينتزع ،

وإساءته ، وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضيائك ، وإن أمطر حكى جودك وسخائك ، وإن غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالي الآن عن نعمة من نعم الله عز وجل ، على أغنى بها آثار الزمان السيء عندي ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظي منه . »

ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعاشم ينقطع ويحلو ماؤه
جرعائهم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع
ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انتقاض . وكنا نلبسه
على ما شرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم
ونستثم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجيء محذوره
مهما تلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرف بلا زاج ، وتعلل بما نختلسه
من غفلاته ونسترقه من ساعاته . وقد استحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة
وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا وقرن بكل خلة
من المكروه خلالاته .

١١ الموازنة والمناقضة - فأما الموازنة فهي المفاضلة بين شيئين
بذكر محاسن كل ومقايجه أو منفعه ومضاره ، وقد راجت سوقها حتى
ألفت فيها كتب في العصرين الثالث والرابع كما سيأتى في تدوين الأدب
بعد . وأما المناقضة ، فهي أن يعتمد الكاتب إلى الشيء يكون ذا فضل
على غيره فيسلبه ماله من فضل ، ويثبت لهذا المفضول ما يجعله فاضلا ، كما
فعل سهل بن هرون في تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها .
« الزجاج مجلو نوري والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن
منه في كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرتفع في
السوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن
فاتك لمن صانه . وهو أيضا من مصايد ابليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال
الأحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضوء ولا يداخله الغمر ، ومتى غسل بالماء
وحده عاد جديدا ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبه وصناعته أعجب »

١٢ - التفكه والتندر - كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه
 برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابي مع من لا أعرفه وقد كنى فيه من
 لا أوجب حرمة، فإن قضيت حاجته لم أحمك، وإن رددته لم أذمك ».
 وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد
 مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير
 المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التمزقة عن
 التفكه الخفى، عمن عن التهنئة بالجليل السننى . فلا نقصك الله الزائد فى سرورك
 ولا حرمك أجز الذاهب من صغيرك » . وكتب البديع الى رجل ألع
 عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لا ندیم الجود بالذهب كندیمه بالأدب » .
 « عافاك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار ، سبيله
 إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدی
 وهما فؤادى ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالفؤاد ، وأما اليد فتولع بالجود ،
 لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم
 ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟
 والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من
 الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطبخ أن يطبخ لى من جيمية
 الشماخ لو نأفلم يفعل ، وبالقصا ب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل ، وأنشدت
 فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحمام مقطعات الحمام^(١)
 فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت
 ألفى ومائتى بيت فلم تغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج^(٢)

(١) شاعر تغلبى (٢) لحم يطبخ بالخل طعام فارسي

ما عديمتها عندي ، ولـكنها ليست تقع فما أصنع . فان كنت
تـحسب اختلافك إلى إفضالا على ، فراحتي في ألا تطرق راحتي ،
وفرجتي في ألا تجبي . ولعل من هذه الناحية ما يسكتب به في
المواطن التي لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى
شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة
وهذا أنا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من
عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن
الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع
قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهناك
الله الذي شرح للتقوى صدرك ووسع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من
التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب في
أحد أبويك وفي عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جده ، ما تجرأته
من أنف وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به
ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعالها المنتظر من ارتماضك لدفتها ،
فتستوفي بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة ، ووصل الله سيدي من الصبر
على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة
فرشها أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى
من نقمة : وما يوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنة . فأحكام الله تعالى
جده ، وتقدسست أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده
المتقين ما هو خير لهم في العاجلة ، وأبقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها
إليه وقدمها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كفوا لها والسلام .

١٣ - الذم والتمهيم - وهو باب حافل في الكتابة بكثير من أنواع المذام حفل الشعر به - كتب أحمد بن يوسف يهجو بني سعيد بن سلم « لولا أن الله ختم نبوته محمد وكتبه بالقرآن، أنزل فيكم نبي نعمة وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوى السفلى، ومساوئهم فضائح الأئمة، وألسنتهم معقولة بالغي، وأيديهم مغولة بالبخل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازبهم وإن بادوا
وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة « أما بعد فاني توسلت اليك في طلب نائلك بأسباب الامل وذرائع الحمد؛ فرارا من الفقر ورجاء للغي، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقربا مما عنه تباعدت. وقد قسمت اللأمة بيني وبينك لأنني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي، وأمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم ». وكتب ابراهيم بن المهدي « أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبيت شين القبيح. وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضررك، فكنت فيما كان منك ومنا، كما قال زهير بن أبي سلمى

وذى خطي في القول يحسب أنه مصيب فما يلهم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
وكتب بشر بن أبي كبار البلوي إلى ابراهيم بن عبد الله الحبيبي وإلى صنعاء لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحي فمنعه هشام بن يوسف الأبنأوى « أما بعد فان رأى الأمير أمتع الله به ألا يعلم هشام ما يريد من صلاتي فعل، فانه لم يردني وآلى قط بخير، ولم يفتح لي الأمير باب صلوة

فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده : ولا يرجو بها إلا
ثوابه : إلا عرض هشام من دونها فثقلها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب
لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله إنى
لكما لمن الناصحين ، ومدحني بما لم يسمع به من أخلاقى ، واثقة صنى فيما
لا يطمع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ،
ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من
ناحية الشفقة : وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة
أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فإذا الحاجب يزلقنى ببصره ،
وإذا الكاتب يسلقنى بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عني بجانبه : وإذا الوالى
ينظرني نظر المغشى عليه من الموت . فصارت وجوه النفع مردودة
وأبواب الطمع مسدودة : وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه
الرياح والهامة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح مأوها غورا
فلن أستطيع له طلبا : فأسأل الله الذى جعل لكل نبي عدوا من المجرمين
أن يكفيني شره ويصرف عني كيده فإنه يرانى هو وقبيله من حيث
لا أراهم والسلام »

١٤ - الوصف - وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه
كذلك جاء فى الكتابة ، وقد تقدم منه وصف ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة ،
وصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف المصاحب لمصحف ،
قرآنا وخطا . وهالك منه بعضا منوعا - كتب عبد الله بن طاهر وهو
بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه اليه بأقلام :
« أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبت على الاسم

ولزمت لزوم الرسم، فحلت محل الأنساب وجرت مجرى الألقاب، وجدنا
الأقلام القصصية أسرع في الكرواغد وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها
أملس في القراطيس وألين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها والتعاقب بها
ينبوا عن شظاياها، ونحن في بلاد قليلة القصب ردىء ما يوجد بها منه،
فأحببت أن أتقدم باختيار أقلام قصصية، وتتأنق في انتقائها قبلك، وطلبها
في منابتها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم، وأن تميم باختيارك
منها، الشديدة المحس، الصلبة المعض، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب
الضيقة الأجواف الرزينة الوزن، فانها أبقى في الكتابة وأبعد من الخفاء،
وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القضبان، اللطاف المنظر المقومات الأود
الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت وضم، الصافية القشور
الخفية الأبر، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنايب البعيدة ما بين الكعوب
الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء
أصولها برعوسها، المستكملة يابس القائمة على سوقها. قد تشرب الماء في
حائرها، وانتهت في النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام صلاحتها وإبان
ينعها، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى.
فاذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا ذراعا قطعا رقيقا تتحرز
معه أن تتشعب رعوسها وتنشق أطرافها. ثم عبات منها حزما فيما
يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحماتها في
حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثابا يتوانى فيها لقلة خطرها عند
من لا يعرف فضل جوهرها». وكتب الخوارزمي يصف رمدا أصابه:
«صادف ورود الكتاب رمدا في عيني حصرتني في الظلمة، وخبسني في

الغهم والنقمة ، وتركنى أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني ، كليل سلاح
البصر: قسير خطوط النظر ، قد ثكأت مصباح وجهي وعدمت بعضي
الذي هو أثر عندي من كل ، فالأبيض عندي أسود والقريب مني مبعده ،
قد خاط الوجع أجفاني ، وقبض عن التصرف بنائي ، ففراغى شغل ونهاري
ليل وطوال الحاظي قصار ، وأنا ضريرو إن عددت في البصر: وأمي وإن
كنت في جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة خطوة قلبي وبنائي ، وقامت
بين يدي ولساني . - وكتب القاضي الفاضل يصف حمام الرسائل -
تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة ، وتحمل
من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ،
تكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا ، وتركب الجو بحرا يصفق
فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهي
مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألقت الرياض فهي إليها دائمة
الرجع ، وقد سكنت النجوم فهي أنجم وأعدت في كمناتها فهي أسهم ،
وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى
أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقربها ، وجعلها
طيف خيال اليقظة الذي صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى
بتقريب العمود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهي
أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على
منابر الأغصان مقام الخطباء . - وكتب الموصلي يصف روضة -
« جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء ، وهي
ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ،

ففيها الشمس الذي يسبق غيره بقدمه ، ويقذف أيدي الجانبين بنجومه ،
فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ، ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة
من نضار ، وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان ، وقد شبه بسن العنبا
في الاسنان . وفيها التفاح الذي رق جلده وعظام قدمه وتورد دمه وطابت
أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ النعم
والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر .
وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة وأول
غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، يميل
بكف قاطفه ، ويفرى بالوصف لسان واصفه . وفيها الرمان الذي هو
طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لا نوى له
فيرمى نواه ولا يخرج المثلث والمرجان من فاكهة سواء ، وفيها التين
الذي أقسم الله به تنويعها بذكرك ، واستتر آدم عاينه السلام بورقه إذ
كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأعناق فما يرى بها من ميل
فهو نشوة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعام ونعم جسم ، وقيل هذا
إناء مليء شهيدا لا إناء مليء عاملا . وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه
وشكله ويشغل بلدة منظره عن لذة أكله وهو الذي فضل ذوات الافنان
يعرجونه ، ولا تمائل بينه وبين الخلاء « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق
الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود
من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ولم ألم
صاحبها على قوله « لن تبديد هذه أبدا » . هذا وقد ضربوا بالوصف في ناحية
المعنى كما ضربوا في ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة

القاضي يطلب إليه رجلاً يستعين به في أموره: «أما بعد فاني احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير، ذى عفة ونزاهة طعمه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في محسبه إن أوتن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان، تقعه الرزاة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعرض على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة وترشده السكته. وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام في أمورهم فمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لأثمة وأمارات العلم له شهادة، مضطلع بما استنمض مستقل بما حمل، وقد آثرتك بطالبه وحبوتك بارتياحه، ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك»^(١)

١٥ - البيعة بالخلافة: وولاية العهد، والعهود، والمنشورات. وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والأطناب. فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة. وكانت تملأ بالآيمان المخرجة على الوفاء لما فيها والاخلاص في الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة في ولاية العهد. وكلتاها كانت تتلى على الناس ويشهد عليهما أولو الحل والعقد،

(١) كان جواب ابن سماعة أن كتب إليه «إني عازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا في ارتباد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل والثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالأجابة فافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام»

ثم تسجل في الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا في التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكت والغدر فضمنوها أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلة وإعتاق الرقيق كذلك ، وعلقوها على الكعبة تحتمل نظر سدنهما مبالغة في الحرمة والاشهار، ومع هذا كله

كان يوجد الخنث بها في كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه. ففي العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمسك بالدين ورعاية للمصالح العام ، وتذكر البلاد التي تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق العهود على المولى أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به . وفي العهد بامارة الجيش كانت تعد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور ، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته في أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك . وفي العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة في القاضي من علم وأمانة وتقوى ونزاهة ، وتبين الأمور التي يجب أن يعنى بها من توزيع الموارث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس ، كما تطلب إليه الدقة في اختيار كاتبه وشهوده ، وفي مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة ، وفي تجنب الهوى الحائف أو المحابي ، وينتهي بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد . وهكذا كان التثمين في العهود الأخرى من دينوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان ، أو دينية كالعهد بامانة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج ، وغير ذلك مما كان في سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لإعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة في الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك في إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار.

وأمثلة هذه الأنواع الأربعة مستفيضة في كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة ، وفي كتب الأدب لرسوخها في بلاغة الاطناب ، وليس يتسع المقام للآتيان بنماذج منها لاسهابها فليرجع إليها فيما ذكرنا

١٦ - وأخيرا استخدمت الكتابة في إنشاء الرسائل المطولة لغير الإخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع ، وما إلى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ، ومما يشبهه في زماننا الحاضر ، ما قرؤه لولاة الأمور وكبار الكتاب في خطيرات المسائل بالصحف والمجلات . وليس من شك وقد نشأ ذلك أول ما نشأ في العصر العباسي على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى إليه مما قرأ في لغة فارس منه ، فعكس صورته على لغة العرب في كثير مما أنشأ ، وقد سبق التعريف في منشأته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما في السياسة ، وبالأدب الصغير وهو في الأخلاق ، وبالأدب الكبير وهو فيهما معا ، واختيرت نماذج منها جميعا . ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسم من موضوعات ، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة ، أولاها منفصلة الرقم في الحاسد والمحسود وسبق اختيار ثلث منها ، والعشر الباقيات متصلات الأرقام وهي على الترتيب ، في مناقب الترك وعامة

جند الخلافة، وفي نحر السودان على البيضان، وفي التبريع والتدوير، وفي تفضيل النطق على الصمت، وفي مدح التجار ودم عمل السلطان، وفي العشق والنساء، وفي الوكلاء، وفي استنجاز الوعد، وفي بيان مذاهب الشيعة، ثم في طبقات المغنين. ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدير في صناعة الكتابة، ورسالة سهل بن هرون في مدح البخل، ورسالة الصابي في الصيد، ورسالة الصاحب في الطب، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان إيدانا بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأديين الكبير والصغير لابن المقفع مثلاً، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها، بالمتسع لهذه الرسائل التي تفضلها سعة وطولا. وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباهه، وسائرهما معلوم المواطن في الكتب فليرجع إليها حيث هي.

وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفاً، كلمة في مكانة الكتابة ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال الى سائر الأقسام فنقول :
أدركت الدولة الأموية - وقد عظمت - نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الأَنْشاء، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة، كما كان من سالم على أيام هشام. ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد، فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم (بكم تنتظم للخلافة م - ١٥ أدب

محاسنها وتستقيم أمورها، وينصائحكم يصلح الله للخلق ساطعائهم، وتعمر
بلدانهم، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلامنكم . فوقعكم من الملوك
موقع أسمائهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم
التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون . « غير أن تلك الدولة قد
دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب إلى غيره . فلما جاءت
الدولة العباسية واستقامت الأمور لآل العباس السفاح لقب كاتبه
أبا سامة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب ،
بلقب الوزارة ، فكان أول وزير في الاسلام ، وثبت بذلك هذا اللقب
لـ كل من ولى أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد
نفوذهم ، وبلغ أقصى ما يمكن أن يباح في يحيى بن خالد وزير الرشيد ، لأنه
صاحب اليد عليه في بقاء العهد له ، ولأنه كان خاصته وملازمه قبل
خلافته ، ولأنه كان بمنزلة والده اذ ارتضع لبن زوجته على ابنه الفضل ،
ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض ، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر .
فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التي استمرت مرعية يتولاها وزير بنفسه
أو بكتاب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع
المنازل بعد الخلافة ، وأقيمت اليهم الأئنة في سياسة الدولة ، وأحس
الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم في النوازل وتركوهم يتصرفون
عنهم في الوعد والوعيد والنقض والابرام ، ونظر الناس إلى هذه المكانة
نظرة التقديس والاجلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول :
ولى فقر تضجى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجوح فيمنثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق

إذا حاولت اطفأ فناء مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق
وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مالا ينال بحمد المشرفيات
ونشأ من ذلك مانشأ من مزاحمة القلم السيف في تصريف الشئون
وحسم الامور ، فوجدت المفاخرات التي شبت بينهما نظما ونثرا .
قال علي بن العباس النوبختي مفضلا القلم :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لاشيء يغالبه مازال يتبع مايجرى به القلم
بذا قضى الله للأقلام مذبذبيت أن السيوف لها منذ أرهفت خدم
وقال أبو تمام مفضلا السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب
وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا أقتل بلاغرد
وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم
مراده والا فالى السيف معاده .

لهذا عني الخلفاء وذوو الأثر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة
العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما يلقى عليهم من أعباء الملك
وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون في اختياره للكتابة
كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول ، وفي الكتابة تسويد
له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سميت به الكتابة إلى منازل

الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت : وكان بذلك جده نفور . قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره « ليس هذا كيل الزيت ولا عد الجوز » فقال له « أبا التجارة تعيرني وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقد منى الله بالادب ، وأصارتني بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإما هو من كان شريفا فأتضع » . وهؤلاء آل سهل كانوا صنعا وتجارا فيهم صانع الحر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى الوزارة ، وصاهر المأمون الحسن منهم في ابنته بوران . ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها إليه يقول « قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المن منه أدام الله عزه في إخراج توقيعه بتزيين حالي في العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات ، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بتعرفته بالحال التي قربته منا وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا » . وهذا الصابي على صابئيته تولى ديوان الرسائل خلفاء بني العباس وملوك بني بويه ، وحين مات رثاه الشريف الرضي ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن صنعة وخمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر في الأدب والتفقه في كل ما يتصل به من علم ، حتى يكونوا كفاة لما يندبون له ، وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضي عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ،

ويؤثرون الفاضل ويرفعونه ، كما عنوا أن يجمعوا إلى دماء الخلق وكرم
السجايا رقة الطباع ولطف الخدمة ، حتى ضربت الأمثال بحمال خلقهم
وكمال علمهم . قال بعض آل المهلب لبنييه « تزيوا بنزى الكتاب فانهم جمعوا
أدب الملوك وتواضع السوق » وقال الشاعر يعصف رقة الخمر بأنها من
رقة الكتاب :-

وشمول كأنما اعتصروها من معاني شمائل الكتاب
وغير هذين في الناحية الخلقية كثير . أما الناحية العلمية فجماع ما قيل
عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته
لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الأَخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ،
فمطفت على أبي عبيدة ، فرأيت لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق
بالأيام ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك وغيرهما . »

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيء نفسه للكتابة
منذ أوائل العصر العباسي قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحق التي قدمها
إلى يحيى البرمكي ، رغبة في الاتصال بخدمته في هذه الصناعة ، واناخاتمون
بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال :

أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح
لى في النحو فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعالم بقول منور الافصاح

وظريف الحديث في كل فن واصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فيمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجي في المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخييل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بي الأمير أصلحه الله رماحا ثامت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذى السماح
لست بالضخم يا أميري ولا القز م ولا بالجحدر الدحاح^(١)
لحية جمدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح
إن دعاني الأمير عاين منى شمريا كالبلبل الصдах

٢ - التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع - ما أخذت منه
وما أخذ منها - في معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل
عليه بميقته أى مطرفته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا . وقالت
وقع القتب ظهر الراحلة إذا أثر فيه تأثيرا خفيفا ، فإذا ترك ذلك التأثير
دبرة أى قرحة ، ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء ، قالت ظهر موقع
تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع
المطر الارض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا يخالف بين ألوانها .

(١) الجحدر العظيم البطن ، والدحاح البطيء الخطو

وقالت وقعت الدواب ربضت، ووقعت الابل بركت، أى اطمأنت إلى الأرض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل، ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتمد نزوله. غير أن هذا مكان وذاك زمان . وقالت وقع الرامى إذا رمى من قريب فلم يخطئ، تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشئ إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق، ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطلقه عليه الآن من الامضاء .

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام همر بن الخطاب، رأينا رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها، وهذا معنى جديد، ولكنه يمت الى المعانى السابقة بالصلوات . فهو يحلو اللبس فى القصة ويمضيها، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تصريف ما رفع اليه، وهو يتحرى فى إثباته آخر الواقعة وموقعا معيننا من حاشيتها، وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه، وهو نتيجة تقدير وتفكير، ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص عامله على العراق يستأذنه فى بناء دار، فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكتنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمر بن العاص عامله على مصر فى كتاب « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدى به فى ذلك الخليفةتان بعده .

وقع عثمان رحمه الله في شكاة قوم من عامله مروان بن الحكم « فان
عصوك فقل إني برىء مما تعملون » ووقع في قصة رجل شكا اليه فقرا
« قد أمرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للسرف » . ووقع
على كرم الله وجهه في كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد
الغلام » ووقع في كتاب لسلمان الفارسي يسأله فيه كيف يحاسب الناس
يوم القيامة « يحاسبون كما برزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان
يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن
عبد الله بن العباس يطعن في خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في
الجاهلية في مسالاة واحد، وذلك حالف لا يحله سوء رأيك » وكتب اليه
عبد الله بن عامر يعاتبه فوقع « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت
حبيب في الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا في
الطائف فوقع « عش رجبا تر عجبنا » وكتب اليه ربيعة بن عسل
اليربوعي يسأله أن يعينه باثني عشر ألف جذع في بناء داره بالبصرة
فوقع « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » . ووقع يزيد ابنه إلى
عبد الرحمن بن زياد عاماه على خراسان « القرابة واشجة والأفعال
متباينة، فنخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب
يخبره بسوء طاعة أهل العراق، ويستأذنه في قتل أشرافهم « إن من
يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون »
ووقع في ذيل كتاب من ابن الأشعث وهو ثائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا فينوى من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لاجمعن المال جمع من يعيش أبدا ، ولا أفرقنه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتتنقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هدده بالخلع:

زعم الفرزدق أن سيمقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب
اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ما ترضى
لنفسك ، وخذ بحراهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل
فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هدام الله
فبهدام اقتده » وكتب اليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « حصنها
بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاه الصدقات فعدل وكان
دميا « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . ووقع يزيد
ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « ومسيعلم الذين ظلموا
أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره
بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا ، وحل
بك النكال إن كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكاه
إليه الحاجة وكثرة العيال ، وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال
المسلمين سهم ، ولك بحرمتك منامثلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لمروان
ابن محمد إذ تلاكأ فى بيعته « إني أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى ، فإذا

أما ك كتابي فاعتمد على أيهما شئت . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الأمر مضطرب وأنت نائم وأنا ساھر » .
ولقد كان ولاية بنى أمية يحاكون خلفاءهم في التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع . وقع زياد بن أبيه في رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفي رقعة شاكي حاجة « لك في مال الله نصيب أنت آخذه » وفي رقعة متظلم « الحق يسعك » وفي رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعي » وفي رقعة رجل شكى عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومخاربة الترك « لا تخاطر بالاسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فانه أمنع من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلي خلفاء بنى أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمنها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع المنصور في رقعة قوم تظلموا من عاماهم « لا ينال عبيد الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاماهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأ نصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر

وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكريك من الفساد يعطك النيل
 القياد » ولعامله على حصص وقد أخطأ كاتبه في كتاب « استبدل بكاتبك
 والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن علي « لا تجعل للأيام في وفيك
 نصيبا من حوادثها » ولرجل شكا عيلة (سل الله من رزقه) ولرجل شكا
 ديننا « إن كان دينك في مرضاة الله قضاءه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه
 « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له
 من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند
 شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذمو ما مدحورا فلو عدلت
 لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » . ووقع المهدي لعامل أرمينية وقد شكا
 إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
 الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار (خذهم بالعدل
 في المكيال والميزان) وفي قصة رجل حبس في دم « ولكم في القصص
 حياة يا أولى الألباب » وفي قصة آخر من بطانته يطلب صلة أبطأت
 « ليت إسرا عنا إليك يقوم بابطائنا عنك » ولشاعر أسرف في مديحه
 « أسرفت في مديحك فقصرنا في حبائك » . ووقع وزيره أبو عبيد الله
 لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول - والنفسه ولعه بحب العاجل -
 « لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماما وللهمى رباطا ، موكل
 بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق
 يعقب صلحا وظفرا ، والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكي عليه
 في ذلك الفضل وله حق الأبوّة من قبل : عهد إليه بما كان لا يتركه الخلفاء

لتغير أنفسهم فشاركه في التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى منصب ووجدت في الكتابة خطة جديدة يقول في التعريف بها ابن خلدون « ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه، أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فاما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة » وقد صدر عن الرشيد ويحيى وكان في البلاغة على أرفع ما تكون، توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما كان . وقع لعامله بخراسان « داو جرحك لا يتسع » وفي قصة محبوبس « من لجأ إلى الله نجا » وفي قصة متظلم « لا تجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفي قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك موضعه فتنكب سيرته » وفي رقعة شيخ مدعى إليه بنميمة « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أردت بها النصيح ففسر انك فيها أكثر من الربح، وأنا لا أسمع في محظور ولا أسمع قولة مهتوك في مستور، ولولا أنك في خفارة شيدك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك » ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر أخيه وترك له كل شيء يتصرف فيه كما يشاء، تولى جعفر التوقيع بنفسه بين يدي الرشيد. فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها . حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون . وقع لعامل أكثر التظلم منه « قد أكثر شاكوك وقل شاكروك، فاما عدات واما اعتزلات » ولعامل مثله

ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »
ولعامل آخر « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ولعامل مصر
في رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب في اصطناعه »
ولقوم تظاهروا « عين الخليفة تكوؤكم ونظره يعمكم » ولرجل اعتذر
من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنتين »
وفي قصة مجبوس يطالب العفو « العدل أو ثقه والتوبة تطلقه » وفي
قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » وفي قصة مستمنح وصله مرارا
« دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » وفي كتاب رجل قرأه فاستحسن
خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منشورها وتفصل فيه شذورها » .
ومن توقيعات أخيه الفضل في قصة متعدد « بش الزاد إلى المعاد
التعدي على العباد » . ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفرا
وحبسه أباه . وقع في قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته العصية »
ورفع إليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم
ذنبك أمت خواطر العفو عنك » ولما كتب إليه وقد أحس بالموت
يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكم
العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكم الذي رضيته في
الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا
يصرف قضاؤه » .

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل
والحسن ابنا سهل . فن توقيعات المأمون لأخيه في قصة متظلم منه
« فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفي

قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفي قصة متظلم من حميد الطوسي « يا أبا غانم لا تغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده في الحق سيان » ولما كتب إليه عمره ابراهيم - إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك - كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله » . وكتب إليه عامل الرقة يصف خروج الاعراب بسنجار وعبثهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا في يد الحذر
سيصيح القوم من سيفي وضاربه مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر
ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار
التهابا أسرعها خمودا فتأن في أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق فوق »
وإلى رجل شكا إليه الدين « الدين سوء يهيمض الأعناق وقد أمرنا
بقضائه » وفي رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب
الله أحق أن يتبع » وفي قصة متظلم « كفى بالله المظالم ناصرا » وفي قصة
قاطع طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو
ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب
عظيم » ووقع الحسن بن سهل في قصة قوم تظالموا من واليهم « الحق
أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه
على ابن عبيدة الرياحي ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث
إليه رقعة يشكو الأبطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج إلى ثلاث

خلال : عقل وصبر ومال .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسي الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله . ومنها يرى أن التوقيع مبني على إبداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أو حكمة متوارثة ، فإن تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف . كما لازم العصور التي ساد فيها الإيجاز الاطناب وآخرها العصر العباسي المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبدائة حاضرة فيمن يتولونه وفي كثير ممن كان يكتب به اليهم . قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة - يعنى خطة التوقيع - لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروعة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر اليه في الترسييل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اهـ

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر في التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسناتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا ، فإن لهم في ذلك الآيات البيّنات ولكننا لانحليهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الإيجاز إلى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون . رفع الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوق

عليها (فيك خلعتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق يديك
بما ملكك وأما الحياء فهو الذي حملك على ذكر بعض دينك وقد
أمرنا لك بضعف ما ذكرت فإن قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك
على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزد في بسط يدك فإن خزانة الله مفتوحة
ويده بالخير مبسوطة) . وكتب إليه أحمد بن يوسف يستجدي لطلاب
الصلوات وقد كثروا على بابهِ فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب
الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر

يسقط الطير حيث ياتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من بيابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل
قدر استحقاقه ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير
الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا حر كالصاق به طوق الهوان

ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان)

وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع
على كتابه « مستتم الصنيعة : من عدل زائغها وأقام أودها : صيانة المعروفه
ونصرة لأبيه ، فإن أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول
الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تتميم الصنيعة أشد من
ابتدائها » . ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة طامل عنده
بسعاية فوق عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية
دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيح وأخبر به كهن قبله وأجازه
فاطرد هذا الساعي عن عملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن في سعائته

كاذبا لكان في صدقه لئلا آثما إذ لم يحفظ الحرمه ولم يستر العورة .
ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الإيجاز ،
وتولى شئون الدولة في العصر الثاني من لا يفهمون البلاغة من الخدم
الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم في التوقيعات وإنما بقيت خطة
صاحبها ، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل ، وصارت بمنزلة
ما نعرفه الآن بالتأشيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها
لعدم غنائها في تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك في نظر
واضعه وأمام من يبنى الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من
يبحث به إليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الإيجاز إذ ذاك كما هي الحال
في الإشارة الآن .

وقد استمر التوقيع في العصر الثالث - على رقي الكتابة فيه -
فاقدا روعة البلاغة بلاغة الإيجاز ، فهبطت منزلته وتناساه الناس إذ
لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال
ما كان له من حسن وقع في الصدور ورفعة قدر في النفوس .
على أنه قد وجد من كبار الكتاب في هذا العصر من جهد نفسه في التوقيع
فكان له منه مالا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء صاحب
ابن عباد وهذا شيء مما خلف فيه . وقع في رقعة استحسنها « أفسح
هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أثار فيها على بعض مآثوره
من معان وألفاظ فوق عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع في كتاب
لبعض مخالف فيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »
وكتب رجل يخبر أن أحدا من ينطوى له على غير جميل يدخل داره

في غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هذه خان
يدخلها من وفي ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة بخطب فيها عملاً
فوقع عليها « التصرف لا يلتبس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه
وإلا صرفناه » ووقع إلى أبي محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضباً ثم
كتب إليه يستأذن معاوداً « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك
سنين » . أما في العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء
العجمة واستحكامها ، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الإيجاز الكتابي إلا
ما خرج بالإيجاز عن وضعه الاصيل إلى الرمز المشير الذي بدأ يظهر
من أواخر العصر الثالث قبله . وإليك في هذا مثلين : بعث السلطان محمود
الغزنوي في أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب
إلى الخليفة ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على النقود ، فامتنع الخليفة
فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على
ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتاباً ليس فيه إلا البسملة
وبعدها ألف فلام فيم ثم الصلاة على النبي والحمد لله . فلما فتحه تحير هو
وأهل مجلسه في فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القهستاني من كبار العلماء
فسئل فيه فقال : إنكم بعثتم تهديدون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا
الكتاب وفيه « ألف ولام وميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف
فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وعاد مطيعاً .
وحدث في أواسط القرن الخامس أن خاف سيد الملك صاحب قلعة
شيرز بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك
بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يحتال في

استقدمه ليفتك به، وأوعز إلى كاتبه أبي النصر محمد بن الحسين أن يكتب إليه في ذلك وكان له صديقاً فكتب كما أمر، ولكن حين بلغ قوله « إن شاء الله تعالى » شدد النون وفتحها، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطناً « إني أرى في الكتاب ما لا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملة « أنا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها، فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد، إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما قد يقال، لأن الإيجاز من مميزات العربية، وسائر الساميات عن الآريات، كما هو ظاهر في أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم، ولأن عمر حينما بدأ التوقيع لم تكن الفارسية معروفة في الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة، إنما هي نوع من أنواع التفكير دفع إليه ملك العرب الجديد، في أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الإيجاز، فأخذ ينمو شيئاً فشيئاً أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار، ثم استبحر الملك أول العهد العباسي وبقيت بلاغة الإيجاز، فكان له ما كان حتى إذا ما ضعفت تقلص مع بقاء الفارسية ضاربة الجران .

٣- القصص

نشأ الإنسان الأول محوطاً بالوحوش التي تناصبه العداء صباح مساء، وبنوا ميس الطبيعة التي تنكي به وهو بجهل ما لها من أسرار، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة لخياله أن يتصور الخوف في كل شيء، ولعقله أن يفكر بقدر استعدادة إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه، وقد سبغ به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها، وهداه عقله أن يتملقها ويتقرب اليها فكان من ذلك الدين الذي يتحقق بين معبود مخوف مرجو، وعابد خائف راج، ولعل مما قوى في نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقة في نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا في هذا العالم المنظور، وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذي نهمه في الخوف والرجاء كانت النواة لما جدد بعد من قصص وروايات. غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو في كل البيئات سواء، فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضواحي الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع، وحيث تكون منبسطة الأرض سافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال، وكلما قوى الخوف بالإنسان جدد في التأليه وأكثر من المعبودات، وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته. ومن ثم كانت الحالة الأولى ممثلة قديماً في مثل بلاد اليونان، وكانت الثانية واضحة في سكان البوادي كالعرب الجاهليين. وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ما كان لديهم من تعدد الديانات

لأننا نعني بالتعدد أن يكون في معتقدات الشخص الواحد كما هي الحال في الأمة التي ذكرنا، لا أن يكون في مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب في القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الأمم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التي هي الأساس . وإذ كان تنازع البقاء في القديم ممثلاً أولاً بين الإنسان وغير الإنسان، وممثلاً ثانياً في الحروب التي كانت لا ينقطع لها مدد بين الجماعات، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع، وجاءت القصص القديمة في تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار، ويتخيل فيها المهزم بطلا منتظراً يكون على يديه الخلاص . وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص في نيل الأمراء وما لهم على العامة من سطوة وإفضال، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر ما يشينهم من فضائح ومخاز . ولم يكن أولئك القصاصون بالواقفين عند الحقائق التي كانت تبني القصة عليها أول وضعها، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها، وقد ساعدتهم على هذا الوضع والاختلاق في القصص الموضعية بعد الهوة بين طبقتي الأمة إلى ما يشبه الانعزال، وفي غير الموضعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعاً أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكامه سوء حال المواصلات وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدي هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة في الحروب، وسير

الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهرين في القصص القديم^(١).

جاء الاسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التي ذكرنا ، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الأول ، واطراد هذا الاحتكاك في العهد الأموي ، استمروا بعيدين عن أن يكون لهم قصص في العصرين المذكورين على النهج الذي أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بأداب غيرهم اعتقاداً منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا في الناحية الأدبية إلى القمة ، وأن الأمم الأخرى في الخضم . على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الاسلام ، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد الجاهلي ، وتدوين القصة عندهم في حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم .

غير أن دخول كثير من الفرس الاسلام ، وحثهم العربية والفارسية معا حبب إليهم أول العصر العباسي أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه في القصة الفارسية من جمال ، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كليله ودمنة المنقول في القرن الثاني وتلته كتب كثيرة

(١) من أشهر الملاحم القديمة الألياذة والأوديسة لهوميروس شاعر الاغريق ، والأنيادلفرجيل شاعر الرومان . فالألياذة قصة حرب طروادة التي دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان . والأوديسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو طائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان ، أما الأنياد فقد نظمها فرجيل تمجيذا لأسرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان .

أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة في القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا في وضع القصص بعد نشاطهم في ترجمتها فكانت لهم في كلا النوعين آثار كما سترى في هذا البيان .

١ - القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب في القصص المنقولة في القرن الثاني كتاب كليلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة^(١)، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشليم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر، في صورة أقاصيص على السنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج اليه الملوك في سياساتهم، والناس في معاملاتهم، وذلك في خمسة عشر بابا هي :

(١) باب الأسد والثور، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة، وفيه قصة الواشى الماهر المحتال وكيف ينتهى أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب البوم والغربان، وفيه قصة العدو الذى لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر نضرعا وملقا (٥) باب القرد والغيل^(٢)، وفيه قصة الرجل الذى يطلب الحاجة، فاذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس، وفيه قصة الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما فى باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخمها .
(٢) الغيل هو السلحفاة الذكور

في العواقب (٧) باب الجرذ والسمنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه فيلتمس النجاة بموالة بعضهم ويفي له (٨) باب ابن الملك والطائر فنزة^(١) وفيه قصة أهل التراث الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب الأسد والشعير^(٢) الناسك ، وفيه قصة الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إبلاذ وبيلاذ وإيراخت^(٣) ، وفيه ذكر الأشياء التي يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبوة والأسوار^(٤) والشعير ، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به (١٢) باب الناسك والضيف . وفيه مثل الرجل الذي يدع ما يشاكله ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ ، وفيه مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك وأصحابه ، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير ، والعاقل يقع في الضر (١٥) باب الحمامة والشعير ومالك الحزين^(٥) وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمي بمكانته كسرى أنوشروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانة كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له في باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والثور فعملها . ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود ابن سحوان في باب ذكر فيه السبب الذي من أجله وضع بيد الكتاب

(١) اسم بيغاء (٢) ابن آوى (٣) أسماء الوزير فلك فلكة (٤) بكسر

الهمزة وفتحها الجيد الرمي بالسهم (٥) الطائر المعروف بأبي قردان .

لدى بئسليم، وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه إلى بلاد الهند لترجمته. وبعد نحو مائتي سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه في باب دعاه باب عرض الكتاب وجعله بين ما كتب بزرجمهر وما كتب بهنود، فكانت الأبواب الزائدة على الأبواب الهندية أربعة، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر باباً، ثم فقد الأصولان الهندى والفارسى ولم يبق غير الأصل العربى الذى طبع مراراً منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، ومن هذا الأصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديماً وحديثاً^(١) وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة فى عالم القصص الحيوانى، وفتح أمام الكتاب مجالاً للخيالات شرقاً وغرباً، ولذلك غنى الناس به

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذى تنطق به النسخة العربية المتداولة فى مصر الآن. ويرى فقيده التاريخ والأدب « جورجى زيدان » فى كتابه آداب اللغة العربية، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنتان فى النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس، وباب مالك الحزين والبطّة، من وضع ابن المقفع، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب الحمامة والشعلب ومالك الحزين، وكذا أول البابين المنسوبين إلى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب، وعلى رأيه تكون الأبواب الهندية اثني عشر، والفارسية ثلاثة، والعربية ستة، ولكنه لم يذكر مستنده فى هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الأصولين الهندى والفارسى، كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الناقصان.

عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد
اللاحق ليحيى البرمكي وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمهم لهم
أيضا ، ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه
بشر بن المعتمد ، وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من
نظم أبان ^(١) ثم نظمه أبو يعلى محمد العباسي المتوفى سنة ٥٠٩ للمعروف بابن
الهبارية في كتاب سماه نتائج الفطنة في نظم كيلة ودمنة . كما نظمه
القاضي الأسعد بن ممتاى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ لصلاح الدين
الأيوبى ، وكلاهما موجود . وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله
نظما ونثرا . فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد
رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن ديس أمير الحلة ^(٢) وكتاب درر

(١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذى يدعى كيلة دمنه
فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
ومنها فى معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما ، أو مع
النسك متعبدا ، كالقيل يكون وعشيا أو مركبا للموك

وقيل أيضا إنه قد ينبغى للرجل الفاضل فيما ينبغى
ألا يرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع النسك
كالقيل لا يصلح الأمر كبا لملك أو راعيا مسييا
(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال فى أسلوب

رقيق حسن الانسجام وأوله :

الحمد لله الذى حبانى بالأصغرين القلب واللسان

الحكم في أمثال الهندود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن في القرن السابع.
وثالث لجلال الدين النقاش في القرن التاسع. ومن المنشورة كتاب ثعلبة وعفرة
لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون^(١). وسلاوان المطامع في عدوان
الأتباع لأبي عبد الله محمد القرشي المعروف بابن ظفر في القرن السادس.
وثالث لأحمد بن محمد الحنفي المعروف بابن عربشاه في القرن التاسع.
ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومها الستة التي قلنا بوجود بعضها
إلى الآن مطبوعاً أو مخطوطاً لم تقو على معارضة الكتاب، فقد صرعا جميعاً
كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال
الأهوازي ليحيى بن خالد في خلافة المهدي فبادت مع ما باد.

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال
الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التي تنسجم معها في
هذا الخيال، قد اشتمل في ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته
ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال في السياسة والاجتماع،
وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور،
وعلى تصوير النظم في الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد،
وعلى وصف الطبائع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء ما يجب عليكم
من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم. فان تقديم النافلة مع
الابطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر
بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس في نفع تحمد به، عوض من فساد المروءة
ولزوم النقيصة »

والحشرات، وما يملق بأحوال معيشتها وحياتها، وكل ذلك في ضروب
محكمة من التعبيرات المستوفية شرائط البلاغة فيما يتوخاه. ولولا
أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل
تلك الأشياء الكثير من الأمثال. هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع
في أسباب وضعه على السنة الحيوان، أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث
كما يلائم الكبار فظاهره هو ممتع وقصص لذيذ، وباطنه حكمة مقنعة
وعظة بالغة، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وعمر هذه
القرون العديدة متلا عالما وأستاذًا مرييا للشرق والغرب على السواء.
وكما مرت الأيام ازداد جدة وزاده الناس إقبالا ومحبة.

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذي عرفته العرب عن القصص في
القرن الثالث، فهو مجموعة قصص تقع في أربع مجلدات تبلغ صفحاتها
نحو ألفي صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولا ثم وردت في ثناياها
مئات القصص على سبيل الاستطراد، وتعزى هذه القصص على ما يزعمون
في أصلها إلى قاصة تدعى شهرزاد كانت بنتا لوزير ملك من ملوك
ساسان خائنه زوجه، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليلة الأولى من
دخوله بها، وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجه
منه لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل، وفي ليلة
بنائه بها بدأت له في قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها، وقطعت
الحديث عند نقطة يشتاق السامع إلى ما بعدها. وفي الليلة الثانية استأنفت
الحديث ثم قطعت كما قطعت في الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه
ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها. فاستشفعت إليه في الليلة الأولى

بعد الألف أن يقيمها من أجل أبنائها وأطلعتته على ما كانت تبني من وراء
هذه القصص، فأكبر عقلها وقبل رجاءها وأقام معها في حبور ووفاق
والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان
من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتماً أن هذه
القصص كما تتناول قصصاً فارسية تتناول معها قصصاً هندية وأخرى
صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الإسلام لا يمكن عقلاً أن
يكون من قصصها الأصلية شيء وقع بعده في جهة ما. ومن ثم يحكم
بداهة أن جميع القصص التي تناولت فترة من تاريخ العباسيين
ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر، دخيلة على الكتاب
وموضوعة بمعرفة العرب في هذه العهود. هذا وقد كان الأصل الفارسي
يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة، فلما ترجمه العرب في
القرن الرابع دعوه ألف ليلة وليلة على ما جاء في سبب وضعه من أن
الليالي كانت ألفاً وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو أكثر أو جزء من
خرافة غير عربية حتماً، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من
نصفه لم يغيروا من وضعه هذا، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفاً وجعلوا
حكاياتهم المزیدة في ثنائياتك الليالي. غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم
حتماً أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها، فإن هناك
ليالي كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لائنها
عربية خالصة، كما لا يتفق أن تكون الليالي المحكي فيها أصلاً أقل من ألف
لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحاً. وقد استمرت هذه
الزيادة وهذا التحوير في الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجري

حيث دولة المالك بمصر، وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مأخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الأولى فارسية بما فيها من دنخيل هندي وصيني، وهى تصور عقليات هذه الأمم الثلاث واتساع الخيال فيها، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماء الكبيرة الحجم المختلفة الأشكال، والأودية المملوءة بالماس، والأفاعى وطير الرخ الذى يشبع فرخه عشرات الناس، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية فى بغداد، بعيدة عن ذلك الخيال القديم، وهى تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجواري والقيان وأحوال الاجتماع إذذاك، ويتخلل ذلك قصص لأبطال العرب فى الفضائل كالجود والحلم والوفاء، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر فى العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية، إسلامية أو إسرائيلية . فالإسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ما تحسه نفسه من أثر الحوادث، وهى على ما فيها أحيانا من إغراب يستهوى القارىء إليها، بعيدة عن الخيال الصرف المجسم فى القصص الفارسية، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والخط، ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن، ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصرى من الفكاهة العذبة

والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية في مصريتها لأن أغلب كتابيها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالنزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان ، وسحر هاروت وماروت ، ونحو ذلك من الاساطير الاسرائيلية المليء بها تاريخ بني اسرائيل . ولها تين الناحيتين في الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حد ما ، وأسلوبه في مجموعه مقبول ، غير أنه أكثر قبولا في القسم الفارسي والعربي لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثاني في بغداد كان خيرا منها في مصر حيث وضع القسم الأخير ، ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الاولى إليه من ناحية القصص والاساطير ، وقد طبع مرارا ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما للمعلم الاستاذ على طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة كثيرا ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقي تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات ^(١)

ب - القصص الموضوعة

كانت ترجمة ألف ليلة وليلة بعد كليلة ودمنة فاتحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بمالا يتسع فيه الخيال

(١) فما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبريز ، والكارمانج في سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ونرسي . وما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجوداسف ، وأدب الهند .

كقصص ابن المقفع في كتابه هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ في بعض كتبه وأخصم البخلاء ، وبدأت تشارك الفرس في مثل ما وضعوا بما زادت في ذلك الكتاب ثم طفت تنشئ على غرار كتابه في القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلاً فكان مما قال : « وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات ما تحلى بنفسه ، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربع مائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام محتوي على خمسين ورقة ، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسماء والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم » اهـ وهذا الكتاب الذي تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف في القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضاً ^(١) على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا في محاكاة الفرس بعيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفوا اليه يبحثون عن مواطن تصالح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهم فاهتدوا إلى موطنين عظيمين ،

(١) مثل كتاب حوشب الأسدي وكتاب جحا ونوادر أبي ضمضم

ونوادر ابن الموصلي . وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

أحدها حماسى جاهلى، والثانى غرامى إسلامى، فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الأول، فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسّعوا أخبارها وبالغوا فيها وضمّوا إليها كثيراً من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالتأثر والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الأخبار لتوثيقها إلى مشهورى الرواة كأبى عبيدة والأصمعى وغيرهما، ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية: حتى انتهى إلى أن صار قصصاً تتلى فى المنازل والأندية للأسمر والتسليم: كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان. غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملاً ناضجاً .

فمن الأولى، قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر ابن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سمّاه الجهمرة، وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم، ويوجد مخطوطاً به دار الكتب المصرية، وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهمل وكليب، ذو تاريخ فيه حماسة ونفخ، وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل فى خمس حروب، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكرى للفضيل بن عمران الطائى، والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها، والثالثة بين ربيعة والفرس لأسرهم ليلي العفيفة، والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيراً كان عنده منهم، والخامسة حرب البسوس المعروفة، وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية: قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية

التي يخالطها الحب والغرام. بل الممثلة لآداب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم. والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن اسماعيل، وكان من المتصلين لفضله بالعزير بالله الفاطمي في القرن الرابع، وحدث أن لهج الناس برغبة في قصر العزيز، فساءه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن رغبة القصر وكان واسع الرواية في تاريخ العرب وأيامهم عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم. وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق في حروب لبيعة أهمها البسوس، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنتر في حرب تفوقها لقيس هي حرب داحس والغبراء فأخذ في كتابتها، ولكي يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الرغبة أخرجهما في أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءاً، وتعهد أن يقطع الكلام في آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتمق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهرزاد في لياليها، فتمكن بذلك من شغل الناس بها في أسفارهم على أيامه، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قدأودعها من أخبار العرب وأشعارها في النواحي التي ذكرنا ما لم يأت مجموعا في غيرها، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدها وقد طبعت مرارا وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم. وهناك قصص غير هاتين. (١)

(١) من القصص الموضوعة في هذا العصر أيضا: قصة بكر وتغلب ابني وائل في أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق: وقصة شيبان مع كسرى أنوشروان المنسوبة إلى بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعنتر فأنهما

وأما عن الثاني، فقد عمدوا إلى الهوى العذري الذي ذاع أمره
بموادى الحجاز أيام الامويين. إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث- المدينة
ومكة والطائف- على ما فُصِّلناه بكتابنا الثاني عن الغزل في العهد الاموي،
فأروا أبطاله يمعنون في العفة وراء إمامهم جميل، كلما معن رجال الاباحى
وراء إمامهم عمر في الجرى وراء النساء، وراعهما ما لا أولئك الأبطال
من شجاعة في مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب،
وشاهدوا في هذا الميدان ما لم يشاهدوا في ميدان الحرب، فوضعوا فيه
قصصا تمثل عاطفة الحب في أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى
زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه لملكه، وأقيمت العقبات في طريق
زواجه من يهوى، وطال عليه الزمن في هذا الألم ثم انتهى الامر بالتفريق
الدائم مصحوبا بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره. وقد وجد قصاصو
هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة في سير جميل بن عبد الله بن معمر
عاشق بثينة، وقيس بن ذريح عاشق لبنى، وقيس بن الملوح عاشق ليلى
المعروف بالجنون - والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما
دخل سيرتيهما من مغالاة. أما المجنون فالرواية في أنه شخص حقيقى أو
خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان. فكان أن وضعوا لكل
منهم قصة تمثل الحب الباكى أتم تمثيل. ولم يعد الحب اللاتى قصاصين
يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة
لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن.

المذكور وتلتها مئيلات . ثم كان أن ألفت قصص في مغرمات النساء
لتقابل القصص الموضوعة لمغرمي الرجال . بل ألفت قصص الغرام بين
الانس والجن كان الحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن
هؤلاء أخرى ^(١)

أما وقد ذكرنا مجملين ما ينبغي أن يقال عن القصة العربية في العصر
العباسي منقولة وموضوعة فان عايننا أن نبين كذلك ما يراد بالقصة في
هذه الايام لنحاكم إليه ما ذكرنا فنعلم الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن .
يراد بالقصة في العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن
كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة في التاريخ أو الادب أو الاخلاق
أو الاجتماع أو غيرها تصويرا ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص
وتفكيره الناشئ عن هذا الشعور والوجه الذي يتجه إليه رأيه على
حسب ماسعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته في هذا التصوير تمثلا
يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب ، لأن هذه الاشياء التي ذكرنا
واحدة في ذاتها ، ولكن الذي يختلف إنما هو نظر الناس اليها وكيفية
تصويرها ، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين
التصويرات ، ولبست تلك الاشياء أثوابا تبعتها عن مرآها الثابت
الأصيل إلى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا
ما يطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أي حكاية أو خرافة وما نطلق

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة

كأبي العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانة وقرنفل ، وغيرها مما
ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحا للتمثيل على المسارح فتراه يعتمد فيه الاكثار من الأشخاص المختلفين في الأخلاق والصفات، ويجعلهم يتحدثون في حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور، مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطي عليها تلك الشخصيات، ومع المفاجأة بالعقد التي تعرض متطلباته الحل والمهارة في إيراد الحلول. وهذا ما يسميه الغربيون باسم « درام » أى قصة تشخيصية ونسمية نحن عرفنا باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلاحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص، التشخيص^(١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها، وهى شروط لو دققنا فى طبيعتها على ما ذكرنا للعرب عن القصص فى العصر العباسى استعصى علينا التطبيق؛ لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصى، أو هى مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد، أو هى مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا فى التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت فى العصر العباسى مثالا للقصة فى عموم إطلاقها وشبه مثل لها فى الرواى منها. وإنما جعلنا ما خلفت فى هذا شبه مثل لامثالا للضعف البادى فيه عن نظيره الغربى، ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصى والتمثيلى كما بيناه مفصلا فى كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلى، ثم عدم سماحهم

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجعية

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسي فيه .
هذا وقد عالج العرب نوعاً من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه
إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمية أو
الفلسفي ، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب خاصة
الناس ، ليس جديراً أن يحمل اسم القصص ؛ لأن الغرض الأول
للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه . ومن أمثاله في القرن
الرابع كتاب « الإنسان والحيوان » لأخوان الصفا أصحاب الرسائل
المشهورة المنسوبة إليهم ، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان
والإنسان كما في كريمة ودمنة قد حشوه كثيراً من الحوار العلمي في
الطبيعة ومميزات الإنسان والحيوان . ومنها في القرن السادس رسالة
« حى بن يقظان » لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطيفيل المتوفى سنة ٥٨١ هـ
التي شرح فيها بأسلوب قصصي ، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ، ووفق
إلى نظريات علمية في تطورات هذا الإنسان ، وقد طبعت في مصر
وفي غيرها مراراً وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية . على أن من
هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية
فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبي العلاء
التي كتبها في عزلة وضحاها انتقاد شعراء الجاهلية والأسلام والأدباء
والرواة والنحاة فأنها علمية فلسفية ، يتضمن بعضها لغة وأدباً وشعراً
وتقداً ، وبعضها نواذر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذي الأفكار
في عصور الإسلام ، ولكنه ساقها في أسلوب قصصي خيالي أبعد فيه .
فقد تصور رجلاً صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار ، وقابل كثيراً من

أهلبيها وحوارهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذ كن يسأل دائماً من كان
يهتقدهم أبناء جهنم وأبصرهم في الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا
يجيبونه بما لا يخرج عن النوعين الذين أوضحننا في مشتملات الرسالة
دعائها رسالة الغفران ، وهى ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن
لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص الشخصية إلى حد ما ، فقد جاءت
فوق ما رأيت من مشتملاتها ، خصيبة الخيال في تصوير الجنة والنار ،
ومافيهما من نعيم وعذاب ، ولادعة السخرية في كثير من حوارها .
ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم ، فما كاد الغرب يتصل بالشرق
في الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانها إذ كانوا أسبق المسارعين
إلى هذه الحروب ، فنسج شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الإلهية »
وفيهما نفس الخيال الذى سبقه إليه المعرى بثلاثة قرون ، وكذلك فعل
ملتن الانجليزى فى روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة
قرون . فهى قد غدت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غداة فى
القصص العربى قبلها كليله ودمنة والى ليلة فى الناحية القصصية
« رومان » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم الغرب
الذى أخذ عنه فوصل إلى ما ترى الآن من رقى باهر فى فنون الأقاصيص
والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العلمية الفلسفية
التي غطت على الروح القصصى كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى الى ناحية
لغوية صناعية نزعت بهجة القصص منها ، تلك هي المقامات التي سنتكلم
عنها الآن .

٢ - المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات في المشرق منذ أواخر العصر العباسي الثاني، وتحكم آل بويه على الخلافة في بغداد بعد هذا الانشاء، في اللغة الفارسية وآدابها، نفخة حركتهما من الأجداث ووهبتها روحاً أنهضتها من الرجام. فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها في مجدهم وسالف تاريخهم، كما فعل نوح بن منصور الساماني في اقتراحه على الدقيق نظم الشاهنامه، وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس، كان يجاريهم في النهوض بلغتهم تقرباً إلى شعوبه من أهلها، كما فعل السلطان محمود الغزنوي التركي في اقتراحه على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأها الدقيق ولم يتمها. وكان هذا الانتصار لأدب الفرس في وقت يزدهر فيه الأدب العربي. قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كسب في أجواء فارسية، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسي، وكان لابد لهذا الروح أن يظهر في معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسي، واتفق أن رحل إلى نواحي فارس العلامة اللغوي والراوية الأديب، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي في النصف الأول من القرن الثالث، وأقام هناك مع ابني ميكال^(١) وهما يومئذ على عمالة تلك البلاد^(٢) فقلداً رياسة لديوان، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها في أربعين حديثاً

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل، فهما للشاه بن ميكال ولد وخفيد، ولكن شاعت نسبتهمما إليه نسبة الأبناء (٢) من قبل المقتدر الخليفة العباسي.

تحدث عنها الحصري في زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفريد
جزء أول بما يدل على ما قدمنا، قال نحت هذا العنوان جملة من كلام
أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمداني بديع الزمان - « وهذا اسم وافق
مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غرض المكسر أنيق الجواهر يكاد
الهواء يسرقه لطفًا، والهوى يعشقه ظرفًا، ولما رأى أبا بكر محمد بن
الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه استنبطها من
ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصار
وأهداها للأفكار والفماثر في معارض عجمية وألفاظ حوشية، فجاء
أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له - جبهها الأسماع وتوسع
فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة،
عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفًا، وتطر حسنا، ولا مناسبة
بين المقامتين ألفاظًا ولا معني، وعطف مساجاتها ووقف مناقلتها بين
رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندري
وجعلهما يتهديان الدرويتنافتان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك
الرصين، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد
أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية، وسأذكر منها ما لا يحل طوله
بالشرط المعقود ولا ينافي حصوله الغرض المقصود». وهذا كلام نخرج
منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ومعارض عجمية،
وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب بحكم لغويته التي كانت أغلب شيء
عليه، وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات^(١) ولكننا نذكر

(١) أصل المقامة في اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت

أن الذي احتذاه أولاً إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس
العلامة اللغوي المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع العلماء
نسقه فيها، وكان أولهم أتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ في مقاماته
التي وصفها الحصري آنفاً، وكلاهما عاش في بيئة فارسية كما عاش ابن دريد.
ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة
في الثمن الباقي منها وهو خمسون مقامة فاعتبرت لذلك أولى المقامات
بني البديع مقاماته على الكدية^(١) وجعل الحديث فيها بين

في المجلس استعمال الأضداد كما قال المسيب بن علس:
وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب
وكما قال نهشل الدارمي:

إنا نظرنا في المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرق قد
وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامري:
ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصار قيام
وكما قال زهير بن أبي سلمى:

وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية يفتابها القول والفعل
وقد سبق المجلس المقامة في هذا الاستعمال كما قال مهلهل
نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال في مجلس يستمع له، وبعدئذ قصره
على هذا الضرب المعروف من الكلام

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية في بناء المقامات يرجع إلى انتشارها
أيامه بأواسط آسيا في صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذلك بالساسانية

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية، وأبو الفتح الاسكندري شحاذا. فكانت جعبة فصاحة وبلاغة، ولكنهما وقد تركت على الكدية وحدها، جاءت بعيدة عن الروح القصصى غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذى شرحناه، ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يكف فيها مع الكدية غيرها وهى الأزاذية^(١) والبلخية والسجستانية والكوفية والأذربيجانية والجرجانية والأصفهانية والبصرية والفزارية والمكفوفية^(٢) والبخارية والقزوينية والساسانية والقردية والناجمية^(٣) ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة؛ أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية، أهمها الوصف وقد وقع في عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة وهى البغدادية والمضيرية^(٤) والمجاعية والنهميدية^(٥) والخورية، وتناول سائرهما وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاتك فى الأسدية والفرس فى الحمدانية^(٦) وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية وحمامى وحجام فى الحلوانية والرجل يكون

من أعراب وأبناء سبيل وذوى طاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون فى جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نسبا

- (١) الأزاذنوع من التمر (٢) ادعى فيها الاسكندري كف بصره (٣) تسمى فيها الاسكندري بالناجم (٤) المضيرة لحم يطبخ باللبن المضيراي الحامض كاخل (٥) النهميدة الزبدة (٦) أهدي فيها فرس الى عظيم من بني حمدان

خشن الجانب أو لينه في الخلفية^(١)؛ واللص يتخذ ثوب الناسك في
النيسابورية، والعلم في العامية وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن
يفعل بهم في الصميمية^(٢)، والملوك في الملوكية، والدينار إلغازا في
الصفيرية، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره في السارية^(٣) وهي قرية
الشبه بالنيسابورية، والوضعاء يعلنون في النيمية^(٤) ثم المال والدعوة
إلى فتح المطالب في المطابية. ويلى الوصف في العناية المطارحات
الأدبية وقد شغلت تسع مقامات، ستا في الشعر وهي: القريضية في
التفاضل بين الشعراء، والغيلانية في غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة،
والأسودية^(٥) في إنشاد شعر مرتجل، والابليسية في شياطين الشعراء،
والعراقية والشعرية وكتاها في إلغاز عن أبيات من الشعر، ثم ثلاثا
في محاورات أخرى وهي الجاحظية في مدح الجاحظ وذمه، والمارستانية
في دحض مذاهب المعتزلة، والدينارية في التساب بين متشائمين.
أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها في الوعظ والايصاء وهي:
الاهوازية في الحياة والموت، والوعظية في الدنيا والآخرة، والوصية في
الاقتصاد والتجارة، وثلاث في الترميز والتدجيل وهي الموصلية في
محاولة إحياء ميت ورد سيل، والحرزية في عمل حرز يضمن النجاة من
الغرق ثم الارمينية في التحيل لجلب الخبز والأدم.

وقد أبدع البديع في مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو في حكم الارتجال

(١) نسبه الى خلف بن أحمد أحد الأجواد (٢) بلد قرب دينور

(٣) بلد بطبرستان (٤) نسبه الى ابن الندى التميمي . (٥) نسبه الى الأسود

بنيسابور الابدع كله، ولهذا بعد فيها عن تكاف صناعات البديع فجاءت
 قليلة الغريب سهلة المتناول، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط
 بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع، فأنت إذ بدأت في
 قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حملت روضا ممتعا ينسبك كل
 شيء غيره وكلما سرحت نظرك في خيلة من خيائله أو زهرة من أزهاره
 تطلببتك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سياجه. وقد أجاد
 فيها الوصف والتشبيه، والمقامات العشرون التي تناولت الوصف كما
 ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة، وتشبيهات تستخف
 القارىء عجباً وتأخذ بلبه حيرة ودهشة، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية
 التي اخترناها نموذجاً منها، تجد المثل العليا لما ذكرنا، كما قد أحسن فيها
 الكناية وأحكم الالغاز، فن كنيائته قوله في شدة الروعة، «ن أسد خرج
 عليه» «فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه» وفي الخوف من
 فاتك لقيه فجأة «فراعى منه ما يروع الوحيد من مثله وأخذنى ما يأخذ
 الأعرل من شاكى السلاح» وفي بلدة نزلها ولم يقيم إلا قايلاً «فخلتها
 حلول النى» وفي تمثيل فرقة من صاحب «فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى
 جذبنى نجد والتقمه وهد» وفي مجاس صفاء ليس فيه نوم «فأخذنا
 نتحدث وما فينا الامنا. ومن الغازه وكان كثيراً الالغاز في أبيات
 الشعر قوله: «بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب» يعنى قول عمرو
 ابن كاشوم.

كأن سيوفنا منا ومنهم مخارق بأيدي لاعبيننا

وقوله: «بيت كاد يسقط فعاد» يعنى قول المتنبي.

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعنى قول أبى نواس
لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصه
إلى غير ذلك من الالغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل
أو يكاف المعنى مالا يطيق، وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان
له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم
يكن لغيره من كاتب أو شاعر. قال عنه الثعالبي فى اليتيمة « إنه كان
ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتا فيعيدنها
كلها دون أن يترك حرفا، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة
خفيفة ثم يسردها سردا، وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع
أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة، وكان دائما
الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيذا
فى نوعه فريدا فى بابه ». ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه
لما حدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبد العزيز بن عمر
المشهور بابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ وأبو القاسم عبد الله
ابن محمد المشهور بابن ناقيما المتوفى سنة ٤٨٥ ولكن مقاماتيهما لم تشهرا،
ثم جاء بعدهما فارس ميدان المقامات والحلى فى حليته الحريرى المتوفى
سنة ٥١٦ فأنشأ مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع فبذه فى صناعة
الكلام وإن اعترف له بفضل السابق فى هذا الفن، وهذى كلمة فى
التعريف بها .

بنى الحريري مقاماته على الكدية كما فعل البديع، وجعلها خمسين مقامة
جاءت وفق العدد الذي بقي لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت
فيها خمس عشرة في الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهي الكوفية
والبرقعيدية^(١) والبغدادية والمسكية والصورية والتفليسية والمروية
والساسانية، وسبع في التحليل لها وهي الدمشقية التي ادعى فيها خفر
القافلة بدعوى لقنها في المنام، والفارقيه^(٢) التي ادعى فيها حاجته إلى تكفين
ميت، والوبرية التي طلب فيها ناقة ادعى ضلالتها، والواسطية التي ختمل
فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التي باع فيها ولده على
أنه غلام، والعمانية التي علق فيها عزيمة الطلاق على حامل لتضع، والحرامية^(٣)
التي ادعى فيها أن ابنته في الأسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ
هي الصنعانية والساوية^(٤) والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية.
وأربع في الوصف الخالص الصريح هي الدينارية في الدينار والسنجارية
في النمام، والكرجية في الشتاء، والبكرية في البكر والثيب، ولا تخلو
هذه المقامات الأربع من وصف أشياء غير التي بنيت عليها كما لا تخلو
مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف، ولو لم يكن للحريري من أوصاف
غير افتتنانه في وصف أبي زيد بما يلائم شخصيته في كل مقامة لكفاء
ذلك في تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين. وجاءت فيها عشر في الحوار
والمخاصمة هي الحلوانية في محاسن التشبيهات، والدمياطية في المواصلة

(١) برقعيد قسبة في ديار بكر (٢) نسبة إلى ميفارقين مدينة بالشام

(٣) نسبة إلى بني حرام بالبصرة وهي أولى المقامات انشاء (٤) نسبة إلى

ساوه مدينة بين الري وهمدان

والقطيعة، والاسكندروانية في أثاث زوجته وحليها إذباعه، والرحبية^(١) في دعوى القتل على برىء والفراشية في صناعات الانشاء والحساب والشعرية في دعوى سرقة شعر والصعدية^(٢) في عقوق الابن والتبريزية في نشوز الزوجة والرملية الثانية في عصيانها والحجرية^(٣) في الحجامة. وجاءت فيها تسع في التكنية والالغاز، فمقامات التكنية أربع هي المعربة في الكناية عن الابرّة والميل والنصيبيّة في الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية في الكناية عن الحجر بيكر ربها والنجرانية في الكناية عن أشياء عشرة هي المروحة والخابول^(٤) والقام والميل والدولاب والمزملة^(٥) والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيّار الذهب. ومقامات الالغاز خمس، هي الفرضية في مسألة توريث والنحوية في مائة لغز نحوي والطيبية^(٦) في مائة لغز فقهى والملطية^(٧) في عشرين مقايضة كلامية^(٨) والشتوية في خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية في كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقاً من عجب. على أن الأعجب منه ما جاء في المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التي ابتكرها لا التي أتى بها علم البديع وهي المقامة المغربية للعبارات التي تقرأ رداً وطرداً.

(١) نسبه إلى رحية مالك بن طوق (٢) نسبه إلى صعدة باليمن (٣) نسبه إلى حجر بالحجامة (٤) هو حباله الصائد (٥) جرة يركب في ثقب بها قصبه للشرب منها (٦) نسبة إلى ضيعة مدينة الرسول (٧) ملطية من بلاد الجزيرة (٨) المقايضة هي الأحاجي وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام كطوامير في معنى «جوع أمد يزاد» والفاشية في معنى «أهل حلية» وهكذا.

والقهرية لرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه. والخيفاء
لرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة، والرقطاء لرسالة التي أحد
حروف كلماتها معجم والآخر مهمل، والسمرقندية للخطبة العارية من
النقط، ثم الحلبية لعشر مقطعات من الايات، وأولها عواطل من النقط،
والثانية حوال به، والثالثة أخيف أي كلمة مهملة وأخرى معجمة، والرابعة
متائم أي كل كلمتين مجستان جناسا خطيا، والخامسة مطرفات أي بطرفي
كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين، والسادسة لما أشكل من ذوات السنين،
والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد، والثامنة لما يجري عليه هذان
الحرفان، والتاسعة لعقد هاء الأفعال الناقصة، والعاشرة وهي طويلة لما ورد
من الكلمات فيه ظاء.

هذا ما نحا اليه الحرري في مقاماته من الفن المعجز الذي غطى على
كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده. وهو مع هذا بعيد عن التكلف
المعقوت، ولذلك كان منصفاً للحقيقة بل غير موفياً بحقها حين قال من وصفها
في مقدمتها (وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية
ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق
اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها
به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية
واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية، والرسائل
المبتكرة والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية، مما
أملت جميعه على لسان أنى زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث

ابن همام البصري^(١) وما قصدت بالأحماض^(٢) فيه إلا تنشيط قارئيه
وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين
أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأمتين ضمنتهما خواتم
المقامة الكرجية، وما عدا ذلك فخاطري أبو عذره ومقتضب حلاوه
ومره^(٣) هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب
آيات وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة ولو أوتي بلاغة قدامة لا يغترف
إلا من فضائله ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالاته والله در القائل^(٤).

فلو قبل مـبـكـاها بكيت صباية بسعدى شفييت النفس قبل التندم
ولكن بكيت قبلي فهيج لي البكا بكها فقلت الفضل للمتقدم
فمقامات الحريري بالنسبة إلى مقامات البديع. وإن كانت هذه أكثر انطباعات،
وأشد انسجاماً، وأبعد عن زخرف الصنعة وغريب اللغة. أبدع فنونا
وأبرع خيالاً وألطف فكاهة وأكثر أمثالا، ولذلك جذبت إليها طلاب
اللغة للاستفادة منها، وأعلام الأدب للعمل فيها، فخطيت بمثل ما حظي
به شعر المتنبي وشرحها كثير. منهم الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزي
والعكبري والطرائفي والزبيدي والطبلي والناصرى والباجسى وغيرهم،

(١) أبو زيد السروجي هو المطهر بن سلام البصري النحوي لزم الحريري
وتأدب عليه وتخرج به فأمل مقاماته على لسانه. أما الحارث بن همام فيعنى به
نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام (كلكم حارث وكلكم همام). فبطلاً مقاماته
ليسأخيا لين كبطل البديع (٢) التلوين والتنويع (٣) بالمقامات من الشعر ما يزيد
على ما الكثير من الشعراء ولذلك عد الحريري من الشعراء المكثرين على أن له
ديوان شعر (٤) قيل هو عدى بن الرقاع وقيل غيره

وأشهرهم الشريشي، وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربي بالغرب في القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرها. ولم يك العجب بها في القديم بأقل منه في الحديث فهذا علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي في مديحه، وابن نباتة في خطبة، والحريري في مقاماته، فهو لاء لم يقصروا » وقل له بعض إخوانه قد عجبت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريري فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل، قد عملت مقامات مرتين فلم ترضني، فأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل الحريري » وقال جاز الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشف وهو من هو بلاغة، في الحريري ومقاماته .

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقانه
أن الحريري حري بأن نكتب بالتبير مقاماته
معجزة تعجز كل الوري ولو سروا في ضوء مشكاته

وللزمنشري هذا مقامات خمسون أيضا، ألفها قبل مقامات الحلي المذكور، وكذا لأبي منصور أحمد بن جميل البغدادي المتوفى سنة ٥٧٧، والأولى هي الباقية دون النائية، وكلها في الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ما عرف فيهما للحريري والبيديع، فأسلوبها ليس فيه محدث

ومحدث عنه وطريقتهما خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين
من تصدى لعمل المقامات في العصر العباسي ، ولكن لم يشهر مع مقامات
الحريري والبيديع فقبر أوضاع ، كأحمد بن الأعظم الرازي المتوفى
سنة ٦٣٠ .

ثم تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور
بعده حتى العصر الحديث ، كزين الدين بن هقيل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ ،
وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ ، وجلال الدين السيوطي المتوفى
سنة ٩١١ ، والشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ، والشيخ ناصيف
اليازجي المتوفى سنة ١٢٨٧ ، ثم المنشئ الأديب محمد بك المويلحي في
كتابه حديث عيسى بن هشام الذي حذا فيه حذو البيديع ، واختار له اسم
راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكره ، وأشهد لقد فاقه في أن جاء
حديثه هذا أدخل في باب القصة من المقامات ، لما عالج من تصوير
الحوادث وتحليل الشخصيات ، فهو بطل المقامة في الحديث كما كان البيديع
والحريري بطلها في القديم .

تدوين العلوم والكتابة العلمية

علمت من الخلاصة التي أثبتناها عن تدوين العلوم في العصر الأموي، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شيء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذي نسبته مجاهد إلى ابن عباس، وحديث رسول الله الذي دونه محمد بن عمرو بن حزم، وأذاعه عمر بن عبد العزيز في الأمصار، والأول باق والثاني غير معروف، أما الفقه فلم يدون فيه شيء ومثله القراءات. كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب في النحو ليس لها الآن وجود. وكذلك كان الشأن في العلوم الأخرى من تاريخ وكيمياء وفلك وطب، فلم يصل إلينا مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرن السرياني في الطب الذي أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم، ويعتبرون العصر العباسي هو العصر الحق للتدوين.

ذلك بأن الحال السياسية لم تكد تستقر أول العصر العباسي بعد خازفة السفاح وقليل من خلافة أخيه المنصور، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم، فحمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج إليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرها، وبذل في ذلك على جمود كفه المال الكثير. وتبعه في هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدي طبقة واصعة انتهت مجرودها بعصر الرشيد. ثم جاء المأمون ففضل

آباءه وأجداده في تشجيع حركة التأليف والترجمة؛ فنشأت طبقة ثانية يصح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل ، لما أنتجته طبقة الوضع ، فأتمت العصر الأول وسالخت نصف الثاني . وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات ، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف ، لأنه صار عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز في شتى العلوم والفنون، وبها انتهى العصر الثاني .

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات، واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد ، فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلاثمائة ، ووجدت علوم لم تكن موجودة، ومن ثم سمي عصر نضج العلوم ثم سمي عصر المكاتب لأنها كثرت فيه، كما سمي عصر توطن العلوم لأنها عمت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد ، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمى لذلك عصر المذهب الشيعي . ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم سائرة به في طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة، فعرف بعصر الموسوعات . ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا، غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعي الذي كان سائدا في سلفه كما تقدم، قضى على قوته وأحل المذهب السني محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين ، ثم كانت العلوم الأدبية فيه في المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية ، وقد سبق ذاك كله مفصلا في صدر الكتاب. ولا يفوتنا

أن ننبه هنا إلى أن الحركة العامة في الممالك الشرقية ونظيرتها في الممالك الغربية كانتا في العصر الثالث سواء ، أما في العصر الرابع فكانت في الشرق خيرا منها في الغرب ، غير أنها اضمحلت في الأول قبل اضمحلالها في الثاني .

هذا والعلوم التي خلفها المسلمون في العصر العباسي من وضعهم أو توجهتهم نوعان . إسلامية من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والاصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها ، والادب ويلحق به التاريخ^(١) وغيرها . ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الاول بقسميه ، وأخرى مجملة عن النوع الثاني بأقسامه الاربعة .

العلوم الشرعية

١ — التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة في العهد الاموي كعجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة ، وكابرهيم النخعي والشعبي من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكلاك بن أنس والحسن البصري من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة .

(١) من مباحث الادب أيضا العروض والقافية وسيأتي القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه .

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسي على عهد المنصور، فدونوا مع تابعي التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبي إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفاسير للقرآن، كما كتب بعضهم في غريبه وبعضهم في تأويل آياته وبعضهم في مجازيه، ولكن تفاسيرهم جاءت حاوية لبعض التأويل الباطلة التي أخذوها من غير تحقيق عن أسلم من اليهود، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار. ثم جاءت في العصر الثاني طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» الذي يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به في ذلك جماعة، ومنهم استعمل الناس. ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت في تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التي كانت قد نضجت إذ ذاك إلى التفسير، كالنقاش الموصلي صاحب «شفاء الصدور» وإبراهيم الشعلي صاحب «الكشف والبيان» والحوافي المصري صاحب «البرهان». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ردحا كما في البسيط لأحمد الواحدي تلميذ الشعلي المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعزلة في كشف الزخشرى، والكلام والأصول في مفاتيح العلوم للرازي، كما ظهرت التفاسير بالرأى والقياس دون تقييد بأراء السلف.

أما القراءات فقد تعددت وجوهها في أوائل العصر العباسي، ولكن الناس في جمهورتهم كانوا يرجعون في قراءتهم إلى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحق وحمزة بن حبيب وعاصم بن أبي النجود
وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم . وقبيل الثلاثمائة
أحلوا في هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائي محل يعقوب ، فأجهد
يعقوب نفسه في الحصول على جديد في رواية القراءات فنال ونال معه
يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام ، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة
المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى
قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن
البصري ويحيى اليزيدي . وعلى هذا بقيت القراءات ^(١)

٢ - الحديث

كان أول تدوين للحديث مقام به ابن حزم بأمر عمر بن عبد العزيز ،
ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسي وليس هناك تدوين .
ولما كان الافتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر
المنصور مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ الذي أثبت فيه الحديث
مرتبا على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيهما معا . وقد حمل تمييز
الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثاني على اقتفاء آثار الرواة بالجرح
والتعديل ، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير ، أشهرهم
إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث
الصحيحة مجردة من الموضوعة وكانوا قبل ذلك يدونونها معا اكتفاء
بالتنبيه ، فوجدت كتب شتى أصحها ، جامع الصحيح للبخاري والجامع

(١) قد فصلنا القول في القراءات حيث الكلام على جمع القرآن ورواياته

الصحيح للنيسابوري والسنن لابن ماجه والقزويني والسنن كذلك لأبي داود
السنجستاني، والجامع لأبي عيسى الترمذي والسنن أيضا لأبي عبد الرحمن
النسائي، وبعده هذه الكتب الستة لم تزد رواية الحديث في العصر الثالث واتجه
اهتمام أئمة إلى ترتيب شيوخه وتبيين مراتبه والتوسع في مصطلحه. ومن
كبار المحدثين فيه، الحاكم النيسابوري وأبو الفتح الرازي وتلميذه أبو بكر
البيهقي وكان كل جهدهم خدمة الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة
أما في العصر الرابع فقد وجد من المحدثين ذوي التأليف كثير منهم البغوي
صاحب مصابيح السنة، والجزري صاحب جامع الاصول في أحاديث
الرسول، والنهاية في غريب الحديث
٣ - الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون في الفقه موطأ مالك بن أنس إمام
الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأي لوقوفهم عند
الرواية وكانت كثيرة عندهم، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا
بالقياس والرأي فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم
أبي حنيفة النعمان، ولكن لما انتقل المحدثون إليه بالعراق مزجوا بالرواية
الرأي وظهر ذلك جليا في صاحبيه أبي يوسف ومحمد. واتفق أن رحل
الشافعي إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب
مالك وأبي حنيفة. ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع
مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ
من بعض أصحاب الحديث عن الشافعي، ومن بعض أئمة القياس والرأي
عن أبي حنيفة، فكان مذهبه المصروف. وبذلك تمت في العصر العباسي

الأول المذاهب الأربعة . المالكي بالحجاز ، والحنفي بالعراق ، والشافعي بمصر ، والحنبلي في نجد والبحرين وبعض الشام . ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ للمالك ، والفقه الأكبر لأبي حنيفة ، والألم للشافعي ، والمسند لابن حنبل . وفي العصر الثاني تغير كثير من الآراء في مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبري القريب من الشافعي ، ومذهب داود بن علي الظاهري القريب من المالكي . وليكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التي لم يستجد بجوار أصولها في العصر الثالث أيضاً غير التلخيص والشرح والتعليق ، ومن خيار الفقهاء في هذا العصر أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الحاوي الكبير في الفروع في فقه الشافعي وهو مطبوع ، وكذلك كانت الحال في العصر الرابع ، ومن فقهاء أبو حامد الغزالي وله تأليف كثيرة في الفقه منها البسيط في الفروع ، والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، والوجيز في فقه الشافعي ، ثم الأحياء ونحو نصفه في الفقه .

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه في الأئمة رسوخاً جعلهم يحصرون مسائله في أصول خمسة هي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير في الأخيرين ، ويسمون الكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعي رحمه الله ، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفي مقدمتهم أبو زيد الدبوسي . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبيين نشأ علم الجدل والخلاف . وقد ساهرت هذه العلوم الفقه في سائر العصور لأنها متفرعة عنه .

٤ - الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام في العصر العباسي على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف في التوقف عن البحث في المتشابه وما يوهم التشبيه . فانهم حين تناولوا البحث في الأمرين ضل كثير منهم في التأويل ووقع في التجسيم المنافي للتنزيه ، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخليين في الاسلام ممن امتثلت دياناتهم القديمة بالشبه والأوهام ، فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة ، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف إلى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام . وظهر الخلاف أول ما ظهر من واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري واتبعه في ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال . وقد نمت هذا العلم ما كان عليه الخلفاء من اختلاف ، فبعضهم كان ينصر أهل السنة ، كالمهدي وبعضهم ينصر المعتزلة كالأمويون . ثم زاد الاعتزال نموا في العصر الثاني وفرة الفلسفة ، لما كثر من ترجمة كتبهم ولم يقف تياره إلا ظهور أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري الذي استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم ، كما ألحق به مبحث الإمامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالاشعريين . وقد أيدته في العصر الثالث أبو بكر الباقلاني فنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذي بقى عليه كثير من الاتباع . ثم لقي مثل هذا التأييد في العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازي وحجة الله الغزالي صاحب التأليف الكثيرة الواسعة في هذا الباب ، ومنها كتاب الاحياء . وفيه كثير من مباحث الكلام

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج في علم الكلام، على
شق الطريق إلى عالم المنطق فنبغوا فيه ومساعدتهم على هذا النبوغ ما نقلوه
عن اليونان في جميع مباحثه من فصول : ولعله لهذا السبب استمر
طوال العصور العباسية خاضعا للنظام اليونانية بل بقي عليها من بعدها
إلى الآن .

العلوم اللسانية

١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلي النحو بالبصرة في العصر الاموي كما
عرفت في كتابنا الثاني، فاختلف إليه عدد من رجالها يتعمونه عليه ،
كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الاعرج ونصر بن عاصم
ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الاولى .
وعنهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبي اسحق، وأسماء الحضرمي
وأبو الخطاب الاخفش الاكبر وأبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي
وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى
منها أبو مسلم عاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسي، وقد تبارت في
التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الاولى فيه
سوى أوراق، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمل، وهما أول ما ألف في
النحو البصري، وكان لأبي جعفر الرؤاسي كتاب الفيصل أول ما ألف في
نحو الكوفيين ، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسي فتشقت
عليهما الطبقة التي وضعت أساس التأليف في النحو وسائر علوم اللغة ، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب ، وبالكوفة طبقة الكسائي ، ودب بين الطائفتين اختلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقدينيهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذي لا يأخذون به إلا لضرورة ، وقد ساعدتهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية ، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجام . ثم نشأت بالبصرة طبقة الاخفش الأوسط^(١) شارح كتاب سيبويه ، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود ، وعنه انتشر المذهب الكوفي ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصري . وبعدها كانت في البصرة طبقة التوزي والجرمازي والجرمي والمازني والسجستاني ، وفي الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الاول والثاني . ولما توالى فتن الزنوج والقرامطة على المصريين جلا علماءهم إلى بغداد ، ومن اختلاطهم نشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم يجد في العصر الثالث جديد إذ كان أكثر مادون شروحا وتعليقات على المذهبين

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ، أما الاكبر المذكور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أستاذ سيبويه ، والاصغر هو أبو الحسن علي بن سليمان تلميذ المبرد .

من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحو فيه ابن خالويه صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » وصاحب رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، وابن جني صاحب الخصائص في أصول النحو ، وسر الصناعة في النحو ، وشرح تصريف المازني واللمع في النحو ، والمحتسب في إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستويه والسيرافي والرماني ولكل هؤلاء مؤلفات . وفي العصر الخامس وضعت أهم كتب النحو والصرف التي عليها معول العلماء الآن كالكافية في النحو ، والشافية في الصرف وهما لابن الحاجب ، وتصريف العزى لعز الدين الزنجاني في الصرف ، ومفتاح العلوم للسكاكي وغيرها

٢ - متن اللغة

كان المرجع في معرفة معاني المفردات طوال العهد الأموي ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأدباء . ولما جاء العصر العباسي فكر بعض الأئمة في تدوين رسائل صغيرة في فئات من الألفاظ كالتي تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر في اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها ، فوضع كتابه العين الذي رتبته على حسب مخارج الحروف من الخلق إلى الشفة مبتدئاً وإياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى أتمه جماعة بعد وفاته ، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم في متن اللغة . وفي العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى

الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري كتابه التهذيب على ترتيب الخليل في عشر مجلدات ، كما ألف صاحب بن عباد المحيط في سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس المجلد حاذفا للشواهد ، والجوهري الصحاح الذي جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروز آبادي القاموس المحيط ، والزمخشري أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعياب ، ثم جمع بينهما في مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحي أخرى من اللغة كالأجناس في فقه اللغة للنعالي ، وشرح غريب الحديث للجزري وغيرها .

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة في عرف العلماء على علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع ، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذي خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهي في البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاب لها قبل هذا الحال ، دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه اليه في معنى قوله تعالى « طلعتها كأنه رعوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر :
أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(١)

(١) استعمل أبو عبيدة في تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا بالمعنى الذي اصطلح عليه بعد ولذلك جاءت أبحاث كتابه خليطاً من النحو

وكالذي كان من الجاحظ في تأليف كتابه « إيجاز القرآن » الذي بقيت منه أبحاث كثيرة منقولة في كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله ابن حسان، وفي كثير من كتابه البيان والتبيين، وكالذي كان من المبرد حين قال له الكندي الفيلسوف « أراي أجد في كلام العرب حشوا إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فلا لفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس « بل المعاني مختلفة، فالأول إخبار عن قيام والثاني جواب عن سؤال سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعاني. ثم جاء ابن المعتز فراه ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء، فخصر منها سبعة عشر نوعا سمي كلا منها وسماها في مجموعها البديع، وإن كان فيها بعض ما هو الآن من البيان كالاستعارة والكناية. ولهذا كله يمكن أن يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثاني، وإنه وضعت أبحاث كثيرة خلاله وخلال الأول والمعاني والبيان. وقبيل انتهائه عقب قدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز في كتابه « نقد قدامه » الذي أتى فيه بعشرين محسنا وافق ابن المعتز في سبعة منها، واختص بثلاثة عشر كما اختص ابن المعتز بعشرة، فتمت المحسنات ثلاثين. وفي العصر الثالث ألف ابن هلال العسكري كتابه الصناعتين في معظم أبحاث هذه العلوم الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض. وفي الرابع

والبلاغة وإن كان للثانية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب كان منه كما رأيت.

ألف إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني كتابه « دلائل الإعجاز »، وكتاباه « أسرار البلاغة » مغلبا على الأول أبحاث المعاني، وعلى الثاني أبحاث البيان، فعد هذا أول تفرقة بينهما، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا، وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا. ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة، وبالفلسفة والمنطق من أخرى. فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة في طريق الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم في النحو والصرف والبلاغة والعروض. وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزويني في كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرى الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث^(١)

٤ - الأدب والتاريخ

عاجلنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة إليه فى مأدبة، وأنها قبيل

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشاركة، أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتابى « المثل السائر » للموصلى وهو خير كتبهما وبخاصة فى البيان والمعاني و « تحرير التهجير » لعبد العظيم بن أبى الاصمعى المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التسعين.

الاسلام أخذت تستخدم في التهذيب والتثقيف ، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعامله الداعية إلى مكارم الأخلاق ، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر في التهذيب ، وبذلك تناول مآثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره في المذام . وعرف من يروى ذلك بالأديب ، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صدر الاسلام بأنه « معرفة كلام العرب نثرا وشعرا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها » وعلى هذا كان التأديب في عصر الراشدين ، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بنى أمية شاملا معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك . وقد عظمت رواية الادب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها ، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلا بكتابنا الثاني . والذي نريد أن نقوله الآن ، إن ما روى في العصر الأموي بقي غير مقيد في كتاب حتى إذا ما جاء العباسي ودخل الاسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب ، وجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو وللتحرر من الأخطاء ، وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة ، وقد دفع الحرص على هذين الامرين معا إلى تقييدهما بالتدوين ، كما حبيب بعد مواطن العباسيين عن البوادي ، إلى طائفة من فصحاء الاعراب ، التردد على حواضر العراق لمداواة والمتعلمين لقاء ما كانوا ينالون من رزق ومال فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحي ، وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ، وشبيل بن عرعة الضبعي . وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد ، وأبو محم الشيباني . ثم تعدى سبلهم المصريين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابياني

وأبو شبل العقيلي والفقهي الأسدي . بن تجاوزها إلى خراسان كأبي
العبيثل مؤدب الطاهريين . واكتير من هؤلاء كتب لم يصل منها شيء
لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية
وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ، قد دونه الرواة في العصر العباسي الأول فكان
مرجع الناس . وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء ، وعنه أخذ
أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير
والفرزدق والشعر الشعراء ، والاصمعي عبد الله بن قريب صاحب
الاصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى في الإنسان وكثير من
الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصاري صاحب النوادر في اللغة
وكتابي المطر والابن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب
المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ . على أن هناك طائفة من
الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبي
صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ،
والشيباني جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهي العصر الأول العباسي
نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم
محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد بن أبي الخطاب
صاحب جمهرة أشعار العرب ، وله في صدرها مقدمة تبلغ نحو الأربعين
صفحة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له في عالم الأدب مكان ،
ثم كانوا يحيدون في كلامهم عن الاكثار من اللغة التي بدأت تتميز عن
الأدب ، كما حاد أسلافهم أوله عن الاكثار من النحو ، فتميز منذ أول العصر .
ولما حل العصر الثاني أخذ الأدب يستقل عن هذين

العالمين إلا لما ، ويعني بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار
 التي تتعلق برجاله ، ثم جلا الأدباء في أوله عن المصريين للأحداث النازلة
 بهما إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة في
 الأدب الفارسي وغيره ، قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك
 كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير في أمور ، منها في المأثور تجاوز
 الرواية إلى التدبر في المروي بما يحل معناه تحليلا ينتهي بحكمة أو عظة ،
 ومنها في الخبر جمع أشتات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها
 أبوابا في كل باب طائفة ، ومنها غيرها الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء
 ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ، ولعل الدافع إلى
 هذا الميل ما ظهر في ذلك العصر من فساد الحكم وتوالي الظلم حتى
 على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اضطبغت به كتب الأدب وتوخاه في
 التصنيف الأدباء ، كالجاحظ إمامهم وفتح الفتح في التأليف ، فله كتاب
 البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب المحاسن والاضداد
 على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ،
 وسلوة الحريف والعرافة ، والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المغنين
 والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكان قتيبة المقي
 للجاحظ في هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات ، عيون الأخبار في عشرة
 كتب ، والمعارف في التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والامامة
 والسياسة والشراب والاشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب
 وغيرها ، وكقدمة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر
 وغيرها ، محمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد في باب فيه

غير المواعظ الكثيرة ، وصف الازياء وألفاظ المكاتبات وما يكتب من
الأشعار على الثياب والأدوات، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره .
إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الادب فيه .

أولاً : - انتشار الروح القصصية التي أحيها في العصر الأول
ابن المقفع، ونماها في الثاني من اقتفوا أثر فيها كالجاحظ، وقد قدمنا القول
على ذلك مبسوطاً في الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانياً : - انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه في
العصر الثاني بالمعني الذي نريد، قدامة بكتابه المذكورين فكان في أدبائه من
انتقد الرواية والأخبار، كآبي الفرج في كتابه الأغاني أضخم كتب
الأدب، وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد
الشعراء كحسين بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه «الموازنة
بين أبي تمام والبختری» فإنه لم يترك لكاتبهما شيئاً مما يقوله متعصب
له أو عليه؛ إلا أوردته في أسلوب جدلي ممتع ونقاش حصيف، وكالصاحب
ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه « مساوى المتنبي » الذي كان شديد
التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله ،
وكعبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه « الوساطة بين
المتنبي وخصومه » الذي تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره
من سائر الخصوم ، فانتصف المتنبي انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان .
كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مبنياً على قوانين البلاغة التي وضع

بعض قواعدها في العصر الأول وتمت في الثاني واطرد فهوها في الثالث،
 كأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في « كتاب الصناعتين الكتابة
 والشعر » فقد ملأه نقدا مؤسسا على ضوابط الفصاحة والبلاغة في
 الأساليب والمعاني، بل كن فيهم من طبق ذلك كله على نوابع الشعراء
 وكبار الكتاب، كالشمالي المتوفى سنة ٤٢٩ في كتابه « يتيمة الدهر »
 الذي سبق القول عنه، وفي كثير من كتبه المعروف منها نحو الاربعين
 كالأعجاز والإيجاز، وخاص الخصاص، ونثر النظم، وحل العقد، وشمس
 الأدب في استعمال العرب، والكناية والتعريض، وأجناس التجنيس،
 وسحر البلاغة، وغرر البلاغة، والنهاية في الكناية، ولا ندس من نقاد هذا
 العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعري الذي جاءت
 « رسالة الغفران » له مبنية عليه لحمة وسدى .

ثالثا - نضج نوع من الأدب هو المحاضرة، وغايته اقتدار الأديب
 على إيراد كلام غيره المناسب لما يطرق في محضره، وعماده كثرة الحفظ
 وجودة البديهة، ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدي
 المتوفى سنة ٤٠٠ و « التمثيل والمحاضرة » للشمالي و « الدرر والغرر »
 للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ .

ولما جاء العصر الرابع طرد رقى هذه الظواهر الثلاث . فأما القصة
 فقد علمت ذلك عنها، وأما النقد فكان من أصححه وأمتعته ما وقع من
 عبد القاهر في كتابيه « دلائل الإعجاز وأسرار البيان » وما وقع للموصلي
 في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد

الألفاظ والمعاني^(١) ، أما المحاضرة فقد جاءت فيها « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » لأبي القاسم الراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ، خزنة أدب لكل ما يقال عن الشيء وضده في خمسة وعشرين بابا - سمي كلا منها حدا - في العلوم والصناعات والاخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث .

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد غني بتدوينه منذ العصر العباسي الأول في الانساب والسير والطبقات والفتوح . فكان من مؤرخي الانساب أبو المنذر هشام بن محمد السكابي صاحب جهرة الانساب، ومن مؤرخي السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى السيرة النبوية لأبي بكر محمد ابن إسحق ، ومن مؤرخي الطبقات أي التراجم، أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخي الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي وغيرها في الفتوح .

وفي العصر الثاني توسع المؤرخون فخرجوا في الانواع المذكورة إلى أنواع كثيرة ، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، أو خاص بالناس أو البلدان كأبي الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خماريه، أو غيرها من تاريخ العرب

(١) ثم ما وقع بالمغرب لأبي العباس الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ في كتابه «العمدة» الذي جاء أجل كتاب في صناعة الشعر ونقده، وفي كتابه «قراصة الذهب في نقد أشعار العرب» .

المتصل بأدبهم كـ محمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام في أكثر من أربعين جزءاً . أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحيى البلاذري — خاتمة مؤرخي الفتح — صاحب فتوح البلدان .

وفي العصر الثالث ساد التاريخ العام شيء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات ، ومن كبار الرحالة فيه ، علي بن الحسين المعروف بالمسعودي . كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الأشخاص أو المدن ، فمن رجالها في تاريخ الأمم ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب تاريخ مصر ، ومنهم في تاريخ الأشخاص ، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي صاحب اليميني في تاريخ يمين الدولة الساطان محمود الغزنوي وأبيه ، ومنهم في تاريخ المدن أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد « غير السالف لابن طيفور » .

أما في العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلطين ، وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون في تدوين المعاجم والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كلوزير جمال الدين علي بن ظافر الأزدي المصري صاحب الدول المنقطعة - يعني عن العباسية - ، وأصحاب السير كمؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذ صاحب كتاب الاعتبار في سيرة حياته ووصف رحلاته ، و مترجمو الجماعات كأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن في مختلف الاقطار كأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقي صاحب

تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبي الحسن علي بن محمد المعروف
بعز الدين ابن الاثير صاحب السكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها
وأوضحها وأوسعها، وهو منذ الخليفة إلى سنة ٦٢٨ في اثني عشر جزءا

العلوم الكونية

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ، طبيعية ورياضية وإلهية
وسياسية . فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة
والمواليد الثلاثة « الحيوان والنبات والجماد » ، ومن الرياضية الجبر والحساب
والهندسة والحيل « الميكانيكا » والفلك والجغرافية النظرية ، ومن الإلهية
صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن
السياسية تنظيم الملك وتدبير المنزل وتدبير المال والاخلاق . وإليك كلمة
مجملة عنها مجموعة كما وعدنا ، لأنها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب
تنحوج إلى أفرادها كما أوردنا مواد العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية قبل .
ذكرنا في صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ
على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام بها ، أن الفرس أحرزوا
منذ القديم قسما وافرا من العلوم أوجدوا بعضه ، ثم ورثوا بعضا عن
الآشوريين والبابليين ، وترجموا بعضا منذ القديم عن الهند والصين ، كما
ترجموا بعضا آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها ساسانور بن أزدشير إلى
بلاد اليونان ، وعلى أيدي العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد
جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان . وبذلك كان
العلم القديم كله تقريبا مستقرا في بلاد الفرس فلما اختلط العرب بهم

على العهد العباسي اختلاطا كبيرا؛ ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم ، عمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه في ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماما ليس ففرقه اهتمام؛ حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لا عن اللغة الفارسية كما حدث قبله، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدي ترجمة ماهرين .

وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه، فكانوا يعتمدون في السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس ، وفي الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان ، وفي الحساب والنجوم والعقاقير والاقاصيص على الهنود؛ على أنهم نقلوا علوم ما أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ، كالزراعة والتمنيج والسحر والطلاسم عن الانباط والسككدان ، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين . ثم مزجوا ذلك كله ببعضه ببعض وأخرجوه في طابع عرفوا به ونسب إليهم في العصر العباسي الأول ؛ فكانوا في ذلك مثار الدهش والاعجاب . ومما ينبغي أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جمعهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب إليهم من آداب الفرس بعمل أبناء فارس أنفسهم حين شاركوهم النفوذ وأرادوا إظهار ما أثر أسلافهم فيها كما ظهرت في سائر العلوم ، ولو كان لأبناء الأمم الأخرى مثل ما لأبناء الفرس في هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء .

وقد كان معظم النقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استحضروهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور ، وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الأعسم ، وآل سرجويه ، وآل ثابت الحراني وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا ، والحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل ، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقي وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدي . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن علي بن زياد التميمي ، والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذري ، وإسحاق ابن يزيد ، ومحمد بن الجهم ، وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى ، وعمر بن الفرخان ، وجبله بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم في النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبنائهم من بعدهم .

هذا والكتب التي نقلت تعد بالآلاف ولكن الباقي منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطي لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر ، والسياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا الطريق ، ورسائل في الطب ترجمة قسطا بن لوقا ، والمدخل في الطب ورسائل أخرى فيه ، والنواميس لحنين بن إسحق ، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهي هذا العصر الأول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل ، فهو قد أدرك

العصر الثاني وله تأليف كثيرة في معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم في الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما ومعدودة في كل علم ولكن الباقي منها إلى الآن لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر والالون اللازوردى في السماء وذات الشعبتين « آلة فلكية » واختبارات الأيام ورسالة في الموسيقى ، ومقالة في تحاويل السنين . وفي العصر الثاني زاد اشتغال المسامين بهذه العلوم . ومن نبغائهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى في المكانة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا في المنطق و ٨ في السياسة والأدب و ٣٧ في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فحولاته تزيد عن المائتين ولكن الباقي منها بضع وعشرون أغلبها في الطب الذى يقال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكماله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى في الامراض ومداوتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الملوكى ألفه لصاحب طهرستان ، والمرشد والكافى وبرء الساعة في الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعملة إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله في الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه، فنبغ كثير أشهرهم أبو علي الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨، فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف في كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة، وقد نقل الباقي منها إلى اللغات الاوربية فأثر في نهضتها الحاضرة تأثيرا يينا. منها في الطب القانون في ١٤ جزءا والشفاء في ١٨ جزءا « بعض أجزائه في علوم أخرى » وفيها في الفلسفة الاشارات والنجاة وفي الالهيات والنفس الالهيات وقصيدة النفس، وفي المنطق الاشارة والعروس، غير كتب أخرى في الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها، ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم إلى اليوم مرجعا في كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة. وقد تقدمت في هذا العصر الكيمياء فأُنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات كما تقدم علم النبات، فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة، وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة ثم استمر تقدم هذه العلوم سائرا إلى الامام بالشرق في هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل إخوان الصفا فاهتم الأندلسيون بها.

وفي العصر الرابع طرد نمو هذه العلوم كذلك بالشرق والغرب ولكن الأندلس في أواخره فاقت المشرق الذي كان له السبق في أوائله فكان معظم الفلاسفة منها، ويكفي أن تعلم منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ صاحب الكتب الكثيرة التي كان فضلها على نهضة أوربة كفضل كتب ابن سينا المذكور.

وإن المقام ليس يضيّق عن عدد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقاً وغرباً خلال العصرين الثالث والرابع ، فلذلك كتف بالعالمين المذكورين « ابن سينا وابن رشد » اللذين جاء أولهما نحر المشرق في العصر الرابع ، وجاء ثانيهما نحر المغرب في الخامس .

هذا - وقد خالق تدوين العلوم بنوعيتها كتابة علمية هي لغة التأليف . كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والمناظرة التي انتهت بإنشاء المدارس في العصر الأخير بالمعنى الذي نعرفه الآن ، وهذي كلمة عن كليهما تلاءم المقام .

الكتابة العلمية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوع العلوم من إسلامية وكونية . فكانت في العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية في العصر الأول العباسي ، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص . وقليل ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وقد كانت هذه الزيادات أظهر في اللسانية منها في الشرعية ، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا في الفقه والكلام ، فقد كانت فيهما أقل درجات في البيان . ولما جاء العصر الثاني نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفاً في تاريخ العلوم واطرد نموها في الثالث لنمو العقاية واتساع الأبحاث ، فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهوراً باغفال الأسانيد في الرواية وبخاصة في علوم اللسان مع بقائها ذات قوة في التعبير وجمال في الأداء ، حتى إذا ما جاء العصر الرابع فسد هذا الجمال في أوله بالصناعة اللفظية التي أضرت

بالتعابير ، وفي آخره بالصناعة المنطقية التي أصابته بالتعقيد .
وكانت في العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول - ماعدا الادبية
التي كانت آية في البيان - لاتعدو العبارة الأعجمية الأصلية في ثوب
ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة في آخره
على عهد المؤمن بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الخدائ
الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة في
معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة في العصر الثاني ، أما في الثالث
حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن
اختمرت معانيها في نفوسهم ، فقد اقتربت لغة التأليف في العلوم المترجمة ،
من لغته في العلوم الاسلامية الشرعية ، بل في بعض اللسانية لأن
التأليف حينذاك كان وضعاً لا ترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من
الاغلاط ، غير أن النهوض لم يستمر طويلاً في العصر الأخير الذي
تسرب فيه من الفساد مثل ما تسرب إلى العلوم الاسلامية ، ولكنه
كان في تعقيد المعاني شراً منه في تكلف اللفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما استحدثه تدوين العلوم بنوعها
وخاصة الكونية في اللغة من تأثير في اللفاظ . فقد خرج كثير منها
عن معانيه الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة في جميع
العلوم ، وهأنذا تعرف طوائف منها في العلوم الاسلامية شرعية
ولسانية ، وهالك بعضها في الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فمن الطبية : الكحالة والسيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، في
فنون الطب ، والرطوبات والمزجة والاخلاط كالخار والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء في مصطلحات هذه الفنون ، والمسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر وسائر مشتقاتها في الأدوية ، والفسخ والرض والخالج والفتق والجبر في الجراحة ، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير في الامراض ، ومثلها ما جاء في وصفها كالمزمنة والحادة والخبث والربع وغيرها في أوصاف الحمى مثلاً .

ومن الفلسفية القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها في الكلام ، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة في التصوف .

وقد نقلت ألفاظاً أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها في أسماء العقاقير والامراض والأدوات والفلسفة . كلبقيدونس والمصطكي من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، وكالقولنج والمنتخوليامن الأمراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية ، وكالاصطراب والانبيق من الأدوات اليونانية ، والبركار والاسطوانة من الفارسية . وكالهيولى والطلسم في الفلسفة . إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب كالمعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الألفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الأصلية . فكثير استخدام فعل الكون ، وأدخات آل المعرفة على لا النافية ، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره ، وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معاً كالكمية والهوية والماهية . وكثير استعمال الجمل المعترضة والفعل المبني للمجهول والألقاب وهكذا .

م - ٢٠ أدب

مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الأول إلى آخر العصر الأموي بالأدب والشعر، وما كان على عهدهم من علم، فيما ذكرناه وسقنا الشواهد عليه بكتابنا الثاني، كما عرفت أن دوره فيهما كانت المساجد، ولتعرف الآن أنها بقيت في العصر العباسي كما كانت في سابقاته، ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى والمسجد الأموي، وجامعي البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، مساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الخاتم وغيرها.

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسي الأول وولع خلفاؤه بهما ولعاشديدا، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكمهم في ذلك الأمراء والوزراء، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات في العلوم اللسانية والشرعية وتفدق المطايا على المتناظرين، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا في المال.

قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يعطنهم أهلهم ويتيهم عليها حفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب، يدني أهلها ويجيزهم عليها، فلم يبق شيء منها إلا حفظته، طلبا للقرب منه، وكان الهادي مغرما بالشعر يستخلص أهلها فأتوا كتبيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » ولو نحن نقول بلغت حياة أسامة

الرشيدي لتحدث عنه أضعاف ما تحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة، ولكن لم تكن المناظرة في هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الادبية ، فقد احتدم فيها النقاش واشتد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالكلام وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون لحرية البحث وانغماسه في أعقد مسائله كخلق القرآن إلى الهامة، وتشده في ذلك تشددا أوقع الناس في الفتن والحن طوال عهده وعهد المعتصم والوائق من بعده ، ولم ينجهم منها إلا المتوكل الذي قضى على ما كان يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت في العصر الثاني الذي بدأه المتوكل بهذا النسكين ، خلافات كانت تثور حيناً وتهدأ حيناً بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الادبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخلق خلافاً صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شيء كثير كاد يقضى على الادبية لولا شغف رجال الدويلات بالأدب . وقد أدالت الأيام في العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والايوبيين ، فحي للسنة فيه مثل ما كان للشيعة في سابقه ، ولكن مع تخول المناظرات في الأدب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبي والعلمي ، أما النوعان المذهبي والفلسفي فمناظراتهما طويلة يمكن الرجوع في مثلها فيهما إلى ما كان من المأمون في علويته وفي قوله بخلق القرآن .

١- حضر عند الرشيد الأصمعي والكسائي فسأل الرشيد عن بيت الراعي :
قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا
فقال الكسائي كان قد أحرم بالحج فضحك الأصمعي وتهانف ، فقال
الرشيد ما عندك ؟ فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضا أنه دخل في
شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام ، فقال الكسائي
ما هو إلا هذا وإلا فما المعنى للأحرام ، قال الأصمعي نخبرني عن قول
عدي بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن
أى إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعنى ؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئا
محرما يوجب تحاميل دمه ، فقال الرشيد أنت يا أصمعي ما نطاق في الشعر .
٢- جاء عيسى بن عمر النخعي مجلس أبي عمرو بن العلاء فقال
ما شئ بلغني عنك أنك تجيزه قال وما هو ؟ قال بلغني أنك تجيز « ليس
الطيب إلا المسك » بالرفع فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدج الناس
ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الأحمر امضيا إلى أبي مبدية فلقناه بالرفع
فأنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نبهان فلقناه بالنصب فأنه يأبى ، فمضيا إلى
أبي مبدية فقال ما خطبكما قالا جئناك لنسألك عن شئ من كلام العرب
قال ها تياها ، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أنا امرأني
بالكذب على كبر سني فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف « ليس الشراب
إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر ما لهم غير التمر ؟ قال يحيى « ليس
ملاك الأمر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لا دخل فيه ليس ملك الأمر
إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه بالرفع فأبى . ثم جاءا إلى المنتجع

فقال له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » ونصبا فقال ليس الطيب إلا المسك ورفع، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبي عمرو وعنده عيسى فأخبراهما بما سمعا. فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه إلى أبي عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس - انقضى العصر الاول ثم مضى الثاني والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة في مثل المربد، ثم المجالس الخاصة في دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعا كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة، إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتاب أو استفتاء في موضوع، مع غلبة التقشف في المعيشة والزهد في الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث في الدروس اضطرابا وفي النفوس قلقا لكثرة من أصبحوا في حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الامر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الايام في وزاره نحو ثلث قرن فشرع سنة ٤٥٧ في تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأتمها بعد سنتين وافتتحها في حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازي رئاسة التدريس بها، وفرض لأساتذتها وطلابها المراتب فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن في الاسلام ^(١) ثم بنى أخرى باسمها

(١) أنكر الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام هذه الأولوية لنظام الملك وذكر بعض مدارس في نيسابور، منها البيهقية نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠، والسعيدية التي أسسها فيها الأمير نصير أخو محمود الغزنوي واليه بها،

فى نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حمئة
اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم ، فأنشأ السلطان نور الدين صاحب
دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس فى معظم بلاد الشام ، والسلطان صلاح
الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها فى القدس والاسكندرية والقاهرة .
ومما كان يجب فى هذا الانشاء ، رغبة الخلفاء والولاة اكتساب قلوب العامة
بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط
السلاطين فى وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الابقاء
على شىء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على ما فعلوا من الله ،
ويضمنوا لبنيتهم بقاء هذا الشىء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب ،
ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بأنشائه
حين أبطل المذهب الشيعى من الازهر ، مدرسة لكل مذهب من
المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى . وقد استمر عدد المدارس
يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل
انتهاء القرن السادس - ذكر ابن جبير فى رحلته أنه شاهد عشرين
مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد - فكانت هذه الكثرة ماطفة
للأحداث الخطيرة التى نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى
وتعدته إلى ما بعده من العصور .

على أن تاج الدين السبكى قد وفق بين الأمرين بقوله فى طبقاته « قد أدت
فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها - أى فى المدارس -
المعالييم للطلبة ، فانه لم يصح لى أكان للمدارس قبله معالييم أم لا ، والظاهر أنه
يكن لهم - أى للطلبة - معلوم »

الشعر

أولا - نماذج

- ١ - قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين^(١)
- ياليلة تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
 حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خيرا
 تنسى التقى معاده وتكون للحكام ذكرا
 وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
 وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
 وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبيا وعطرا^(٢)
 وكأنها برد الشرا ب صفاووافق منك فطرا
 جنية إنسية أو بين ذاك أجل أمرا
 وكفاك أنى لم أحيط بشكاة من أحببت خيرا
 إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
 متخشعا تحت الهوى عثرا وتحت الموت عشرا^(٣)

(١) هو بشار بن برد الفارمى أصلا ، العقيلي ولواء الضمير الشاعر المتصرف
 فى فنون الشعر الذى أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين . وهو
 من مخضرمى الدولتين ، وقد عمر نيفا وتسعين سنة (٢) تقاء لون وطيب رائحة
 (٣) ليس هذا العدد مرادا لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه لهواها وألمه خلوف
 موتها من شكاها .

٢ — وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضا (١)

أزين نساء العالمين أجيبى
كسبت كتابي ما أقيم حروفه
أخط وأمحوا خططت بعبرة
أيا فوز لو أبصرتنى ماعرفتني
وأنت من الدنيا نصيبي فان أمت
وإني لا أستهدى الرياح سلامكم
وأسألها حمل السلام اليكم
أرى البين يشكوه المحبون كلهم
أقول ودارى بالعراق ودارها
وكل قريب الدار لا بد مرة
سقى منزلا بين العقيق وواقم
أجش مديم الرعد دان ربابه
أزوار بيت الله مروا بيثرب
وقولوا لهم بأهل يثرب أسعدوا
فانا تركنا بالعراق أخا هوى

دعاء مشوق بالعراق غريب
لشدة إغوالى وطول نحبي
تسح على القرطاس مسح غروب
لطول نحولى بعدكم وشحوبى
فلميتك من حور الجنان نصيبي
إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
فان هى يوما بلغت فأجيبى
فيارب قرب دار كل حبيب
حجازية فى حرة وسهوب (٢)
سيصبح يوما وهو غير قريب
إلى كل أطم بالحجاز ولوب (٣)
بجود نسيمى شمال وجنوب
لحاجة متبول الفؤاد كئيب
على جانب للحادثات جايب
تذنب رهنا فى حبال شعوب

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر الرقيق الحاشية

اللطيف الطباع الغزل المخلص للغزل . لجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الأرض الصلبة السوداء الحجارة ، والسهوب جمع سهب بالضم

وهو الأرض المستوية السهلة (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والأطم القصر
أو الحصن أو كل بيت من حجارة ، واللوب جمع لوبة كاللاب جمع لابة وهى الحرة

به سقم أعيا المداوين عامه سوى ظنهم من مخطيء وه صيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ألا إنهم قالوا تعامون طبيبى
وسيروا فإن أدرككم في حشاشة

لها في نواحي الصدر وجس ديب^(١)

فرشوا على وجهي أفق من بليتي يثيبكم ذو العرش خير مثير
فان قال أهلى ما الذي جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناهم من ماء زمزم لنشفيه من دأه بذنوب
وإن أتم جئتم وقد حيل بينكم وبينى بيوم المنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حايف صفيح مطبق وكثير
فرشوا على قبري من الماء وانكبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ - وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهيد ونحله^(٢)

لا بصرفنك عن قصف وإصباء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كمين الديك مذهبة من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذيول من العقيان تتبعها في الشرق والغرب في نور وظاماء
ليست إلى النخل والاعناب نسبتها لكن إلى العسل الماذى^(٣) والماء
نتاج نخل خلایا غير مقفرة خصت بأطيب مصطاف ومشتاء

(١) صوت خفي لنفس يدب

(٢) هو أبو علي الحسن بن هانيء الفارسي أصلا الحكيم ولواء أرق الشعراء
حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعاني الرقيقة، وثاني
الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ (٣) الأبيض

ترعى أزاهـ ير غيطان وأودية
فطس الأنوف مقاريف مشمرة
من مقرب عشراء ذات زمزمة
تغدو وترجع ليلا عن مساربها
كل بمقله يمضى حـكـومـه
حتى إذا اصطاك من بنياها قرص
وآن من شهدها وقت الشيار^(٢) فلم
وصفـقوها بماء النيل إذ برزت
حتى إذا نزع الرواد رغوتها
استودعوها رواقيدا^(٤) مزفنة
وكم أفواهما زهر على ورق
وعمرت حقبـا في الدن لم يرها
حتى إذا سكنت في دنـها وهدت^(٦)
جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدها
كانها ولسان الماء يقرعها
لهـا من المزج في كاساتها حدق
كان مازجها بالماء طوقها
فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا

وتشرب الصفو من غدروا أحساء
خوض العيون بريثات من الداء
وعائد متبع منها وعذراء
إلى ملوك ذوى عز وأحياء
في حزبه بجميل القول والراء^(١)
أروينها عسلا من بعد اصداء
تلبث بأن شيرت في يوم أضواء
في قدر قس كجوف الجب روجاء^(٣)
وأقصت النار عنها كل ضراء
من أغبر قائم منها وغبراء
من حر طينة أرض غير ميثاء^(٥)
حي من الناس في صبح وامساء
من بعد زمزمة منها وضوضاء
من برج لهو إلى آفاق سراء
نار تأجج في آجام قصباء
ترنو إلى شربها من بعد إغضاء
منزوع جلدة ثعبان وأفعاء^(٧)
على مساعدة العيدان والناء^(٨)

(١) مقلوب رأى (٢) جنى العسل (٣) واسعة (٤) جمع راقود أو راقودة،
الدن والخابية (٥) غير سهلة مفككة (٦) من هدأت سهل وحذف (٧) ممدود أفعى
(٨) مهموز ناي .

٤ - وقال مسلم المتوفى سنة ٣٠٨ يمدح يزيد الشيباني في قتله الوليد
ابن طريف^(١)

لولا يزيد وأيام لنا سلفت	عاش الوليد مع الغارين أعواما
كالدهر لا ينتنى عما بهم به	قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما
نرى العفاة عكوفاً ولحجرتة	يرجون أروع رحب الباع بساما
منية في يدي هارون يبعثها	على أعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا	وأكرم الناس أخوالاً وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده	لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته	عن المنية والمهروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته	وبأس أول من صلى ومن صاما

إن يشكر الناس ما أوليت من حسن

فقد وسعت بنى حواء إنعاما	عزا وكان بنو العباس حكما
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها	حاميا وعلماء ومعروفا وإسلاما
يصيب منك مع الآمال صاحبها	وما يلم بها الركباني الماما
كم بلدة بك حل الركب جانبها	إنشاد مدحك إفصاحا وترناما

(١) هو صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المتصرف، البالغ المدح، الجيد القول في الشراب، كأبي نواس وهو على ما قيل أول من أكثر البديع، واخترع له هذا الاسم فاتبعه في ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام، وقد مات وهو يلى بريد جرجان للأموين. وجل مدائمه في البرامكة والمهالبة ويزيد ابن مزيد الشيباني.

لو كان يفقه رجع القول طائرهما غنى بمدحك فيها بومها الهاما
لو لم تكونوا ابني شيدبان من بشر كنتم رواسى أطواد وأعلاما
٥ - وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ في الحكمة^(١)

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيت الحرص صبحه ذليلا
فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلا
من لم يكن لك منصفما في الود فابغ به بدلا
وعليك نفسك فارعا واكسب لها فعلا بخيلا
ولقلم تلقى اللئيم عليك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميل وجدته يبغى الجميلا
اضرب بطرفك حيث شئت فإن ترى إلا بخيلا

٦ - وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثي محمد بن حميد الطوسي^(٢)
كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض مأوها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخرا
وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلكت أنه خلق العسر

(١) هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسي أصلا، العنزي ولاء شاعر
سهل اللفاظ حكيم المعاني، أ كثر الشعراء زهدا وحكمة .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي واحد عصره في ذيادة اللفظ و صناعة الشعر
وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبه مالا لاقى شعر المتنبي من عنايه

ألا في سبيل الله من عطيات له فجاج سبيل الله وانشغل الغفر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينويه فنى بأسه شطر وفى جوده شطار
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
اليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر^(١)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
فلم ينصرف إلا وأ كفانه الأجر
ترى ثياب الموت حمرا فما دجا
لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بني نهران^(٢) يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر
ويبكى عليه البأس والجود والشعر
يعزون عن ثاوى تعزى به العلا
الى الموت حتى استشهدا هو والصبر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى
ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
وبزته نار الحرب وهو لها جمر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها
بواتر ففى الآن من بعده بتر
يكون لاثواب الندى أبدانشر
ففى أى فرع يوجد الورق النضر
إذا شجرات العرف جذت أصولها

(١) الأخص كاصبع مالم يصب الأرض من باطن القدم (٢) عشيرته من طيء

لئن أبغض الدهر الخئون لفقده لعهدي به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت في الروح أيامه به فما زالت الأيام شيمتها الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيء فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ما تنفك نفقه هالكا يشار كنا في فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر وكيف احتمالى للغيوث صنيعة
باسقائها قبرا وفي لحده البحر مضى طاهر الأثواب لم تبق روضه
غداة ثوى إلا اشتهد أنها قبر ثوى في الثرى من كان يحياه الثرى
وبغمر صرف الدهر نائله الغمر عليك سلام الله وقفا فاني
رأيت الكريم الحر ليس له عمر ٧ — وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٣٣٣ آخر شعراء العصر الأول وكتابه
يرثي أم ابنه عمر وقد تركته ابن ثمان^(١)

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنهما غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى أن بكيت فأنما أداوى بهذا الدمع ماتريان
فهذى عزمت الصبر عنها لأنى جليد فمن الصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة

ولا يأتسى بالناس في الحدان

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر

فلم أر كلاً قدار كيف نصبني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غد تعداني
٨ — وقال البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفر المتوكل
ويصف خروجه في عيد فطر^(١)

الله مكن للخليفة جعفر الله مكن للخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضله نعمى من الله اصطفاه بفضله
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل
عمت فواضلك البرية فالتقى عمت فواضلك البرية فالتقى
بالبرصمت وأنت أفضل صائم بالبرصمت وأنت أفضل صائم
فانعم بيوم الفطر عينا إنه فانعم بيوم الفطر عينا إنه
أظهرت عز الملك فيه بجحفل أظهرت عز الملك فيه بجحفل
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
والخيل تصهل والفوارس تدعى والخيول تصهل والفوارس تدعى
والأرض خاشعة تميد بثقلها والارض خاشعة تميد بثقلها
والشمس مائعة^(٢) توقد بالضحي والشمس مائعة توقد بالضحي
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلمت حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلمت

تلك الدجى وأنجباب ذاك العشير

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي شاعر مطبوع متصرف في فنون الشعر وخاصة المدح إلا الهجاء وهو نقي الكلام ذو بدائع في غير تكلف يعده أبو العلاء المعري، الشاعر ويعده أبا تمام وأبا الطيب حكيمين .

(٢) يقال تمتعت الشمس إذا بلغت ذروة ضوئها قبل الزوال

وافتن فيك الناظرون فاصبم
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطاعتك النبي فهللوا
حتى انتهيت إلى المصلى لأبسا
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما
أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد النبي مذكرا
ومواعظ شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجهول وأخلصت
صلوا وراءك آخذين بمصحة
الله أعطاك المحبة في الوري
فلأنت أملا للعيون لديهم
٩ - وقال ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن
المدير^(٢)

يابن المدير غرني الرواد
أدعو على الشعراء أخبث دعوة
قل لي بأية حيلة أعملتها
هتفوا بأنك «لاحفظات» جواد
عمرا وليس لهم سواك مراد
إذ مجدوك وغيرك الأبحاد

(١) المفكر (٢) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي ، شاعر
فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب ، يقع على المعاني النادرة فيستخرجها ثم
يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد في كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

ما أنت والمعروف أو مفتاحه
 لكن إخال معاشرا خيبتهم
 أثنوا عليك ليستميدك غيرهم
 أرويت بالأصدار عنك حوائجهم^(١)
 وسلوت ذكراك التي من مثلها
 خيبتني ثقة بلؤمك إنه
 عن مثله نكص الهجاء مقمقرا
 لا أن لؤمك جنة لكنه
 فاهرب وأين بهارب من طالب
 خذها إليك من الملابس ملبسا
 ضنكا إذا زرت عليك زروره^(٢)
 ولئن شقيت بابس برد مثلها
 شنعاء تضرب فيك نار شناعة
 تحبوك بدأتها بذكر نابه
 ولقما بجدي على متبجح
 ما ينفع الخطب المحرق في الصلي
 ١٠ - وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقيا ومجاسها
 والصييد لشواها^(٥)

(١) جمع حائجة وهي العاطشة (٢) تحرق (٣) جمع زر أخى العروة

(٤) أضواؤها (٥) هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل، العالم

وحملو الدلال مليح الغضب
سقاني وقد سل سيف الصبا
عقارا إذا ما جلتها السقا
فأصلح بيني وبين الزما
وما العيش إلا مستهتر
يهم إلى كل ما يشتهى
وليسخو بما قد حوت كفه
فكم فضة فضها في سرو
ولا صيد إلا بوثابة^(١)
وإن أطاقت من قلاذاتها
فزوبعة من بنات الريا
تضم الطريد إلى نحرها
لها مجلس في مكان الرديف
فظلت لحوم ظباء الفلا
وطافت سقاتهم يمزجو
وحثوا النداحى بمشمولة
فراحوا نشاوى بأيدي المدا
إلى مجلس أرضه نرجس

يشوب مواعيده بالكذب
ح والليل من خوفه قد هرب
ة ألبسها الماء تاج الحبيب
ن وأبدلني بالهموم الطرب
نظل عواذله في شغب
وإن رده العذل لم ينجذب
ولا يتبع المن ما قد وهب
ريوم وكم ذهب قد ذهب
تظير على أربع كالعذب
وطار الغبار وجد الطالب
ح تريك على الأرض شدا عجب
كضم المحب لمن قد أحب
ف كتركية قد سببتها العرب
ة على الجمر معجلة تنتهب
ن بماء الغدير بنات العنب
إذا شارب عب فيها قطب
م قد نشطوا من عقل التعب
وأوتار عيّدانه تصطنب

الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة
والنخيلات الرائعة في شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة .
(١) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

وحيطانه خرط كافورة وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ - وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فأنحة شعراء العصر الثالث يمدح
سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة
سائقا للمثل والحكمة في ثنايا ما يقول^(١)

هنيئاً لأهل الثغر ^(٢) رأيك فيهم	وأنت حزب الله صرت لهم حزبا
وأنت رعت الدهر فيها وريبه	فإن شك فليحدث بساحة خطيبا
فيوما بخيل تطرد الروم عنهم	ويوما بجود يطرد الفقر والجدا
سر اياك تترى والدمستق ^(٣) هارب	وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أني مرعشا ^(٤) يستقرب البعد مقبلا	وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا	ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل رد عنه باللقان ^(٥) وقوفه	صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التفت الرماحان ساعة	كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة	إذا ذكرت لها نفسه لمس الجنبيا
أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه	حريصا عليها مستهما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى	وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد	إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي البغدي شاعر أشهر من أن
يعرف به ، نشأ بالكوفة ولكنه ملأ بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره
العالم بأسره (٢) يعني مدينة بالشعر حلب (٣) قائد الروم (٤) مدينة بالشام
قرب أنطاكية (٥) بلد بالروم

وما الفرق ما بين الأنام وبينه ^(١)

إذا حذر المحذور واستصعب الصعب
لأمر أعدته الخلافة للمدا وسمته دون العالم الصارم العضيا
إذا الدولة استكفت به في ملمة

كفاهما فكان السيف والكف والقلبا
تهاب سيوف الهند وهى حداثد فكيف إذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا
ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا
ومن تكن الأسد الضواري جدوده

يـ كن ليله صبحا ومطعمه غصبا
فيوركت من غيث كأنك جلودنا به تنبت الديباج والوشى والعصبا
١٢ - وقال أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ يفتخر ويعتذر عن
أسر الروم له ^(٢)

سيدكرنى قومي إذا جد جد هم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

(١) الضمير لسيف الدولة . (٢) هو الحارث بن أبى سعيد بن حمدان بن حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة، وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثانى فى قول الصاحب بن عباد « بدىء الشعر بملك وختم بملك » والأول امرؤ القيس ، ويغلب على شعره الحماسة والفخر وقد أسر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده بالروميات .

ولو سد غيرى ماسددت اكتفوا به

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر^(١)

وإني لجرار لسكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدي إلى أن ترتوى البيض والقنا

وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحى الخلوف بغارة أو الجيش ما لم تأته قبلى النذر
ويارب دار لم تخفنى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثني عن الكرم الفقر
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى

ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أضيحاني الفرار أو الردى فقلت لها أمران أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعيننى

وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوأتة عمرو
يمنون أن خلوا ثيابى وإنما على ثياب من دمائمهم حجر
ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن بخطب الحسناء لم يغلبها المهر

١٣ - وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣١٢ يرثى فتى من بني شيبان كان له صديقا فقتل وصلب^(١) :

أبدر دجى غالته إحدى الفوائل	فأصبح مفقودا وليس بأفل
أنته المنايا وهو أعزل حاسر	خفى غرار السيف بادی المقاتل
غلام إذا عاينت طاق ثوبه	رأيت عليه شاهدا للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا	يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة	ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه	وبين ظبا أسيفه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى	فلم يعر من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر	مقيم ولـكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشلوه	فتعقب من أنفاس تلك الشمايل
هو القدر المحتوم، والسيف لم يكن	ليخضب الا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة	نأت بك عن صنك الثرى والجنادل
وليس بعار ماعراك وإنما	حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ - وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله، بنفسه وهمته^(٢) :

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السرى الكندى، كان يرفو الشباب بالموصل ولكنه ولم بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه، ولذا كان مطبوعا عذب الألفاظ، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف .

(٢) هو أبو اسحاق الصابى ابرهيم بن هلال، الكاتب المترئس على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك تويته، والشاعر المطبوع المكنار فى جميع الفنون، ومصاحب المنزلة العالية على صابئته فى النفوس

يعيرني بالحبس من لو يحله
ورب طليق أطلق الذل رقه
وإني لقرن الدهر يوما تنوبني
ومن مد نحو النجم كما يناله
ولا بد للساعي إلى نيل غاية
وإني وإن أودت بمالي نكبة
فما كنت كالقسطار^(١) يثرى بكيمسه
ولكن كليث الغاب إن رام ثروة
ببيت خيمصا طاويا ثم يغتدى
كذلك مثلي نفسه رأس ماله
وللمال آفات يهنأ ربه
ومن يكن السلطان فيه خصيمه
وما خسرني أن غاض ما ملكت يدي
إذا كان مالي من طريف وتالد
ولي بين أقالمي ولي ومنطقي
١٥ - وقال ابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ يتحدث عن قصة ناسبا^(٢)
كيف العزاء وأين بابه والحي قد خفت ركابه

(١) جمع سطوة (٢) شجاع (٣) ناقد الدراهم كالقسطر . (٤) جمع مذوب وهو كل ما يذاب فيه

(٥) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي التميمي الشاعر المجيد ذو السمك الحسن والمعجم الجملي النسب والمدح والوصاف

بأعز منتقب ينم م على محاسنه نقابه
 والبدر في فزع^(١) يشف م كما تشف به ثبابه
 متأود حلو السما ثل من أساوره حقابه^(٢)
 زعم المخبر أنه ضربت على سماع^(٣) قبابه
 فطلبته كالآيم^(٤) أو كالسيل في الليل انسيابه
 فاذا أحمر المقلتين يشين أنمله خضابه
 يهتز مثل السمهرى م تدافعت فيه كعابه
 وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابيه
 أقبلت أسأله وأء——لم أن حرمانى جوابه
 ويلي على متلون ال أخلاق يعجبه شبابه
 لارسله تترى الي——نا بالسلام ولا كتابه

١٦ - وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابى
 فى الجنينة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التى رثاه بها حين موته :^(٥)
 أيعلم قبر بالجنينة أننا أقنأ به ننعى الندى والمعاليا
 حططنا فحيننا مساعيه إنها عظام المساعى لالعظام البواليا

(١) سحاب خفيف (٢) وشاح خصره (٣) جبل بالمدينة (٤) الثعبان.
 (٥) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى
 السكاظم الراجع بنسبه إلى الحسين بن على . نبغ فى الشعر يافعا وأكثرمته مبدعا حتى
 أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا ، وهم بين مجيد مقل أو
 مكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال ، تولى نقابة الطالبين فى حياة أبيه وله
 ديوان شعر كثير الأبواب حافظها ثم هو عالم ذو مؤلفات .

وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت
 نزلنا إليه عن ظهور جيانا
 أقول لركب رائحين تعرجوا
 ألموا عليه طافرين فأنما
 وقفنا فأرخصنا الدموع وربما
 ألا أيها القبر الذي ضم لحده
 هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
 وتلك البنان للمورقات من الندى
 هو الخاضب الأقالم نال بها علا
 مفيد ضراب باللسان لو أنه
 مرير القوى نال المعالي واثبا
 خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه
 ملأت بمحيالك البلاد فضائلا
 ١٧ - وقال التهامي المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف^(١)

قالت أنساك نجدا حب مطرف
 أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم
 وقد أخذت فؤادى قبل فاطمى
 فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى
 بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا
 فى الطول منه وحسن الليل فى القصر
 فقلت خبرك يغنينى عن الخبر
 فكيف أهوى بلاسمع ولا بصر
 هل فيه غيرك من أنثى ومن ذكر
 إلا هواك فلا تبقى ولا تدرى

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامي، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب

اللسان مشهور، له ديوان يغلب عليه المدح والثناء والنسيب .

يحكي جنى الأقيحوان الغض مبسمها
لوم يكن أقيحوانا ثغر مبسمها
أهتز عند تمنى وصلها طربا
تجنى على وأجنى من مرأشها
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها
فبات يجلو لنا من وجهها قمر
وراعها حر أنفاسي فقلت لها
فما نكرنا من الطيف الملم بنا
فسرت أعر في ذيل الدجى ولها
وللمجرة فوق الأفق معترض
وللثريا ركود فوق أرحلنا
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم
فروع السرب لما ابتل أكرعه
ولو قدرت وثوب الليل منخرق
١٨ - وقال مهبّار المتوفى سنة ٤٢٨ يمدح أبا القاسم الحسين بن علي المغربي
عند تقليده الوزارة وبهنته بالنيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد
سنة ٤١٤ (١)

(١) هو أبو الحسن مهبّار بن مرزويه الديلمي أحد من أسلم من نبغاء
المجوس ، وكان إسلامه على يد الشريف الرضي ، وعليه تخرج في الشعر لجاء على نحو
منه في جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية ، وقد فضل شعراء عصره ، وله ديوان
ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المديح فالنسيب فالهزجات

قد رفعت في بابل راية
يصيح داعي النصر من تحتها
جاء بها الله على فترة
لم تألف الأبصار من قبلها
فارتبعوا بعد مطال الحيا
وزارة قلبها شوقها
قمت بعناها وكم جالس
وهي التي إن لم تقدر رأسها
مزلة ركب سيسانها^(٢)
راحت على عطفك أثوابها
فتحت في مبهم تدبيرها
رد بنو يحيى وسهل لها
فاضرب عليها بيت ثاوبها
وامدد على الدنيا وجهها
واطلع على النيروز شمسها إذا
يوم من الفرس أتى وافدا
فاغرس ونوه منعما واصطنع
ولوفة الاعطاف لم تعسف^(٤)

للمجد من يلق بها يغلب
يا خيل محي الحسنات اركبي
بآية من يرها يعجب
أن تطلع الشمس من المغرب
وروضوا بعد الثرى المجدب
منك إلى حولها القلب
يكفيه منها سمة المنصب
بمحصدات الصبر لم تصحب^(١)
راكب ظهر الاسد الأغلب
طاهرة المرفع والمسحب
تنفس البلجة في الغيب
والطاهريون بنو مصعب
قبلك لم يعمد ولم يطنب^(٣)
ظلال حلم لك لم يعزب
ساق الغروب الشمس لم تغرب
فقاتل العرب له قرب
ترض مضاء الصارم المقضب
بالكلم المر ولم تعيب

(١) لم تسلس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يقيم عمودا ولم يمد طنبا

(٤) الولوفة اللامعة يريد القصيدة وهي مفعول لاصطنع.

جاءك معناها وألفاظها

في الحسن بالأسهل والأصعب

أفصح ما قيل ولكنها فصاحة تهدي إلى يعرب

١٩ - وقال المعري المتوفى سنة ٤٤٩ خاتمة شعراء العصر الثالث

يسجل رأيه في النساء^(١)

ترنم في نهارك مستعينا	بذكر الله في المترنات
ولا ترجع بإيماء سلاما	على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم	وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي	لقينك بالأساور معالم
وسام ^(٢) ماقتنعن بحسن أصل	فجئتلك بالخضاب موسمات
رأبن الورد في الوجنات خيا	فغادين البنان معنات ^(٣)
وشنفن المسامع قائلات	وكلن القلوب مكلمات ^(٤)
نخور الريق لسن بكل حال	على طلابهن محرمات
ولكن الاوانس باعنات	ركابك في مهالك مقمات
صحبك فاستفدت بهن ولدا	أصابك من أذاتك بالسلمات
ومن رزق البنين فغير ناء	بذلك عن نوائب مسلمات
فن نكل بهاب ومن عقوق	وأرزاء يجئن مصمات

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي المعري الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث ، الغنى كسلفه المتنبي فاتحة العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند والزموميات

(٢) جمع وسيمة وهي الحسنة (٣) مخضوبات كالغرم (٥) جرحنها متحدثات

وإن تعط الأناث فأى بؤس
يردن بعولة ويردن حليما
يلدن أحاديا ويكن عارا
ولا ترمق بعينك رائحات
فكم حلت عقود النظم وهنا
ولا تحمد حسانتك إن توافقت
فحمل مغازل النسوان أولى
سهام إن عرفن كتاب لسن
ويتركن الرشيد بغير لب
وإن جئن المنجم سائلات
ليأخذن التلاوة عن عجوز
فأبعدهن من ربات فكر
ولا يتأهلن شيخ مقل
فان الفقر عيب إن أضيفت
وواحدة كفتك فلا تجاوز
وإن أرغمت صاحبة بضر
وصن في الشرخ نفسك عن غوان
فقد يسرى الغوى إلى مخاز
وما حفظ الخريدة مثل بعل

تبين في وجوه مقسمات
ويلقن الخطوب ملومات
إذا أمسين في المتهمات^(١)
إلى حمامين مكلمات
عقودا للرشاد منظّمات
بأيد للسطور مقوسات
هن من اليراع مقلمات
رجعن بما يسوء مسمات
أتين هديه متعلّقات
فلسن عن الضلال بمنجات^(٢)
من اللأى فغرن مهمات
سواحر يفتدين معزّيات
بمعصرة من المتنعّيات
إليه السن جاء بمعطيات
إلى أخرى تجيء بمؤلمات
فأجدر أن تروع بمعزّيات^(٣)
يزرن مع الكواكب معتمات
بجنح في سحائب منجات
تكون به من المتحرّيات

يحور ذمارها ^(١) من كل خطب ويعنهما مصائب مقرمات ^(٢)
 إذا الغاران غرتهما ^(٣) بحمل فدينك بالتورع والصمات ^(٤)
 فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة والسمات
 ٢٠ - وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدي مدادا ويصف الدواء
 والقلم والقراطيس ^(٥)

اليك أشكو مشيبا لاح بارقه في فرع دهاء تجرى بالأساطير
 كانت مفارقها مسكا مضمخة فما لها بدلت منه بكافور
 ومقلة عهدت كحلاء مرهها طول البكاء على بيض الطوامير
 يا حبذا هي والأقلام واردة فيها وصادرة سحيم المناقير
 كأنما كرعت في ناظري رشأ أو في سويداء قلب غير مسرور
 تحوى القراطيس منهار وضة أنفا بها مفاخرة الظلماء للنور
 فكيف لي بخضاب تسترد به من الشبيه لونا غير مهجور
 لو أن صبغته فاز الشباب بها لما رمى الدهر فوديه بتغيير
 وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت إذا سمحت بها مثل الدنانير
 ٢١ - وقال الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد

(١) يسترحاها ويحفظه (٢) نهات (٣) الغاران النعم والفرج وغرتهم ما سددت هما
 (٤) الصمت (٥) هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن من فارس كاتب شاعر،
 لشعره طلاوة وبهجة في جودة سبك وحسن معنى، وكان أبوه الحسن يلقب صربغر
 لشحه فلما نبغ هو في الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح
 والنسيب والثناء .

أمرء الشام ويهنئه بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره عنه فيه ^(١) : —

ذم الزمان فما وجدت صروفه
صفحت نوائبه عن ابن مقلد
ولقد ألم به فأظهر فضله
راض الزمان فأصحبت أخلاقه
من معشر بذلوا النفوس سماحة
عادت بهم ظلم الخطوب مضيئة
لولا مخالطة الصوارم والقنا
قوم إذا استنجدتهم للممة
أسيافهم في راهط ^(٢) معروفة
يامن إذا ما زاد عن أحسابهم
خفض عليك فكم ظفرت بغاية
يبنى وبينك ذمة مرعية
فأصخ إلى وللهديث شجونه
ما أخرتني عن جنابك همة
لكنه قدر أناخ ركائي

إلا ذلولا في القياد وريضا
كرما فكيف ألومه فيما قضى
والنار لا تشتب حتى تحتفى ^(٣)
وأعاد صبغ شبابه لما نضا
وحوا بيوت المجد أن تنقوضا
والجذب موشى البرود مروضا
منع السماح أكتفهم أن تقبضا
ملأت عليك جيادهم رحب الغضا
منعت دعائم عزهم أن تدحضا
يوم النضال أصاب لما أنبضا ^(٤)
وكبا وراءك جاهد ما خفضا
حاشا مرأى عهدا أن تنقضا
حتى أثبتك ما أمض وأرمضا
وجدت من الالهواء عنك معوضا
قسرا وقيد همتي أن تنهضا

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي من شعراء الشام، أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الاول، وله ديوان ليس بالكبير،
(٢) يلهم جمرها بالحضي وهو الكود أو يقلب بالحضاً وهو العود (٣) مرج معروف بالشام (٤) حرك الوتر للرعى .

وعلمت أنك كالنسيم تخذل أبدا وليس يصبح حتى يمرضنا
فاغفر لـ... لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضنا
٢٢- وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج الملوك
محمود بن نصر المرداسي وما فيها من تصاوير^(١)

لك في العلاء محجة^(٢) لا يهتدى فيها الملوك وحجة لا تدفع
وخصمت في زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع
دار بها اكتست البسيطة زينة وزينها منك الأمام الأروع
ما زال مبصرها يعود بخادار يشكو الكلال وناظر لا يشبع
وترى. طيور الجو في جنباتها بعض حلقة وبعض وقع
وسوابقا ليست تفارق أوضها وكأنها تحت الفوارس تمزع^(٣)
بالمصليتين صوارما لا تعتدى واللابسين يلامقا^(٤) لا تنزع
رهط نضوابيض السيوف وآخر قد جر قوسا ليس فيها منزع
وسهامه لا تستطيع فراقها وحباله أبدا لطير مصرع
وزرافتان أقيمتا كلاتهما ترنو إليك بمقلة لا تهجم
وظعانى تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع
أبدا يقاد بها ويبدى عيسها وخدا حثيثا للنواظر يخدع
هل طاقها ما طينته فلم تسر أو راقها هذا الجنب الممرع

(١) هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفي الدولة
أحد شعراء الشام المحسنين وفحولهم المبرزين وكان منقطعا إلى آل مرداس
الكلابيين أصحاب حاب وله ديوان كبير جله مدح وما جاء من غيره جدد قليل
أو تباع. «٢» طريقة (٣) تعدد ومسرعة (٤) دروعا

وابن الملوخ قائم وسقامه ال — بادي طليعة ماتجن الأضلع
 يشكو إلى ليلي الغرام إشارة شكوى لعمر ك لم تهنها أدمع
 ومواضع فيها كعرضك وضح ثلجية الألوان بل هي أنصع
 ومن النضار بها سحائب حجة لزمت أماكنها فما تنقشع
 سحب جوامد قد أظلمت عارضا تحيا بصيبه البسلاذ وتمرع
 وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لا الغيوت الهمع
 روض على الأفواه يعسر رعيه لكن للأبصار فيه مرتع
 فابجح^(١) فانك أوحده الزمن الذي لم يفترق في أهله ماتجمع
 ٢٣ - وقال الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا^(٢)

وهاجرة سجراء^(٣) تأكل ظلمها ملوحة المعزاء^(٤) رمضى الجنادب^(٥)
 ترى الشمس فيها وهي ترسل خيطها

لتمتاج^(٦) ريا من نطاف المذائب^(٧)
 سفعنا^(٨) بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود المقادير شاحب^(٩)

(١) افرح غير مبال (٢) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي
 نسبة إلى الطغرى وهي الطرة التي ترسم في أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرسمها. وقد
 لقب بالاستاذ وبالمنشيء لجودة إنشائه، ووزر السلطان مسعود السلجوقي بالموصل.
 وكما كان فخر الكتاب كان نابغة في الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه في كثير من
 الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف، ولا ميته المعروفة بلامية العجم
 ذات مقام عظيم (٣) حامية (٤) مسودة لحصا (٥) محروقتها (٦) لتستقي (٧) بن
 صافيات الجداول (٨) حرقنا (٩) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير

فأما اعتسفنا^(١) ظل أخضر غاسق على قع الآكام^(٢) جون المناكب
وردنا سحيرا بين يوم وليلة

وقد علفت بالغرب أيدي الكواكب
على حين عرت منكب الصبح جذبة

من الشرق واسترخى عنان الغياهب
غديرا كمرعاة الغريبة تلتقى بصوحيه أنفاس الرياح الفرائب
إذا ما نبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب
بمنعرج من ريد عيطاء^(٣) لم نزل وقائعها يرشفن ظلم السحائب
تقبل أفلاذ الحيا وتكنها بطامية الأرجاء خضر النصائب
بعيس كأطراف المدارى^(٤) نواحل فرقناهم بالظماء وحف الذوائب^(٥)
نشحن به^(٦) عذبا نقاها كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب
رأين جمام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب
فكم قامح^(٧) عن لجة الماء طامح

إلى الفجر ظن الفجر بعض المشارب
إلى أن بدا قرن الغزالة ماتعا كوجه نظام الملك بين المواكب
٢٤ - وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بائيته التي سارت
بذكرها الركبان^(٨)

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط
(٥) غزيرتها (٦) شربنا منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي
الدمشقي شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء وأغلب ديوانه
مدح ورثاء ونسيب .

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رباها يطير بلبه
 وإياكما ذاك النسيم فانه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
 خليلي لو أحبيتما لهما محل الهوى من مغرم القلب صبه
 تذكر فذو الذكر يشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
 غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
 وفي الركب مطوى الضلوع على جوى متى يدعه داعي الغرام يلبه
 إذا خطر من جانب الرمل نفحة تضمن منها داء دون صحبه
 ومحتجب بين الأسنان ممرض وفي القلب من إعراضه مثل حجه
 أغار إذا آنت في الحى أنه حذارا وخوفا أن تكون حبه
 فيا السقامي من هوى متجنب بكى عاذلاه رحمة المحبه
 أهيى إلى ماء بركة عاقل^(١) ظمئت على طول الورود بشربه
 وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللوى وقد أودعتنى السقم قضبان كتيه
 ولست على وجدى بأول عاشق أصابت سهام الحب حبة قلبه
 ٢٤ - وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ هـ مدح شرف الدين أبا الحسن على
 ابن الحسن البیهقي^(٢)

أرى الخلق متفقاً في الهوى ومختلفاً في النى والمن
 فراعى حقوق وراعى حقائق وبانى معال وبانى مدن
 وإنى لأكره مدح الورى ويشغلى عنه هجو الزمن

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق إبراهيم بن يحيى الكلبي أقام
 بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم
 غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

ولكن دعيتي فليمتها خلال أبي الحسن بن الحسن
غريب وإن كان في داره وفقد النظير كلفقد الوطن
يقوم الرجاء بتعويلنا عليه وبالروح قام البدن
على العلا وظهير الندى إذا لم تمد بضبعي فمن
كلامي سلافة أهل العراق وصيتي عرافة أهل اليمن
ومن كل هزة ذي هممة تعلمت الريح هز الفن
بمسالك رميت التقاط النجوم وأملت للضرع رد اللبن
وكنت امرأاً رخص النفس في هواها وأغلى بنات الفطن
فخرج على أملى قبل أن يزيد الملام وتقوى الأحن
فأنت المبرز في الحالتين بنظم القريض ونظم المنن
ومن جعل الشمس خريته كفته التماس وضوح السنين

٢٦ - وقال الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤ هـ هجو أهل زمنه ويصف
سوءهم (١)

ومعشر شرهم دان وخيرهم مكان بدر الدجى من باع معتنق
أدى إليهم خلو الربع من أنس وطالما كرع الظمان في الرنق
قل للذي شخسه في القصر محتجب وعرضه الدهر مطروح على الطرق
يشري الثناء ولا يعطى به ثمنًا وذلك مبلغ رأس الجاهل الحق
لحاكم الله من أغصان عارية من الندى والجنى والظل والورق

(١) هو القاضي ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني شاعر مكثار
في رقة لفظ وجودة وصف وله ديوان على ضخماته يقال إنه لم يجمع عشر شعره
وهو متصرف في كثير من فنون ولا سيما المدح والنسيب والوصف .

إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما
ونسيتك إذا ازوروا مسامعهم
مدائح لا تقاها الشر تحسبها
أعناقكم ماؤها درى وليس لكم
وما خلقنا حمامات فنطربكم
والله لو لا محاماتي وإن لؤموا
إذا لسارت بما يخزيهم كلام
إذا شذنت على عرض أو أبداها
تهتز منهن أعطاف الورى طربا
كالسيف يحمده غير القتييل به

وإن تركناهم ناموا على حنق
بكل منظومة كاللؤلؤ النسق
رقيا العقارب تكسو أوجه الورق
وأحمد الله أدنى المن فى عنق
سجعا ونملك أطواقا من الحلق
على الكريمين من نفسى ومن خلق
أربها من حواشى مقول نطق
أجلين عن قددمنه وعن مزق
إلا الذين أباتهم على قلق
يوم الجلال إذا ما احمر من علق

٢٧ - وقال الأبيوردى المتوفى سنة ٥٥٧ يفتخر بقومه وأوليته (١)

أنا ابن الأكرمين أبا وأما
أشد هم إذا اجتلدوا قتلا
وأرجحهم إذا قدروا حلوما
وأصلبهم لدى الغمزات عودا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا
يكبون العشار لمعتفيهم
ويثنون المغيرة عن هواها

وهم خير الورى عما وخالا
وأوثقهم إذا عقدوا حبالا
وأصدقهم إذا افتخروا مقالا
إذا الخفرات خلين الحبالا
إلى الاقران وابعدروا النزلا
وبروون الأسننة والنصلا
إذا الوادى بظعن الحى سالا

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى نسبة إلى أبيورد بخراسان وهو
سفياني كان رواية نسبة شاعر رقيقا قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات
ولق شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسيب .

ويحتقبون أعماراً قصارى
على أثباج مقربة تمطت
نجروا السمر راجفة صدورا
بأيدي يستشف الجود فيها
وهم فتحو البلاد بيارات
ولولا هم لـ — ادرت بفيء
وقد علم القبائل أن قومي
وأصرحهم اذا انتسبوا أصولا
مضوا وأزال ملكهم الليالى
ويمتقلون أرماحاً طوالا
بهم ورعاهما تنضو الرعلا
وقادوا الجرد راعفة نعلا
تفيد محامدا وتفيد مالا
كان على أغرتها نمالا
ولا أرعى بها العرب الفصلا
أعزم وأكرمهم فعلا
وأعظمهم إذا وهبوا سجلا
وأية دولة أمنت زوالا

٢٨ - وقال عمارة البني المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك^(١)
فتمل دارا شيدتها همة
جملتها وتجملت مصر بها
فاقت على الأطلاق كل بنية
وسقيت من ذوب النضار مسقوفها
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا
وبها من الحيوان كل مشهر
وكان صولتك المخوفة أمنت
يغدو العسير بأمرها متيسرا
لما علت بك عزة وتكبرا
وسمت فما استثنت سوى أم القرى
حتى لكاد نضارها أن يقطرا
والنخ — ل والرمال إلا مثمرا
لبس الوشيح العبقري مشهرا
أسراها ألا نراع وتذعرا

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن علي الحكيم البني العالم الأدب
الشاعر المجيد، استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمي
وزيره طلائع الدين صالح بن رزيك. ومعظم شعره مدح فيها ولما ملك صلاح
الدين صلبه فيمن صلب

أنشأت فيها للعيون بدائعا
فمن الرخام مسيرا ومسهما
والعاج بين الآبنوس كأنه
قد كان منظرها بهيا رائقا
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلا
ألبستها بيض الستور وجرها
فجالس كسيت رقيما أبيضاً
لم يبق نوع صامت أو ناطق
فيها حدائق لم تجدها ديمة
والطير قد وقعت على أغصانها
لا تعدم الابصار بين مروجها
أنست نوافر وحشها بسباعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبية المنشأ^(١) تريك من المها
جبلت على الأقماع من أعجابه
٢٩ - وقال ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر
يصف غامانه الأتراك^(٢)

(١) المسير المخطط بصفرة، والمسهم المخطط بسواد، والمنمنم المنقط ببياض، والمدرم المشبه الدرهم، والمدنر المشبه الدينار (٢) مرقع خصب للوحش لأنها اربعون ميلا لا منزل فيها بين مكة والبصرة (٣) مسهل المنشأ (٤) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بسبط ابن

القائد الغلب^(١) الحكمة عوا بسا والبيض في أيمانهم تبيس
سيان سلمهم وحرهم فما ينفك يقطر من أكتفهم الدم
ترك اذ لبسوا الترائك^(٢) أيقنت صم العوالي أنها ستعظم
يزداد إشراقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقم
فهم إذا حسروا ظباء خميلة

وهم أسود شرى إذا ما استلأموا^(٣)
ركبوا الدياجي^(٤) والسروج أهلة وهم بدور والاسنة أنجم
وكان إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحب مظلم
من كل من بجباله نار الهوى وببأسه نار الوغى تتضرم
في ثني ردة قضيب نقى وفي الد م رع المفاضنة منه طود أيهم^(٥)
بشر أرق من الزلال وتحتة كالصخر قلب لا يرق فيرحم
يصمى الخلى^(٦) بطرفه وبكفه يصمى الكمي فجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن في أنوابه علم وطورا في الكتيبة معلم

٣٠ - وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين

عيسى بن أبي بكر الايوبي ، الروم بشعر دمياط وطردهم منها^(٧)

التعاويذي نسبة إلى جده لأمه أبي محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف
بابن التعاويذي لأنه كفله صغيرا . كان شاعرا وقته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه
بنفسه في المدح والذم والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه القنون فيه
المدح (١) الشجعان جمع أغلب وهو الأسد (٢) جمع تريكة وهي البيضة كتركه
(٣) ليسوا اللأمت وهي الدروع (٤) يعني الخيل السود كالدياجي
(٥) أصم صعب المرتقى (٦) يرميه فيقتله (٧) هو شرف الدين أبو العباس

سألو اصهوات الخليل يوم الوغى عنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا
قد اتفقوا رأيا وعزما وشمة
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت
عليهم من الماذى ^(١) كل مفاضنة

دلاص ^(٢) كيقرن الشمس قد أحكمت وضمنا ^(٣)

وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
رأو ^(٤) الموت من زرق الأسننة أحمر
منحنا بقاياهم حياة جديدة
ولو ملكوا لم يأكلوا في دماننا
وقد جربونا قبلها في وقائع
فكم من مليك قد شددنا إساره
وكم يوم حر قد لقينا هجيره
إلينا سراعاً بالجياد وأرقلنا
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
وكيف ينام الليل من فقد الأماننا
طويلاً فما أجدى دفاع ولا أغنى
فألقوا بأيديهم إلينا فأحسننا
فماشوا بأعناق مقالة منا
ولو غا ولسكننا ملكنا فأسججنا
تعلم غمر الموت منابها الطعنا
وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
بصبر وقر ما طلبنا له كنا

محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الانصارى الدمشقى . كان
أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته إلى الوزارة بدمشق وكان ربحانة شعراء
عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسيباً .

(١) الدروع البيضاء (٢) لينة ماساء (٣) نسجا (٤) بضم الهمزة قبل الواو

ضرورة وأصلها الفتح

فان نعيم الملك من شظف الشقا يسير بنا من آل أيوب ماجد
لعمرك ما آيات عيسى خفية سري نحو دمياط بكل سميدع
فأجلى علوج الروم عنها وأفرخت وطهرها من رجسهم بحسامه
مآثر مجد خافتها سيوفه لقد عرفت أسيافنا ورقابهم
٣١ - وقال البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ « عام زوال الخلافة العباسية

من بغداد » يصف تلفه على حبيبه وإعراض حبيبه عنه^(٢)

يعاهدني لآخاني ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه فيا معشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صاني يقول نعم غدا ويكسر جفنا هازئاً بي ويعبت
وماضى بعض الناس لو كان زارني وكنا خـلونا ساعة نتحدث
أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكث
نخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن أموت مرارا في النهار وأبعث

(١) مسهل الأهنأ (٢) هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبى
نشأ بالحجاز قرب مكة ثم رحل إلى مصر قبيل العشرين فعاش بها واتصل
بالملك الصالح نجم أيوب فولاه ديوان الانشاء وكان فوق اجادته الشعر شاعرا مكشارا
جمع شعره بين الطبيعة العربية والرقعة المصرية وديوانه مليء بفنون الشعر الذي
يمثل البيئة المصرية تمثيلا ليس له فيه من نظير .

وإني لهذا الضيم منك لحامل ومنتظر لطفك من الله يحدث
أعبدك من هذا الجفاء الذي بدا خلائقك الحسنى أرق وأدمث
تردد ظن الناس فينا وأكثروا أقاويل منها ما يطيب ويخبث
وقد كرمتم في الحب منى شمائلي ويسأل عني من أراد ويبحث

ثانيا - حياته

لم يزل الشعر وما زال في كل عصر مرآته الصافية التي تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ، ولأن رجاله أدق الناس شعورا وأرقهم وجدانا . ولذا رأيت في الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعنى ، حتى عد المؤرخون ديوانها وسجلها . ورأيت في صدر الإسلام قد بقي كما كان فيما بقي ، وحاد عن الخوض فيما ترك ، وتلون فيما تلون على شاكلته وقراره . ثم رأيت في العصر الأموي قد جنح جنوحا قويا إلى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصرا على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء في العصبية والسياسة تأييدا ومعارضة ، وفي رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحا وهجوا ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل ، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه في هذين العصرين الإسلاميين لم يعتمد كثيرا عما اختطه له العصر الجاهلي لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبتهما وبدائتهما بقوة حادث بهما عن التأثير الكبير بما سواها . أما في العصر العباسي الذي اختط عاصمته في ديار الأعجم واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج

واتخذ منهم بدل العرب ، الوزراء وسائر الأعيان ، حتى تغير بذلك نظام الحياة إلى ما شرحنه آنفاً في الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مراعاة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهوراً بينا يخالف ما كان لماضيته في الأغراض والمقاصد ، وفي المعاني والأخيلة ، ثم في الألفاظ والأساليب ، على ما سترى في هذا البيان الذي يتناول على ما يسمح المقام ، تفصيل ما يخص الشعر فيما أجهلنا سابقاً من تأثير اللغة في هذه النواحي الثلاث .

١ - ناحية الأغراض والفنون

لعله من المألوم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التي كانت أهم أغراض الشعر في العصر الأموي أن نبدأ بها الآن في هذا العصر العباسي ، وبعدها نزجى القول إلى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ - العصبية والسياسية - أحييت الدولة الأموية العصبية وكانت أقوى ما تكون بين اليمنية والمضرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيساً ، فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة ، وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام ، حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها ، وقد زاد العنصر اليمني قوة على المضري أن أم السفاح كانت منه - ولذلك خلفه أبوه قبل أبي جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم ولد - هذا مع من انضم إلى شعراء اليمن العرب من الموالى الذين كانوا ينتمون إلى قبائله ولواءهم كثير منهم أبو نواس الحكيم الذي يقول فيهم :

وقد نأخفت عن أحساب قومهم ورثوا مكارم ذى نواس
فإن تك أوقدت للحرب ناراً فما غطيت خوف الحرب راسي

سأبلى خير ما أبلى محام إذا ما النبيل ألجم بالقياس^(١)
 فما بال النعاج نجت بشتمى^(٢) وفي زمعاتهن دم الفراس^(٣)
 وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس
 غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعاذة هذين العنصرين العربيين مما
 كان من شأنه أن يخضع شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن
 تبقى الصولة لمصر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ، ولذا بقي الفخر
 لها وحدها دون اليمن حتى على السنة الخلفاء الذين ينبغي أن يكونوا
 آخر المتعصبين كما نلمح ذلك في قول ابن المعتز مفتخرا :
 إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا وسارت ورأى هاشم ونزار
 وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
 وقد استغل العباسيون الشعر في تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من
 آل على كما كان يفعل الأمويون ، فقبول شعراؤهم الموالون أمثال مروان
 ابن أبي حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء
 المعارضين الذين يتعصبون لآل على ، كالسيد الحميري ودعبل الخزاعي
 ومسلم بن الوليد ، وطالت الملاحاة بين الطبقتين في شدة واحتدام كما
 ترى في هذين المثلين :

قال مروان يخاطب بني على طالبا اليهم تخلية الطريق لبني العباس :
 خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام
 وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثته كل أصيد حامى

(١) جمع قوس (٢) صوتت به (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثۃ الأعمام^(١)
وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا ونقضا

قال الظاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازما فيه لوقت خصام
كان التراث لجدنا من دونه فخواه بالقربى وبالإسلام
حق البنات فريضة معلومة والعم أولى من بنى الأعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى نقضه زائدا أيضا

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثۃ الأعمام
للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام
ما للطليق والتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام

وذكر صاحب الأغاني أن بيت مروان الأخير هذا، كان السبب فى قتله، فقد روى
عن حدثوه عن عطية الأضجهم أنه قال « لومت مروان لما قال هذا البيت
وحادته الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك، ومازلت ألاحظه وأبره
وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا، وعرفت ذلك بنو حنفصة
جميعا، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرفة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر
له الجزع عليه وألأزمه وألأطفه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت
بمقلقه فما فارقتة حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه
ميتا وارتفعت الصبيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن
بما فعلت أحد ولا أتهمنى به »

إذا أنالتم أحفظ وصاة محمد ^x ولا عهدده يوم الغدير المؤكدا ^(١)
 فان كن يشرى الضلالة بالهدى تنذر من بعد التقى وتهود
 ومالى وتيم أوعدي وإنما أولو نعمتي في الله من آل أحمد
 تم صلاتي بالصلاة عليهم وليست صلاتي بعد أن أتشهد
 بكاملة إن لم أصل عليهم وأدع لهم ربا كريما مجيدا
 بذلت لهم ودي ونصحتي ونذرتي ماى الدهر ما سميت يا صالح أحمد
 وإن امرأ يلجى على صدق ودهم أحق وأولى فيهم أن يفند
 فان شئت فاختر حاجل القم ظلة والا فأمسك كى تصان وتحمدا
 وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العبادى من تقريب ، ما كان ماله
 نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الاموى ، فأخذوا يفاخروهم
 ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم ما يقولون ، حتى نشأت
 عصبية أعم من السابقة بين العرب والعجم ، قوى فيها سلطان العجم
 لنفوذ الفرس وكثرة شعراء الموالى . فعان أمر الشعوبية وصار لها
 شأن خطير ، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن ^(٢)
 والخريمى ^(٣) وغيرهم ، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء ، أمثال

(١) يعنى غدير خم بين مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على بن أبى طالب وقال لمن معه ألسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال فن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وهذا حديث يدفعه غير الشيعة (٢) هو عبد السلام بن رغبان ابن عبد السلام الحمصى .
 (٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مول آل خريم المريين الذين

يزيد المهلبى ولكنهم قليل وهاك مثاين مما كان يقال .
دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوس فتنقص الموالى أمام
بشار فقال بشار .

خليلي لا أنام على اقتسار	ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الاعراب غنى	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع	بنى الاحرار حسبك من خسار
وكنيت إذا ظمئت إلى قراح	شركت الكلب فى ولغ الاطار ^(١)
تريغ ^(٢) بخطبة كسر الموالى	وينسيك المكارم صيد فار
وتغردو للقفاز قدريها	ولم تعقل بدراج الديار ^(٣)
وتتشح الشمال للابسيها	وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا	فليتك غائب فى حر نار
ونحرك بين خنزير وكلب	على مثلى من الحدث الكبار

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على
بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى

لما اعتقدتم أناسا لاخلوم لهم	ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم	حملتكم السادة المذكورة الحشد
قومهم الجذم والانساب تجمعهم	والنجد والدين والارحام والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهم	بغير قحطان لم يبرح به أود

(١) خليط من دم ورماد تلطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمات طائر

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة في رأسه صيد
خليفة لم ينل ماناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وترو الناس طرا ثم قد صمتوا حتى كأن الذى نيلوا به رشد
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما يبألون مانالوا اذا حمدوا ؟
وقد ضعف أمر هذه العصبية جميعا بتغلب الأتراك على العرب في
العصر الثانى ثم بالحلل الدولة إلى دويلات في الثالث إلا ما كان من الأشادة
بالعلوية في مصر أيام الفاطميين وبالعربية في الشام أيام الحمدانيين على
أن هذه الأشادة لم تلبث أن زالت في العصر الرابع الذى تملك فيه
الأتراك شرقا والأكراد غربا

٢ - المدح والهجاء - وكما فى الشعر السياسى فى المدح والهجاء
على العهد الأموى فأصبح لهما تبديعا لا استقلال له ، لم يلبث أن صار
كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى
حب الثناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة
لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا
كثر قائلو المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش
والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجارات ذوى اليسار
والبنخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة ^(١) ومن ثم هجروا

(١) ذكر صاحب الأغاني أن سلما الخاضر خلف روة مقدارها خمسون
ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان
أكثر من ذلك ومثلهما فى هذا جهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا
بفوقونهم كسبا ولكنهم لا يبقون على شىء كأبى نواس

مواطنهم الأولى وأقاموا في بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجزل
العطايا وأسنى الصلات حتى من الخليفة المنصور على ما كان مهروفا
به من التشدد في خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقييل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كالكم إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذن في الراس
قال له بأى شيء تحب أن أعينك قال تملأ لي هذه الخريطة دراهم
فلئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدي أخذت الأموال تتدفق على الشعراء .

قيل دخل عليه عمرو بن سلم الخاسر فأنشده
أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلا ونائلا كأنهما عدل النبي ونائله
فقال له أما ما ذكرت ياسلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي
هذا ، وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه ، وإنني
لا تحراه جهدي . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .
ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب منكم بخلافة كالدهر يخلط لينه بشماس
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده
أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتفتدي
هذا الخليفة جوده ونواله نفد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً .
وقد أعطى ابنه الهادي عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة
سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي حين حصل عايه وكان مغرماً
باقتناء السلاح وسيأتي هذا الوصف

أما الرشيد فقد غطى في ذلك على ما كان لأبيه وأخيه .
مدحه مروان بقصيدة يقول فيها

وسدت بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسامين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى المساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن يدوهو صاغر
ترى حوله الأُملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتة وأمر له بعشرة من رقيق
الروم وحمله على برذون من خاص مراكبه . ثم كان جوده على الشعراء
يجاوز كل أمل في محافل البيعات

وكذلك كان أبنائه الأُمين والمأمون والمعتصم ولا سيما المأمون
على طول مدته في الخلافة قال لمحمد بن الجهم يوماً أنشدني ثلاثة أبيات
في المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده في المديح
يجود بالنفس إن صن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وأنشده في الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح الخبر
وأنشده في الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان الشعراء، الواثق والمتوكل ابن المعتصم وبخاصة المتوكل، ومدائح البحتري فيه وعطاياه للبحتري مما ضربت به الأمثال، ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء في ذلك، الأمراء والوزراء، وأخبار آل برمك في هذا أشهر من أن تذكر أو يناها تعداد، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم في نفس الرشيد.

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالنماذج في مدحتي مسلم وأبي تمام

هذا وإذا كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره، أن يتخذ الهجو عصا في هذا الباب يهيب بها على المفاطين، وينال بأذاها البخلاء والمنايعين، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المديح، على أن مما أكثره غير ذلك، تحاسد الشعراء وما أنتجه في نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجربير وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبية الماضية وما خلفته من ألوان الهجاء. ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان

يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلًا حين هجاه بقوله :

أيسومني المأمون خطبة عاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائف مثل ما	توفي الجبال على رموس القرد
وبجل في أكناف كل ممنع	حتى يذلل شاهقا لم يصعد
إن الترات مسهد طلابها	فاكفف لعبك عن لعب الأسود
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذلك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد
لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت خاملا وفي حجر اخلافة ولدت
وبدرها غذيت، وفي مهدها ربيت »^(١) فتزل الشعراء لذلك في عهده -
كما تزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والمصبيات - إلى الاقتداع في
التهجو والبذاءة في الألفاظ، وقد جعلهم يغاون في ذلك أشد غلو، ضعف
الوازع الديني وما جرت به مثالب المدنية على النفوس من الانغماس في مفاصلها
والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقابح في الحضيض.
هذا إلى أن التسابق في التهجي كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض
دون أن يتركز في نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواء

قال بشار يهجو المهدي ويحرض على وزيره يعقوب بن داود :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صنعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سميابة بالبخل

أصبحت أجوع خلقي الله كلهم وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعنا
إني أحذركم من خبز صاحبتنا فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعنا
وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خالخالاً

« ١ » روى أن أبا سعد الخزومي دخل على المأمون وأنشد شعرا دعبلا هذا

ثم قال « أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك رأسه » فقال له « لا ، هذا رجل
يخر علينا فانخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا » .

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
 وشاع هجؤهم بدمامة الخلق كما قال البحتري يذم بكبر الأنف
 رأيت الخشعي يقل أنفا يضيق بعرضه البلد الفضاء
 سما صعدا فقصر كل سام لهيئة وغص به الهواء
 هو الجبل الذي لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء
 وقد ساد الهجاء المديح في العصر الثاني لقلة الأجواد وعدم معرفة
 ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكتناز
 من هجو الناس والزمن ، ونبع في هذه الناحية ابن الرومي نبوغا لم يصله
 سواه كما رأيت في ذمه ابن المدبر أنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء
 زمنه لبيخلمهم على مدحه لهم ، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخوا كلابا غير ذات خلاق
 ردوا على صحائفها سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
 ما كان مثلي مادحا أمثالكم لولا اتهامى ضامن الأرزاق
 أسخطت خلاق البرية فيكم فباغتم منى رضا الخلاق
 أغرقت في نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالأغراق
 ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدي
 حكام الدويلات وعظماء رجالها ، فتسأبق الفواطم والحمدانيون وآل بويه
 في الاغداق على الشعراء ، وبذلك بلغ المدح الذروة التي ليس فوقها ارتفاع ،
 ولا سكن مع بقاء الهجو مسائرا له إذ لا غنى عنه في تقرير اللؤماء .
 قال المتنبي يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن
 حمدان بالماذج

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في بد النخاس دامية أم قدره وهو بالفاسين مردود
غير أن حال الشعر عادت في العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة
على الحكام فالتفت الشعراء عداوتهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر
التصوف بالغزل في ذات الله ومدح النبي والخلفاء

٣ — الغزل — لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسي عما كان له
في عصر بني أمية ابتعادا كثيرا لم يحادث مثله للفنين السابقين معه ،
وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التي
تعدت الطبقة العليا إلى مادونها من سائر الطبقات فبات بذلك المنسحب
العذري ولم يعد يظهر الا على السنة القليل كالعباس بن الأحنف وقد
رأيت له قصيدة فيه . أما جهرة المتغزلين فقد انساقوا وراء المتعة
والأباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى في الغزل اللاهني أيام
بني أمية ، من كشف في الوصف ، وتبذل في القصة ، وخش في الانفاذ ،
كما يقول بشار في معشوقته فاطمة

عجبت فاطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلاتي من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا نقبي ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتا علمنا في خلوة نقضي الوطر
أقبلت مغضبة تضر بها واعتراها كجنون مستعر

بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر
وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغم ان استمتعاهم بالنساء،
أن يتغزلوا في المذكر كما يتغزلون في الاناث ، وتلك عادة سيئة قدرة
كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسدة الموالي ومن لف
لفهم من ذوى الأباحة والمخننين ، كأبي نراس وحماد مجرد ومطيع بن
اياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع
على الشراب مع القيان والغلمان ، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر
ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق ، ولا يزعمهم دين ، فكان
غزلهم دعاة وعهرا ، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق.
قال أبو نواس العاهر في غلام :

يا بدعة في مثال	يجوز حد الصفات
فالوجه بدر تمام	بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام	والغنيج غنيج فتاة
مذكر حين يبدو	مؤنث خلوات
زها على بصدغ	مزرفن الحلقات ^(١)
من فوق خد أسيل	يضىء في الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليل في غلام يستحم

وأبأبي أبيض في صفرة	كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة	تلوح فيها عكن بذه
غصن تبدي يتثنى على	مأكمة مثقلة النهضه

«١» زرفن صدغه ، جعله مستديرا كالزرفين بالضم وهو حلقة الباب

كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضه
صفاته فائدة كلها فبعضه يذ كرني بعضه
وقد أنتج الانحدار في هذه الجملة القدرة ، وصف محاسن المذكور
كالعذار ^(١) وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة ، مع الاسترسال في هذه
السبل بصراحة في الوصف والحكاية ، صارت سبة للأدب العربي وقضى
في عيون قارئيه . ثم كان أن محمد المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه
بصورة المذكر ، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس
ياقبرا أبصرت في مآتم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه المآتم لى كارها برغم دايات ^(٢) وحجاب
لأنبك ميتا حل في قبره وابك قتيلا لك بالباب
وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الجملة التي وجهت إلى ما كان
من ابتداء القصائد في كل الأغراض ماءدا الرثاء بما كانت تبدأ به إلى هذا
العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتألم لفارقة
أصحابها لها وسير الابل مفرقة أو محقة لقاء ، مع ما يأتي خلال ذلك كله
من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزالي فنقول : إن أول من قادها
أبو نواس ^(٣) فقد رفع عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم

« ١ » من ذلك قول بعضهم

أيا قراء من شمس طلعة وجهه وظل عذاريه ، الدجى والأصائل

« ٢ » جمع داية وهى الظئر أى الموضع واستعمل فى العاطفة على ولد غيرها

« ٣ » قيل إن أول من تنبه إلى ذلك مطيع بن إلياس وقد اجتمع بفتى من

ويطلب إليهم في سخرية لا ذعة هجره إلى ما أصبح هلافا من جديد .
كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :

تبكى على طلال الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار في الرسم فيقول :

دع الرسم الذي دثرا يعانى الريح والمطرا

ألم تر مابى كسرى وسابور لمن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الحمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا في قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كطالعه :

لا تبك رسما بجانب السند ولا تجدد بالدموع للجرد

ولا تعرج على معطلة ولا أئاف خلت ولا وتد

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد

مهمد صفقت نمارقه فى ظل كرم معرش خضد

ثم اصطبغ من أسيرة حجبته عن كل عين بالصون والرصد

محبوبة فى مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

أو مكتفيا بالتنبيه تارة كطالعه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتنى زينب وكعوب

أهل الكوفة ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن فقال مطيع

لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه زعى

ولكن سبتني البابلية إنها لمثلي في طول الزمان سلوب
وكثيرا ما كان يقصد إلى الخمر قصدا كان يقول :

X دع عنك لومي فإن اليوم إغراء ودواني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحران ساحتها لو مسها حجر مسته سراء^(١)
ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب
أعر شعرك الأطلال والمنزل الفقرا

فقد طالما أزرى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أردله أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا
وقد أثرت هذه الجملة في شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه
فيها كل ذي هوى للخمر ، وابتدأ بالمقصود في القصيدة من صد عنها ، إلا
طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين في الابتداء ، واستحدث الجميع
المعاني إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو في المعنى المراد
كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سايمي وأمسي حبابها انقبضا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا
في بذل المال للثناء :

قالت سلامة ابن المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
هذي سبيلي وهذا فاعامى خلقي فارضى به أو فكوني بعض من غضبا

« ١ » نرى أن ثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ، مثلا لما طالما

نبهنا عليه من الفحش في المعنى والابتداء في اللفظ وهو

من كسف ذات حر في زي ذي ذكر لها محباب لوطي وزفاء

وقد استمرت المبادئ على هذه الأنحاء طوال العصر الثاني بعد الأول، ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريباً في العراق وفارس وخراسان وعادت إلى القديم في الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول في جميعها إلى هذا المنزع الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذري القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت في قصيدة ابن الخياط.

هذا - ولقد كان للشعر منذ العصر العباسي الأول جولات واسعة في فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة: وجاء بعضها أول ما جاء نتيجة لها، كالنثر الذي دفعته إليه العصبية، والمجون الذي أنشأه الاستهتار، والخرجات التي شغلت المطالع أولاً واستقلت بعد بسائر القصيد، وجاء بعضها مستقلاً عنها كالرثاء والزهد والصفات. فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الإجمال.

١ - الفخر - حالف الفخر العصبية منذ العهد الجاهلي إلى آخر

العصر الأموي وكان ينزع فيها جميعاً عن الحسب والنسب وليسكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غالبة على النسبية العصامية حتى العصر العباسي الأول الذي قامت فيه الشعبية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم، ثم توارى الأمران تقريباً في العصر الثاني وعادا إلى الظهور كفرنسي رهان في الثالث الذي حظى الفخر فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبي وأبفراس والشريف الرضي وأبا العلاء، فقد جمعوا في مفاخرهم بين المظهرين وإن كان المتنبي دونهم حاد بعض الحيدة عن الأحساب، ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات

الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت في مملكة اليايوردى
بسفليانيتها أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما سياتى
لابن سناء الملك . وهذا مثل لمن لم يتقدم له نخر من تلك الشخصيات

قال المتنبي من قصيدة

ما مقامى بأرض نخلة^(١) إلا ك مقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن م قيصى مسرودة من حديد
أنا رب الندى ورب القوافى وسام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله م غريب كصالح فى ثمود

وقال الرضى من قصيدة

أنا من عانت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل
قوى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلج بمثل أو آخرى وأوائلى^(٢)
نحن الولاة العادلون ولم نزل آثارنا حلى الزمان العاقل
وإذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

وقال أبو العلاء من قصيدة

وكم من طالب أمدى سيلقى دوين مكالى السبع الشدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويقدح فى قلمبها زنادا
ويطعن فى علالى وإن شسمى ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

٢ - المجون - كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر
العباسى كما قلنا : الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والألحاد،

(١) موضع بمجنوب الشام (٢) أسبق بهم وأظفر

واستهمتر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد ، ثم استهزأ بالعرف فكان
الفحش في المعاني والبذاء في الألفاظ . وشياطينه الأثايل وغارسو
بذوره هم تلك الطائفة التي ذكرنا في الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غزا البيئات العربية من الآراء الفلسفية
المختلفة ، والاباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان في كل
شيء ، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواج الأديان ، ذكروا أن مطيع
بن إلياس مر ببجي بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتجادلان فقال لهما فيم
أنتما قالوا في قذف المحصنات فقال « أو في الأرض محصنة تقذفانها »
كما ساعد عليها أيضاً ما كان يعقده بعض الأمراء والوزراء من مجالس
الشراب والندامة التي يحضرها أمثال هؤلاء فيعمر ونهب بالتهتك والخلاعة
وبما كونها في صورة أشنع منها بمنازل بعضهم ، كما كانوا يفعلون في منزل
إسماعيل القراطيسي بالكوفة . ولقد جرت صيحة هؤلاء إلى إفساد كثير
من أبناء الخلفاء ، فالأغاني يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن
إلياس ، ومحمداً الأثمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك . ولم يلبث
اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها في أذهان الناس بما نقل واستنبط
من حقائق فلسفية مختلفة في الدين والرياضة والفلك والطب وسائر
العلوم ، أن فصل ذوى المجانة في الدين عن مجان الفضيلة والعرف ، فكان
من الأولين طائفة الزنادقة الملاحدين الذين كان دأبهم التشكيك في
حقائق الدين بشكل جدي لا مجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان
ابن عبد الحميد وعمار بن حمزة وغيرهم ، وكان من الآخرين مجان الهزل
الذين دأبهم التضحيك كما ذكرنا مع أبي نواس . ومن أمثلة مجونهم

قول دعبل عن ديك له أخذه صالح ~~المرثي~~ لضيوفه .

أُسِرَ المؤذن صالح وضيوفه أُسِرَ المكي هفا خلال الماقط^(١)
 بعثوا عليه بناتهم وبنينهم ما بين نائفة وآخر سامط
 يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط^(٢)
 نهشوه فانتزعت له أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالحائط
 وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير في العصر العباسي الثالث
 ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن
 سكرة الهاشمي وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج ، ومنهم بالشام
 أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي . فمن مجون ابن سكرة قوله في
 جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطاً لكثير من مجونه

هل لك يا خمرة في تجرة مربحة ما مثام — ما تجره
 سيرى إلى البصرة واسترزق ربك بالنكمة في البصره
 يزكو بها النخل وتحمر في غير أوان الحمة البصره
 ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلف
 أين نصيبي من الطعام وما طمعت في لعقة من المرقه
 أشفقت منى وكان يقنعني عندك ما ليس يوجب الشفقة
 قطعة لحم في وزن خردلة على رغيث كأنه ورقه
 ومن مجون أبي الرقعمق قوله عن قيادته من قصيدة .
 فأطيب العيش كان عندي أيام للفسق قلدوني

«١» بالتسهيل ، مكان الصراع ومفعول أسرو وهو الديك ~~المرثي~~ «٢» خاقان لقب
 ملك الترك ، وناعط هو ربيعة بن مرثد الحمداني صاحب مخلاف باسمه

وكننت طبيا به بصيرا وأقود الناس في سكون
فكم غزال أخذت قسرا وكم مليح حوت يميني
والناس يسمعون نحو داري من كل أرض ويقصدوني

٣ - الخمریات - قلنا إن الخمریات شغلت مطالع القصائد أولا مكان
التشبيبات القديمة، ثم استقامت بعد بسائر القصيدة، ولذلك تعد من
الفنون الجديدة في العصر العباسي. نعم إن الخمر نالها في عهد بني أمية
شيء من أيام يزيد بن معاوية، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك
لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو
الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي، وكان شاعرا مطبوعا من
مخضرمي الدولتين، فأشاد بذكرها لأدماة المعاقرة وشغفه بالشراب
مع ما كان يرمى به فن الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله
فيها وكان في تلك الاشارة كثير الخوض عليها كقوله

قل للسرى أبي قيس أتتهجرنا ودارنا أصبحت من داركم صديدا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقته أبدا
ولانسيت حمياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا
ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون، حتى بلغ ما قاله
فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد
إمام واصفها بالأجماع، واقتدى به في ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم
يساووه. وكذلك كانت الخمریات في العصر الثاني ثم استفحل أمرها
في الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق
زيادة لمزيد. وعلى هذا الطغيان كانت في العصر الأخير. وقد رأيت

من ذلك نماذج لأبي نواس ولا بن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبي
العباس بن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج نأتى به من العصر الرابع
نخذه للطغرائى يصفها فى شبيهه ويجعلها بديلة الشباب

قد كان لى فى شبيبتي مرح	يحدث لى بغتة بلا سبب
فـذ تولى الصبا تبين لى	أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلمست أدركه	إلا بعون من ابنة العنب
فقاتها من شبيبتي بدلا	أقضى بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها	مزاجها لؤلؤا من الحبيب
فأسعد الناس من حوت يده	ما شاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ - الرثاء - ليس الرثاء محتاجا بعصر ما فى وجوده إلى تعليل ، مادامت
رحى المنايا دائرات وما دام الدهر نقادا يستتاب النفيس ويفجع بالعزیز .
وكل ما نريد أن ننبه عليه الآن ، أن الرثاء فى رقيه وانحطاطه كان سائرا
وراء المديح ، وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن
التعبير ، ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ، وقد رأيت من
مراثى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميد وهى مضرب الامثال فى
عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثنائى مقطعة ابن الزيات فى
رثاء أم ابنه عمر ، وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم
رأيت فى الثالث - وهو أرقى العصور رثاء لأنه أرقاها مدحا - رثاء
الرفاء لصديقه المصلوب ، وهو نوع من الرثاء جديد ، ورثاء الرضى للصبا ،
ولعله أروع رثاء ، يتبين فيه صدق الأخاء . وإليك فى الرابع نموذج لابن

سنان الخفاجي في والدته، وكان الرثاء متطامنا فيه تطامن المديح قال :

قبحا ليومك فالنوائب بعده جنل وكل رزية لا تفجع
لو كان ينفعني السلو نبذته أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع
هيمات يجمع شمل صبر نافر قلب بأيدي الحادثات مروع
أحنو الضلوع على بواعث غلة ضمن اذكرك أنها لا تنقمع
عجبا لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع
لا يغبطن على البقاء مرزا إن المودع إلفه لمودع

• - الزهد - من النواميس المقررة في حياة الجماعات، أن نزوع طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط، يقتضي نشوء أخرى مضادة لها في الاتجاه، ولذلك لما كان الوازع الديني على عهد الراشدين وبني أمية قويا يكاد يشترك في الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج عاياه في تبجح وتظاهر، لم نك ترى الزهد والغلو في الدين باديا للعيان . أما حين غزت الأباحية الشعب العربي على عهد بني العباس للأسباب الكثيرة التي ذكرناها فيما قدمنا، ونشأت من غزوها طائفة المستهترين، فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك، همها التزهيد في هذه الحياة بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها، وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن هو إلا حطام، بقدر ترغيبها في الآخرة وما فيها من لذة وخلود. نعم جدت هذه الطائفة، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الأشخاص، أمكنها بقوة الدين ومدده القويم، أن تنتج من المواعظ ونواحي الارشاد ما أنار السبيل على أيامهم، وبقي بعدهم هدى للناس . ثم كان أشخاصها ذوى مكانة في نفوس الخلفاء وسائر الحكام، إن لم يكن لدى بعضهم عن

عقيدة وإخلاص، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء
الوعاظ، وقد كان إمامهم في العصر العباسي الأول أبو العتاهية الذي
سلف من قصصه ووعظه ما فيه الغناء ولقد تفرع عن هذا الوعظ
بالتزهيد، نوع آخر من الحكمة، هو تأديب النفس بضرب الامثال وقصص
الحكايات، وأول من فعل ذلك أبان بنظمة كيلة ودمنة، وتبعه من
ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب. ثم اتصل الزهاد والمؤدبون
فلم تخل الأرض من حجيج منهم لله على نوال العصور. على أن التأديب
بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستهترين فيكون حجة
عليهم وتقوية للزاهدين. وهذا أبو نواس يقول :

سأخى ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقاً
ألا يابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالاً ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

٦ — الصفات — وعلى قدم الوصف في الشعر العربي منذ العهد الجاهلي
لم يبلغ فيه ولا في العصرين بعده شيئاً مما بلغ في عصر بني العباس. ذلك
بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعية وآثار حضارة، والمعنوية من
مشاعر نفوس ومدركات عقول، كانت محدودة في الأول واقفة عند
حدود قريبة في الآخرين. أما في العصر العباسي وقد تجلت فيه
مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة، وخطت فيه الوجدانات والعقول
خطوات لم تكن في حساب، فقد أصبح الشاعر إذا غار في أعماق الفكر

لا ينتهي بقرار ، واذا طار مع الخيال لا يصل إلى سماء ، ولذلك بلغوا في
الناحيتين مبلغا يدهش عقل من لا يحيط بنواحي هذا الانقلاب الشمول .
وليس يألوا ما ذكرنا من نماذج ، وما استشهدنا به في معظم ماضى
وبخاصة في ناحية المعاني والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة ، وآيات بيّنة
على صدق ما نقول ، فارجع اليه وإنه لقريب . ويكفي أن الوصف قد
خاق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا
مستقلا كما تقدم في الخريات . ولم يقف دون السير في هذا العصر نفسه
بفن آخر جديد هو وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما
رأيت في بعض ما اخترنا ، ثم ماكد الزمن يخطو إلى العصر الثاني حتى
استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزارع ، وصدر فيه على السنة كثير
من الشعراء ما يبهّر الناظرين ، وإليك بعض ما قيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع

ما ترى ^(١) نعمة السماء على الأرض

وغناء الطيور كل صباح

وكان الربيع يجلو عروسا

وقال على بن الجهم يصف الورد

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه

بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها

وقابلته يد المشتاق تسنده

كان فيه شفاء من صبايته

ض وشكر الرياض للأمطار

وانفتاق الأشجار بالأنوار

وكأننا من قطره في نثار

حسن الرياض وصوت الطائر الغرد

وراحت الراح في أثوابها الجدد

إلى الترائب ^(٢) والأحشاء والكبد

أو مانعا جفن عينيه من السهد

بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
 ما قابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تبينت فيه ذلة الحسد
 قامت بحجته ربح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
 لا عذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد
 وقال ابن الرومي - وكان مولعا بالخلاف - يفضل النرجس على الورد
 خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
 لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة^(١) عائد
 للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتاد
 فصل القضية أن هذا قائد زهر الربيع وأن هذا طارد
 شتان بين اثنين هذا موعد بتصرم الدنيا وهذا واعد
 فاذا احتفظت به فأمتع صاحب بحياته لو أن حيا خالد
 ينهى النديم عن القبيح بالخطه وعلى المدامة والسماع مساعد
 اطلب بعقلك في الملاح سميته أبدا فانك لالحالة واجد
 والورد إن قنشت فرد في اسمه مافي الملاح له سمي واحد^(٢)
 هذى النجوم هي التي ربتهمما بحيا السحاب كما يربي الوالد
 فانظر إلى الولدين من أدناها شهما بوالده فذلك الما جد
 أين الحدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد
 وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون
 الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أى شىء مما تنبت الرياض على
 اتساع الرياض إلا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا . استمع إلى القاضي

(١) ناسبها إليه (٢) يظهر أن التسمية كانت شائعة بيننا من دون ورد

علي بن محمد التنوخي يقول :

ورياض حاكّت لهنّ الثريا حلّلا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها فتجلّت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق كمنغور تعض ورد الحدود
وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصولة التسميد
وكان الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ في خدود الغيد
وكان الندى عايتها دموع في عيون مفجوعة بفقيد
وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات في العصر الرابع^(١)، قال الأرجاني
يصف روضة في مطلع قصيدة غزلية
ماروضة أضحكّت صباحاً مباسمها دموع قطر عايتها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب إذا تمايان والأرواح تأتفك^(٢)
حمر الثياب تطير الريح شائلة أذيالها وهى بالأزار تمتسك
إذا الصبا نبهت أحداً سحرا حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أتم طيباً وحلياً من ترائبها^(٣) إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك
ولم يترك الوصف شيئاً بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا
أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات،
ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فإن الباب طويل .

١٠ — وأخيراً هذا فن عاشر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو
ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير

(١) تتناوح في تصرفها (٢) أتم خبر ما النافية المفتتح بها الشعر

المزدوجات. نعم إن هذا الفن قد ابتذل الشعر وخط من قدره لأنه أخرجه في معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان، وبعد به في لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال، وإذ قد فاتنا التنبيل له فيما مضى فلنأت منه في تل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثرة فيهما نظراً لتقدم العلوم.

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ في الحد من منظومة له في المنطق
إذا أردت أن تحد حداً فرتب الجنس القريب جداً
فانه يحصر كل ذاتي يكون المحدود في الصفات
ثم اطلب الفصول فهي الحادة من صورة أخذتها أو ماله
وقال الحريري في أدوات الشرط من ملحة الأعراب

هذا وإن في الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أي ومن ومهما وحيثما أيضاً وما وإذما
وأي منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافتي
٢ - ناحية المعاني والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث في العهد العباسي من تدوين العلوم وترجمتها، عاملاً مهماً على تفسيح ميادين المعاني وتفجير ينابيعها، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخيل، ومظهر الحضارة المصحوبة بحاسن الطبيعة وجمالها، منمياً للملكة التصور ومكثراً لأنواع الأخيلة. كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث

على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدرة على الجدل والسفسطة في النفوس ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحججة والدليل . وكل هذا عاد على المعاني والاختيلة بتقديم واضح ورقى كبير أجملنا مظاهره . حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة في ذلك من نصيب . وهانحن أولاء مفصلوه في الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد في التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج .

١ - استنباط الدقيق والجديد من المعاني - جال الشعراء في هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحي في كل ما عالجوا من فنون الشعر ، حتى لقد تراحم الكثير منها في القصيدة الواحدة تراحما كان غير معروف . كما فعل ابن الرومي في قصيدته السابقة التي تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المديبر ، حيث جعل ثناء رواده عليه شرا كالاستميتحه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يظنى روحه ويشقيها انتقاما للأبرار التي طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعاني الدقيقة التي عالجها . وكما فعل الرفاء في رثائه صديقه الفتى المصلوب من بني شيبان ، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل ، وإذ سوى بين ثنى عطفه في غلالة الصلب وسابغة الحرب ، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضنك الثرى ، إلى آخر ما عالج ^(١) وكما فعل الصابي في قصيدته التي يعزى بها نفسه وهو

(١) معظم ما وقع من معان في المصلوبين جاء جديدا ، لأن التمثيل بقتلاه لم يكن شائعا ، ومن أسير التصائد فيه قصيدة أبي الحسن الانباري في أبي

في السجن، من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله
هذه النائية أثرا لمنازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمده يده
إلى النجم وسميه نحو النجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء
فيما تقدم من نماذج تناول دقيق السعاني وإن لم يك في القصيدة بالكثير
كالذي رد به التهامي تهمة حبيبته إياه أنه نسيها بجديد ، من أنها أخذت
حواسه وعقله ، فكيف يعشق لو أراد ، وكالذي ألم به مهباز في تهنتته
ابن علي المغربي بالنيروز وهو يهنئه بالوزارة ، وكالذي عاجله الغزي في
مدحه البيهقي من خاطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس ، في شبه تخويف
بما قد يحمله عليه المطل من هجاء ، ثم كالذي قاله الأرجاني في هجو أهل
زمانه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا .

طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بين بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ
انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه .

علو في الحياة وفي الممات	لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا	وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء	كمدها إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوق بك واستعاضوا	عن الألفان ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليمنى في عاص قتل وصلب

ومد على صليب الصلب منه	يمينا لا تطول إلى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب	دماه إلى الغواية والضلال

وهذه طائفة ثانية من الممان الدقيقة التي تظهر عليها الجدة مع دقتها .

قال بشار يذنب العشق إلى الأذن كالعين

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تمشق قبل العين أحياناً

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك ما به بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغي الفنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذور الفنى أفدت وأعدائى فأثلقت ما عندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب - فكان يمدح

الحمر ولا يشربها - بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكيميا

كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وقريب من هذا قول الغزى بعد

أنا فى الحلة الغداة كئانى علوى فى قبضة الحجاج

وقال إسحق بن ابرهيم الموصلى فى فلسفة الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهر بن خوفان الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملالة ولا كنى أملت عاقبة الصبر

أفكر فى قلبى بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاءلا تحم الضيف بربعه أنفذ من تحم آبائه على الأئم

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائى على الأئم

فكل مافيه مبدول لطارقه ولا زمام له إلا على الحرم
وقال أبو فراس في أثر سنان أصابه خده فمز ذلك على حبيبته

لما رأيت أثر السنان بخده ظلت تقابله بوجهه عابس
خلف السنان به مواقع لثما بئس الخلافة المحب البائس
حسن الثناء بقبح ما صنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس
وقال ابن الرومي يحال لنفسه عدم تغاضيه عن خطأ صديقه

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو هـ لدهري قطعت من الرجاء
أنت عيني وليس من حق عيني غص أجفانها على الأقداء

وقال في الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها
نظرت فأقصدت الفؤاد باحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم
فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعته أليم
وقال أبو تمام يجعل نعمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تبين
تسكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود
وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وقال يذكر فضل قبور بني مالك على الثرى

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور الحكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام
وقال يجعل المجد شفيعه في عدم التقاضى

وإذا كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضى

وقال المتنبي يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك في ابن العميد
من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرو
وسمعت بطليموس راوى كتيبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدا وأنى فذلك^(١) إذ أنى متأخرا
إلى غير ذلك مما لا يتناوله إحصاء

هذا - ولقد كانت رغبة المحدثين في تدقيق المعاني حاملة لهم على
استخراج المكنون وتجلية المستور، فجاءت لذلك لابسة ثوب الجدة
والابتكار، ولعلمهم لهذا كانوا إذا ألما بقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة
أو يدا بجديد، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم في كثير
من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات. وقد ذكر منها طائفة صالحة
أبو هلال العسكري في كتابه الصناعاتين، وهذا بعض ما جاء فيه وفي
غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نواس، وله في هذا الباب باع طويل

وإذا المظى بنا بلغن مجدا فظهورهن على الرجال حرام
فكان أوثق وأسخى وأرق من الفرزدق حيث يقول
متى تأتي الرصافة تستريحى من الانساع والدبر الدوامى

وقال في محاسن حبيب باك

يبيكى فينذرى الدر من نرجس ويلطمم الورد بعناب
فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والركة إذ يقول

(١) يريد أنى في النهاية جامعاً لما سبقه من فذلك حسابه إذا أنه بقوله فذلك جملة.

يسمى بها ذو توأمين كأنما قنأت أنامله من الفرصاد^(١)
كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كلواواء الدمشقي في قوله .
وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
وقال في دقة أخذ

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فكان بيته أعم معني وأشد مبالغة من بيت جوير
إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
ومثل هذا في دقة الأخذ قول أبي تمام
فتى مات بين الطعن والضرب ميمته تقوم مقام النصر إن فاته النصر
فانه جعل الموت في الحرب انتصارا ، كما جعل ابن الوردي اجتهاده عذرا
في قوله

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجم
وقال في تمنى الطير غزوة ممدوحه لتاكل من لحم قتلاه

تمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره
فكان له فضل الایجاز مع الايضاح على النابغة حيث يقول .
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ماالتقى الجيشان أول غالب
وقال في ذلك مسلم

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهدمها ، وقنأت
اشتدت حمرتها ، والفرصاد التوت الأحمر أو صيغته الأحمر

قد عود الطير حادات وثقن بها فمن يتبعنه في كل مرتحل
وقال فيه أبو تمام
وقد ظلمات أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كاثها من الجيش إلا أنها لم تقاثل
ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول
يفدى أثم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وماضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيفه والقوائم
وقال أبو تمام في إعراض ممدوحه عن الدنيا للسؤدد
يصد عن الدنيا اذا عن سؤدد ولو برزت في زى عذراء ناهد
فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .
ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وقال منصور النيرى
فلو كنت كالعنقاء أو كسموها خلعتك إلا أن تصد ترانى
ففضل النابغة حيث يقول
فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا ، قال سلم الخاسر .
ولو ملكك عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب
وقال البحتري .
ولو أنهم ركبو الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب
وقال علي بن جبلة .
وما لامرئ حاولته منك مهرب ولو رفعت في السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع
على أنا لا نغمط المتقدمين حقهم في أن لهم من المعاني ما لم يزد فيه
المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحامهم سواء ذو العمامة والخمار
فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب
وكقول عمر بن أبي ربيعة .

لقد دب الهوى لك في فؤادي ديب دم الحياة إلى العروق
فقد أخذه مسلم كما هو في قوله

تجري محبتها في قلب عاشقها جرى السلامة في أعضاء منتكس
وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

٢ - الا كتار من ضرب المثل وحسن التعليل - كن من أهم الدواعي
إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح
معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر في
البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأقاصيص في الحكم
والأمثال ، ووضع قواعد العلم في مختلف الفنون ، ولذلك نعد منها ما سبق
آنفا في استخدام مصطلحات العلوم . وأنت إذا رجعت إلى ما أسلفنا
من نماذج ألفيت ذلك كثير الانبثاق في ثناياها ابن الرومي والمتنبي وأبي
فراس والصابي والخفاجي والأثرجاني وابن عنين ، فارجع إلى ما اختير
لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

قال أبو العتاهية

يارب ذى نسب تكنفه حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه صفرا وصار لغيره سلبه
يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تبعه
إن استهانتها بمن صرعت لبقدر ما تسمو به رتبه
وان استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لذي باجتيه فاغترب فتجدد
فانى وأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ — دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يحف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي

وقال

لا تنكرى عطلى الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وقال

يأبها الملك النأى برؤيته وجوده لمراعى جوده كشب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحتري

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انحدار وارتفاع
كذلك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ندى في الندى وضريب
كالبدور أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جدد قريب

وقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلأئق أصفار من الحسن خيب
وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيب
وقال ابن الرومي

وما الحسب الموروث لأدر دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
إذا العود لم يشمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الخطب

وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد
والأفما يبكيه منها وإنها لأحسن مما كان فيه وأرغد
وقال المتنبي

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجيش وأنحط القتام

وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذي بصروف الدهر غيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لأعداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من شدة الفتك نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب
وقال ابن نباتة السعدي من وصف فرس أغر محجل

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا
وقال ابن قلاقس الاسكندري

مضى معهم قلبي فإله دره لقد سرني إذ مر مع من يسره
وأطول من هجر الحبيب وصبوتي ويوم النوى ليلى وهمى وشعره
وليس دماء الجفون وإنما فؤادي بماء الدمع قد ذاب جره
وقال ابن شبل البغدادي

يفني البخیل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز تبنيه ويهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع
٣ - استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية - لم تكن شاعرية
الشاعر قبل العصر العباسي تعتمد منه على ثقافة علمية، ولذلك بقي شعره
فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعاليم. أما في العصر العباسي فقد انحدرت
الشعراء في زمرة العلماء، وأصبح منهم في كل ناحية أعلام، وتأثر شعرهم
من هذه الناحية تأثرا شديدا، فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا
لآرائهم الفلسفية، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل
الفطري، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش في الدين وغير
الدين منميا لهذه الظاهرة دافعا لها إلى الامام. ولعل أول خطوة في سلوك
هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب النمل وإحسان

التعلييل على السنة كثير من شعراء العصر الاول كبشار وأبي العتاهية،
وبعدها كان اقتباس بعض المعاني الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين
المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا
الاقتباس على السنة بعض شعراء العصر الثاني كابن الرومي

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا، اغترف
الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبى ، ثم زاد
غزارة وعمقا بعقائمه فيلسوفه وآخر شعرائه المعري . ولكن بعد هذا
المعين في العصر الرابع على الشعراء فعمجزوا عن الامتياح ، ومن حاول
منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع في الخفاء .

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار في الحكم القريية من وحي الفطرة

إذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه
وقال في فلسفة الحيرة وكان من أصحابها

طبعتم على ماني غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته في الزهد والدين - وله في ذلك الأرجوزة
التي قلنا آ نفا إن بها أربعة آلاف مثل - يعظ ويذكر

يا عجباً للناس ، لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم معبر
الخير مما ليس يخفى هو السمعروف والشر هو المنكر
والموعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
لاخفر إلا نخر أهل التقى غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يندخر
عجبت للانسان في نخره وهو غدا في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

وقال ابن الرومى فى الحيرة بين حب المال واخوف من طلبه
أذاقتنى الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني برفض المطالب
فأصبحت فى الاثرأأزهد زاهد وان كنت فى الاثر أرغب راغب
حريصا جبانأأشتهى ثم أنتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعني رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاق المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرى غايتى قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب
وصبرى على الاقتار أيسر محملا على من التغرير بعد التجارب

وقال أيضا وكان شغوفا بمخالفة المؤلف في فلسفته^(١) بمدح الحقير ومحسنه
 وخير سجيّات الرجال سجيّة توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
 ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى
 ولو لا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
 وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
 فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض
 وقال المتنبي - وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا - يعبر عن آماله وآلامه
 أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهي جفده
 أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فلا طمى منها حبيبا ترده
 وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء في طباعك ضده
 وأتعب خلق الله من زاد همه فقصر عما تشتهي النفس وجده
 فلا مجد في الدنيا لمن قل مله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
 وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده
 ولا كن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهى بي في مراد أحده
 وحكمه أشهر من أن تدون وأكثر أن تحصى
 أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وفلسفة عاش، وحسبه أن خلف

(١) يدل على تأصل هذه الهوية في نفسه قوله

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
 تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت فقل قىء الزناير
 مدحا وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

في آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللزوميات » وحسبك أن تتعرف الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع إلى تائيته التي اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفته في المرأة . فقد قرر فيها أن النساء ذوات خداع ، وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات ، ثم ذكر أن الرجل يصحبهن فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقمت وأبان وجه ذلك في الذكور والإناث وعاد يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب . ثم انتقل إلى تعليم المرأة الفصاحة والبيان ، فجعله في يدها أداة شر ومحول فساد ، وأبان أن خير ما تتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز ، وأن خير ما تعمل حمل المغزل لأهل الأقاليم ، ثم غادر هذا إلى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من المعصر المرفهة ، وإلى الرجل مطلقاً أن يجاوز الواحدة إلى ضرة ، وإلى الشاب أن يسرف في شبابه للغانيات . ثم ختم آراءه في ذلك بتقريره أن حفظ الخريدة لا يكون إلا بعمل يسد غارها فتفديه بالورع والسكوت . كل هذه النواحي قد عالجها في تلك القصيدة معالجة فليسوف خبير في تحديد معان وبسط آراء ، فجاءت عنواناً ظاهراً لمعالجته الفلسفية ودليلاً واضحاً على نضوج عقله وغور فكره ، وعليك أن ترجع إليها لترى أن ما ذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الأبداع في التصوير والاغراب في الخيال — كانت هذه الناحية أظهر النواحي في شعر العصر العباسي منذ أن بدأ إلى أن زال . ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية صاربة في القدم إلى عهد سحيق ، وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة ، ومن صناعات الأيدي

الصناعات ذات المهارة والنقش ، الشيء الكثير ، هذا إلى ما جادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلتفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفي من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه وطاروا في سمانه إلى مدى بعيداً تتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ما جاء فننة للناظرين ، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب في الحواضر والأقطار ، المأخذ ومحل المحاكاة ، في مصر والشام وغيرهما من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسعة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . واليك بعض ما كان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة في هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه في النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبتة وكيف أبدع في تشبيهات محاسنها ، ووصف أبي نواس سلاف الشهيد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلل الخيال ، ووصف البحتري خروج المتوكل في عيد فطر للصلاة ، وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالاته ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الخمر وساقيتها ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتخيله في وصف الكأس والبذل والاستهتار بالشراب ، وفي السلوقية كيف تصيد وفي طواف السقاة ونشوة الشاربين ، ثم في مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السمرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامي للشجر والطيف ومظاهر الليل في ثباته أولاً وفي انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانياً إلى آخر ما أغرب به من خيال . ووصف صردر

لمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم
والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمارة اليمنى : الأول دار تاج الملوك
المرداسى بالشام ، والثانى دار آل رزيك بقاهرة العزيز وما جرى إليه وراء
الخيال فيما عالجنا من وصف النقوش والتهاويل على اختلاف أنواعها
وتنوع مرآتها . ووصف ابن التعاويذى غلمان الناصر الأتراك وصفها
عقد فيه بين فتنة الجمال وجراحة الأقدام . إلى غير هذه من مظاهر
الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنويه بتعرض الطغرائى
لمظهر بدوى دفعه إليه ذكر القديم والحسين إلى ديار الأعراب ، هو وصفه
هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغفرته إلى المسجر
منه حيث وردوا غديرا اشتبه مأوه على عيسهم بضوء الفجر المنبعث
عليهم من الشرق ، إلى غير ذلك مما بالغ فى تصويره حدانرى من الظلم
له التعرض لوصفه دون ذكره ، فالتزم إليه هناك ولنعد نحن إلى ما وعدنا
به من خيال وتشبيه بعد الإشارة إلى هذه الأوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف

كأن الفؤاد ككرة ترمى	حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شيء	مخافة أن يكون به السرار ^(١)
أقول وليأتى تزداد طولاً	أما ليل بعدهم نهار
جفت عيني عن التغميض حتى	كأن جفونهم عنها قصار

وقال فى نوع شرابه ومحاسن محبوبته

أيها الساقيان صبا شرابى واسقيانى من ريق ثغر برد

(١) المسارة مصدر ساره يساره مرارا ومسارة

إن دائي الصدى وإن شفائي شربة من رضاء بيضاء رود^(١)
 عندها الصبر عن لقائي وعندي زفرات يا كان قباب الجليمة
 ولها مبسم كغمر الأقاحي وحديث كالوشى وشى البرود
 نزلت في السواد من حبة القلب ونالت زيادة المستزيد
 ثم قالت نلقاك بعد ليال والليالي يملين كل جديد
 لا أبالي من ضن غنى بوصل إن قضى الله منك لي يوم جود
 وقال في تشبيهه العظام بالخيزران وهو جديد
 ودعجاء المحاجر^(٢) من معد كأن حديثها ثمر الجنان
 إذا قامت حاجتها تنبت كأن عظامها من خيزران
 وقال في معنى بدوى زاده قوة وأسرا
 ويوم كتنور الأماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
 رميت بنفسى في أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما
 وقال أبو نواس في نواح من تشبيهات الخمر
 فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كيف لؤلؤة ممشوقة القد
 تسقيك من طرفها خمر او من يدها خمر ا فالك من سكرين من بد
 كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها رأيت حمرة في العين والحد
 وقال إسحاق بن ابراهيم الموصلي في غزو محاسن محبوبته إياه
 غزني بجيش من محاسن وجهها فهبى لها طرفي ليدفع عن قلبي
 فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب
 ولما تجارحنا بأسياف لظننا جعلت فؤادي في يديها على الغصب

وناديت من وقع الأُسنة والقنا على كبدي يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر قتميل عيون الغانيات بلا ذنب
وقال أبو تمام فى الغيث والسحاب يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل
سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا له تبعاً أو يرتدى الروض بالبقل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى بطون الثرى منه وشينكا على حمل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت وقال البحتري من وصف بركة المتوكل
تنصب فيها وفرد الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبليت لها حبكا مثل الجواشن^(١) مصقولا حواشيها
فحجب الشمس أحياناً بضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
وقال فى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
ولما التقينا واللوى موعد لنا ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
فن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر
وقال ابن الرومى فى خباز رفاق ما أنس لا أنس خبازا مررت به
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء^(٢) كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح^(٣) دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر
وقال فى صنائع زلايية

(١) الدرود جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

ومستقر على كرسية تعب
رأيت سحرا يتلى زلايية
يلقى العجين لجينا من أنامله
وقال ابن المعتز في الحمر

وأمطر الكأس ماء من أبارقه
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا
وقال في أثر النشوة

وفد شربوا حتى كأن رءوسهم
وقال في قيام الساقين على رءوس الندامى

وكان السقا بين الندامى
وقال في سيفه

ولى صارم فيه المنايا كوامن
ترى فوق متنيه الفرند^(١) كأنه
وقال في فرسه

ولقد وطئت الغيث يحملنى
وكانه موج يسيل إذا
وقال السرى الرفاء في حدائق

وحدايق يسبيك وشى برودها
يجرى النسيم خلالها فكأنها
باتت قلوب المحل تحفق بينها
وقال أبو الفرج البغاء في كانون

(١) ما يظهر على صفتيه من موجات (٢) جمع سببية وهي الشقة الرقيقة كالخار

وذى أربع لا يطيق النهوض ولا يالف السير فيمن سرى
تحملة سهجاً^(١) أسوداً فيجعله ذهباً أحمرًا
وقال في ناره

إذا رمت بالشرار واضطربت على ذراها مطارف الذهب
رأيت ياقوتة مشبكة تطير منها قراضة الذهب
وقال في فمه

كان كلاً بنوس غير محلى فغدا وهو مذهب الآبنوس
لقي النار في ثياب حداد فكسته مصبغات عروس
وقال أبو الفضل الميكالى في شرار النار

كأن الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين
قراضة تبر إذا ماء—لا فاما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك في غدير تعتدل عليه الغصون وتميل

وغـ—دير ماء أفعمت أطرافه كالدمع لما ضاق عنه مجال
قرر الرياض إذا الغصون تعدلت واذا الغصون تهذبت فهلال
وقال الصائى يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالها يد لك لا تسود إلا من النقس^(٢)
إذا رقت بيض الصحائف خلقتها تطرز بالظالماء أردية الشمس
وقال أبو العلاء في ليالين مختلفين

وليالين ، حال بالكواكب جوزه وآخر من حلى الكواكب طائل
كأن دجاء الهجر والفجر موعده بوصل وضوء الصبح حب^(٣) مما طل

(١) خما (٢) المداد الأسود (٣) بكسر أوله المحبوب

وقال يرد على حبيبته في حوار

هي قالت لما رأيت شيب رأسي
أنا بدر وقد بدا الصبح في رأ
أست بدرا وإنما أنت شمس
وأرادت تنكرا وازورارا
سك والصبح يطرد الأقارا
لا ترى في الدجى وتبدونها را

وقال ابن سناء الملك

يا عاقل الجيد إلا من محاسنه
في سلك جسمي در الدمع منتظم
لا تحش مني فأني كالنسيم ضئي
وما النسيم بمخشي على الفصن
عظمت فيك الحشا إلامن الحزن
هـ - المبالغة والتهويل - لعل أول ما حبيب الى شعراء العصر

العباسي المبالغة والتهويل ، أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين في نسبهم الى أصل فارسي ، وللفرس واع بالمبالغة والاغراق شديد . وإذا كانت هذه الفئة المولدة في العصر العباسي الأول ، ذات شأن لدى الخلفاء ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوي النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع الى هذه الظاهرة رغبة في التحبيب وأكثروا منها في مدائحهم طمعا في ابتزاز المال . على أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا عن تلك الطبيعة الفارسية ، وهذه الرغبة في جذب المال ، هو تفتح أبواب المعاني واتساع مناحي التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا في هذا الميدان وطمع كل أن يكون المجلي في تلك الحلبة أمام مناظريه . فان هذا الطمع لا بد يحدوه الى الايمان بجديد قلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه فينزِع عنها الى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة إلى ما أسلفنا من

نماذج اتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا في المديح .
فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيباني في شجاعته إلى حيث شابه رسول الله
ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس . وهذا أبو تمام في رثائه ابن حميد
الطوسي قد بالغ في كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب
نصرا وحياة . وزاد عنه البحترى من شعراء العصر الثاني في مدحه المتوكل
على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا
للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كان يمتت قبلا من غلو وإغراق ،
فقد فتح هذا الباب فيه على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب
المتنبي فأتى بما لم يدر بخلد في المدائح وفي غير المدائح على السواء
وهاهي تلك المدحة التي اخترنا آنفا من مدائحه في سيف الدولة
ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر
أن يحدث خطوبا إذا شك فيما ذكر وعلى هذا النسق جرى إلى آخر
ما قال . وكذلك كانت مبالغاته وأشد ، في غير المديح كما سيأتي ، ثم كان
العصر الأخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا في هذا الباب كما ترى ذلك في
قصيدة الأبيوردي التي اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

وإليك طائفة أخرى غير ما أشرنا إليه في النماذج من المبالغات
قال بشار في نخافته من أثر الحب

سلبت عظامي لحما فتركتها عوارى في أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فجعلتها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
خذي يدي ثم ارفعي الثوب فانظري ضنى جسدي لكنني أستر
وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها نفس تذوب فتقطر

وقال المتنبي في ذلك

روح تردد في مثل الخلال^(١) اذا
كفى بجسمي نحولا أني رجل
وقال أبو نواس من مدح الرشيد
ملك تصور في القلوب مثاله
ما تنطوي عنه القلوب بنجوة
حتى الذي في الرحم لم يك صورة
وقات منصور النخري من مدحه أيضا

خليفة الله إن الجود أودية
إذا رفعت إمرأ فالله رافعه
من لم يكن بأمين الله معتصما
إن أخلف القطر لم تخاف مخايله
وقال ابن الرومي من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله
وأذاك يوسف يستعيرك إبرة
وقال إبراهيم بن سيار النظام

توهمه طرفي فألم خده
وصاحفه كفي فألم كفه
ومر بفكري خاطرا فجرحته
وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

(١) في جسم كعود الخلال نخافة (٢) مصدر كاللحظ (٣) بتسكين الناء

مارست من لوهوت الافلاك من جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حمى المقدور منه مهجة لرامها أو يستبيح ما حمى
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى
وقال المتنبي

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل التوراة والقرآن والانجيل
وقال أبو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا

لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا عن أبيه بديل
هو مثله فى الفضل إلا أنه لم يأت به برسالة جبريل
وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويلة .

سوى يهاب الموت أو يرهب الردى

وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا
ولكننى لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا
توقد عزمى يترك الماء ججرة وحيلة حلمى تترك السيف مبردا
ويأبى إبائى أن يرانى قاعدا وأنى أرى كل البرية مقعدا
٦ - تمحيص الافكار وترتيب العناصر - أظننى فى غير حاجة أن
أعلل هذه الظاهرة الآن، لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أنى
أجل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون فى
الفطرة الشعرية لا عن تلك الفطرة وحدها كما كان أسلافهم ، بل عنها
ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع
العقل والفكر، فنون حضارة وارفة الظلال تنمى الذوق وترقى الاحساس

بالجمال . ولذلك كانوا يحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها في ثوب ذي جمال خلاب كما سبق ذلك بنجاحيته ظاهرا في النماذج أتم ظهوره .
فقصيدة العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسيج قوية الأداء . وقصيدة أبي نواس أجمع وصف يتناول صناع خمر الشهداء يخرج النحل يتغذى خلاياها الى أن غادرت الدنان بعد حطب الى آفاق السراء . وقصيدة ابن المعتز وصف يحكي العيان في الدعوة الى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك في مجلس شربها . وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلية لحبيب ذات تسلسل وانسجام . وقصيدة ابن حيوس وعمارة اليني تناولتا في دقة وإحكام كل مايجول في الخاطر من محاسن القصور . وقصيدة الطغرائي أحسن ما يصف به واصف رحلة بدوية في هاجرة نهار وظلام ليل ، ترد بعدها الابل غديرا في منباج الصباح . وقصيدة ابن عنين خير تعبير لما يجول في نفس هازم ومهزوم لكليهما من الشجاعة حظ ونصيب :

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها في ابتداء القصيدة ، وفي الانتقال خلاها من المطلع الى ما هو الغرض المقصود فيها ، ثم في إنهاؤها ، الى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة في البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء ، ومن الاول تفرعت براعة الاستمالة .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعاني الصحيحة الملائمة ، والالفاظ الرشيدة العذبة ويتحرز مما

يتطير منه من المعاني وما يستكره ويجفى من الألفاظ ، لأن المطلع أول
ما يقرع السمع فيسترعى الآذان أو تمجه الآذان . فأذا أضاف الى هذا
الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها في إشارة
لطيفة فقد ضم الى براعة المطلع براعة أخرى هي براعة الاستهلال
وضمن بهذين حسن التقيل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول أبي نواس
لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
وقرل البحتري

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليحلم أسباب الهوى كيف تعلق
وقول صريع الغواني
أجدرت ذيل خليع في الهوى غزل وشمرت هم العذال في عذلى
وقول أبي العلاء

ياساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السمر
وقول التهامي

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبدن في التنقل عذرا
ومما ضم الى براعة المطلع براعة الاستهلال قول أبي تمام في الرثاء

كذافليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وقول المتنبي في الشفاء من مرض

المجد عوفى إذا عوفيت والكرم وزال عنك الى أعدائك السقم
وقول أبي فراس على وشك رحيل

يا طول شوقى إن كان الرحيل غدا لا فرق الله فيما بيننا أبدا

وحسن التخلص ويسمى براعة المقطع هو الانتقال مما بني عليه مطلع القصيدة من نسيب أو غيره إلى الفرض الأصيل ، على معبر من قوة الاتصال بين المعنيين في دقة لطف وحسن وثام كقول مسلم في يحيى وابنه جعفر

أجذك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر
وكقول البحتري في الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا رواحتها مزنة بكرت لها شأبيب مجتاز عليها وقاصد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبات عليها بتلك البارقات الرواعد
وكقول المتنبي في سيف الدولة
خليلى مالى لأرى غير شاعر فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ في صلاح الدين بن العزيز
أهوى التذلل فى الغرام وإنما يأبى صلاح الدين أن أتذللا
مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتفلا
وحسن الانتهاء ويسمى براعة الختام أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء
فهو فى النهاية نظير براعة الاستهلال فى الابتداء وهو آخر ما يعنى السمع
ويرتسم فى النفس كقول المتنبي

فلا حطت لك الهيجاء سرجا ولا ذاق لك الدنيا فراقا

وكقول أبي العلاء

ولا تزال لك الأيام ممتعة بالآل والمال والعلياء والعمر

وكقول الأرجاني

علائك سوار والممالك معصم وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بني أيوب في نعمة تجوز في التخليد حد الزمان

والله لازتم ملوك الورى شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراعات قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب . أما فى العصر العباسى فقد عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ثم كان من المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب^(١)

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتهاء فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى إذ دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصر فأنشده

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ومن الانتقال المقتضب قول البحتري

وهوى تجدده الليالى كلما قدمت وترجمه السنون فيرجع

يأبها الملك الذى سقت الورى من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ما كان من أبى نواس إذ دخل على الفضل البرمكى فأنشده مبتدئا

٣ — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر في العصر العباسي من الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في إحكام وقوة أداء ، أوفر من نصيب النثر . ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ، ولغة الحسن والجمال وما أخذ الغناء والاصوات ، وكل ذلك يستدعي عذوبة تنسجهم مع وجدان الشاعر ، ويطلب خفة تطير مع خياله ، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية إلى غير ذلك مما لا وجود له في نفس النثر ولا مطلب له في القول المنتور .

غير أن الشعراء في هذا العصر قد وقع لهم في ناحية الألفاظ

أربع البلى إن الخشوع لبادي عليك وإني لم أخنك ودادي
ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رأنحين وغادى
فكان ذلك منه عجبا وهو البارع في البراعات بجمعها في قصائده جمعا كما فعل
في قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخليفة فقد تحدث
عن زوجته في مبدئها يقول

تقول التي من بيتها خف محلى عزيز علينا أن نراك تسير
وتخلص من المدح بقوله مخاطبا لها

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخليفة أمير
ثم ختمها بقوله مخاطبا الممدوح

فإن تولني منك الجليل فأهله وإلا فاني عاذر وشكور

والاساليب ما لم يكن لزملائهم السالفين ومن ثم وسمهم العلماء باسم
المولدين أو المحدثين^(١) وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة
واستشهاد .

١ — فهم قد تصرفوا في بعض الكلمات العربية تصرفا أخرجها عن
معانيها القديمة إلى معان لم تكن معروفة للعرب ثم كانوا كثيرًا ما يشتقون
منها بعد هذا الإخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا في كلمة
« قصف » وأصل معناها كسر الغصن الصغير فأنهم أطلقوها على اللهو
كما قال أبو نواس

لا يصرفنك عن قصف وإصبياء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد
إلى اليمن لولاية

أيرحل آلف ويقيم إلف وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو منى سلام ما سجا للعين طرف^(٢)

ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرًا كان أم هجينًا،
ولكن المولدين أطلقوا في اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا في العصر
العباسي ولو كانوا عربًا خالصًا دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصي العروبة
كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أي الذين حدثوا بعد الأصيلين

(٢) أشار إلى المعنيين في العصر المغولي عفيف الدين التلمساني حيث يقول

تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل في حسن يحل عن الوصف
هلموا إليه بين قصف ولذة فان غصون البان تصلح للقصف

٢ — وهم قد استعملوا كثيرا من الالفاظ المعربة ولهمل كثيرا منها
كان من تعريبهم أنفسهم، وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون
معرب آذركون أى لون النار لورد أحمر الورق أو أصفره مع سواد
الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول
عبد الله بن المعتز

وطاف بهاساق أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق في قرارتهامسك
كما يشبه الأصفر بدهن ذهب فيه غالية ، وهى أخلاط طيب سوداء
كقوله أيضا

سقيا لروضات لنا من كل نور حاله
عيون آذريونها والشمس فيه كاليه^(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه
والألفاظ المعربة أكثر من أن تحصى - وقد ذكرنا منها طائفة
كبيرة فى التعريب قبل .

٣ — وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الاعجمية على حالها من غير
تعريب نظرفا وتلمحا، كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى
لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبرالورد
آلى يذوق الدهر آب سرد
وكلفظة يرلكأس الملائى فى قول ابراهيم الموصلى
اذا ما كنت يوما فى شدا^(٢) فقل للعبد يسقى القوم يرا

(١) أى ناظرة من كلاً بصره فى الشئ رددته فيه (٢) كغراب تبلبل فكر

فان السقي مكرمة ومجد ومدفأة إذا ماخفت قرا
وقد ذاع استعمال كلتي نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هي،
على السنة جهرة الشعراء ولا سيما في البيئات الفارسية^(١)

قال عبدالصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد
لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نشره فجاد برشاش من الوبل ساجم
وقال أيضا يمدح نحر الدولة بن بويه ويهنئه بالمهرجان
أيا شاهنشاه صل الأمانى بتجديد البشائر والتهانى
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان
٤ - ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات
ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستي
عزلت ولم أذنب ولم أك جانبا وهذا لأنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأنى نون الجمع حين يضاف

(١) كلاهما عيّد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الايام الأوائل من
أول شهر سنتهم « أفرودين » وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه
الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكامرة كانوا ينصرفون
فيه الى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم بعد جاوسهم لرد المظالم فى أيامه
الخمس الأولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ
فى منتصف شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك
آخرها يسمى المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال
للشتاء وهما خير فصول السنة

وقال الصباني في ساجور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة
ثم أعيد إليها

وقد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة كما يحل إلى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلقة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادي المتوفى بمصر سنة ٤٢٢
ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب يسوى الرد
وقال ابن الرومي :

مأذر معتزلى موسى منعت كفاه معتزليا معسرا صفدا
أزعم القدر المحتوم ثبطه إن قال ذلك فقد حل الذى عقدا
وقال أبو نهر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طال فى دقة كخط إقليدس لا عرض له
وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لا جزء له

وقال أبو الحسن بن أبي الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠
تعب الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتفننى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبیه المتوفى سنة ٦٠٨
وبى هندسى الشكل يسببك لحظه وخال وخد بالعدار مطرز
ومذ خط بيكار الجمال عذاره كقوس علمنا أنما الخال مر كز
٦ — ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتدلوا الشعر بألفاظ العلوم

ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية في كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كلية ودمنة واستمرت تزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها في نهاية العصر ، ومن مثلها في تلك النهاية ملحة الأعراب للحريري وقد سبقت الإشارة إليها

٦ - هذا وقد انحدر الشعراء إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلعة والمجانة كما اتضح ذلك آنفا حيث الكلام على الأغراض التي تستدعيه كالهجاء والغزل والمجون .

٧ - على أنهم قد أحسنوا الإحسان كله في استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما رأيت حيث القول على الإبداع في التصوير والأغراب في الخيال من الكلام على المعاني والأخيلة قبل .

٨ - ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجناس ، وسنكتفي بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات في اللفظ والأسلوب وأكثرها أنواعا .

فن الجناس المائل وهو المتفق اسمية وفعلية قول ابن الرومي وكان مولعا بالجوارى السود

للسود في السود آثار تركز بها وقعا من البيض يثني أعين البيض^(١)
ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعلية قول البستي

(١) السود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب ، والبيض الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة

فَقَالَ لِي دَعْنِي وَلَا تُؤْذِنِي إِلَى مَتَى أَجْرِي بِمَا أَجْرُ
وَمِنَ الْمَرْكَبِ وَهُوَ الْمُتَّفَقُ لَفْظًا وَخَطًا قَوْلُ أَبِي الْفَضْلِ الْمِيكَالِيِّ
تَفَرَّقَ النَّاسُ فِي أَرْزَاقِهِمْ فَرَقًا فَلَابِسَ مِنْ ثَرَاءِ الْمَالِ أَوْ عَارِ
كَذَا الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا وَسَمَا كُنْهَاقِ مَقْسُومَةٍ بَيْنَ أَدَمَاتِ وَأَوْعَارِ
مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ جَوْرًا فِي قَضِيَّتِهِ اقْتَرَعَ مِنْ مَأْثَمٍ فِي الدِّينِ أَوْ عَارِ
وَمِنَ الْمَفْرُوقِ وَهُوَ الْمُتَّفَقُ لَفْظًا لَا خَطًا قَوْلُ الْبَهْزِيِّ
كَمْ مِنْ أَخٍ قَدْ هَدَمَتْ أَخْلَاقَهُ فِي آخِرِ مَا قَدَّ بَنَى فِي أَوَّلِ
يَرَى سَهَامًا إِنْ أُسِرَ الْمَقْتَلُ لِي بِالْكَيدِ لَا يَقْصِدُنْ غَيْرَ الْمَقْتَلِ
وَمِنَ الْمَطْرَفِ وَهُوَ الْخِتْلَافُ بِزِيَادَةِ حَرْفٍ قَوْلُ الْبَهْزِيِّ .
فَإِنْ صَدَفَتْ عَنَّا فَرَبْتَ أَنْفُسَ صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ الصَّوَادِفِ
وَمِنَ الْمَذِيلِ وَهُوَ الْخِتْلَافُ بِأَكْثَرِ مِنْ حَرْفٍ قَوْلُ بَعْضِ الْعَبَّاسِيِّينَ
فِيَالِكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهِمَا جَدِيدُ الرَّدَى تَحْتَ الصَّفَا وَالصَّفَاحِ
وَمِنَ الْمَشْتَقِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ
وَأَنْجَدْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكُمْ فَيَادِمُ أَنْجَدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ
وَمِنَ الْمَطْلُوقِ وَهُوَ مَا لَا يَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ
فَمَا السَّلَافُ أَزْدَهْتَنِي بِلِ سَوَاقِفِهِ وَلَا الشُّمُولُ دَهْتَنِي بِلِ شِمَائِلِهِ
وَمِنَ الْمَحْرَفِ بِاخْتِلَافِ الشَّكْلِ قَوْلُ الْمَعْرِيِّ
لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جِهَالٍ فَإِنْ تَكُنْ زَكَاةٌ جِهَالٍ فَازْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ
وَمِنَ الْمَضَارِعِ وَهُوَ مَا اخْتَلَفَ بِحَرْفٍ مُقَارِبِ الْمَخْرَجِ قَوْلُ الرُّضِيِّ
لَا يَذْكُرُ الرَّمْلَ إِلَّا حِينَ مَغْتَرَبٍ لَهُ إِلَى الرَّمْلِ أَوْ طَارٍ وَأَوْطَانٍ
وَمِنَ الْإِلَاقِ وَهُوَ مَا لَا تَقَارِبُ فِي حَرْفِهِ قَوْلُ الْبَهْزِيِّ

لست عن ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفاً فى كفاً
ومن اللفظى وهو ما اختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجاني
وبيض الهند من وجدى هواز باحدى البيض من عليا هوازن
ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدي فى الأمير بهرام
قيل كل القلوب من رهب الحب تضطرب
قلت هذا منحصر قلب بهرام مارهب
ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين
خبروها بأنه ما تصدى اسلو عنها ولو مات صدا
والقول فى الجناس يطول .

٩ - وقد حلال كثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا
أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير.
ومن أعلامهم فى ذلك، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا، ميدان النثر
الى الشعر فأثنى بالعجب العجاب
قال من مقطعة عاطلة الأبيات
أعد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح
وقال من أخرى حالتها

شغفتنى بحفن ظبي غضيض غنج يقتضى تغيض جفنى
وفال من ثلاثة إحدى كلماتها مهملة والاخرى معجمة
اسمح فيث السماح زين ولا تحب آملا تضيف
وقال من رابعة خطية الجناس
زينت زينب بقدر يهد وتلاه ويلاه نهى يهد

وقال من خامسة مطر فته

سم سممة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ما عدا ابتكارها
واختراعها .

١٠ - ومما ظهر واضع الأثر بالفاظ الشعر وأساليبه في العصر العباسي
ما اخترع في أوزانه وقوافيه، وهذه كلمة عما جد في كل منهما .

الأوزان - حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التي نظم عليها
العرب في خمسة عشر بحرا معروفة؛ وأجهد تلميذه الأُخفش نفسه أن
يمجد غيرها فلم يظفر إلا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .
وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد
الأموي لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء
في العصر العباسي وبعده بقوا ينظمون عليها ، فقد نظم بعض المولدين
على أوزان غيرها جريا وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التي نقاتها اليهم
الحضارات المختلفة ، أو رغبة في عدم التقيد بالقديم وولوعا باختراع جديد
في الأوزان كما اخترعوا في كل شيء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البحور بالقلب أو التحريف
فما جاء بالقلب ، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن
فعولن » أربع مرات مثل :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور

أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

والمتمد مقلوب المديد من غير جزء أى « فاعلن فاعلاتن » أربع
مرات مثل .

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا
والمتمد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن »
مرتين مثل .

كن لا خلاق التصابي مستمريا ولا أحوال الشباب مستحليا
وقد يقع القلب في تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل
صورة اسما كما حدث في المضارع وأجزاؤه « مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن »
مرتين فقد أخرجت فيه فاع لاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل .

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى
وقدمت باسم المطرد كذلك مثل

ما على مستهام ريع بالصمد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد
ومما جاء بالتحريف، المنوافر المأخوذ من محرف الرمل وهو « فاعلاتن » ست
مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيائى الضرب
والعروض السبب فصاروزنه « فاعلاتك فاعلاتك فاعلن » مرتين مثل :

ماوقوفك بالركائب فى الطلل ماسؤالك عن حبيبك قد رحل
ماأصابتك يافؤادى بعدهم أين صبرك يافؤادى مافعل
والثانى ما جاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ،

ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقا وهى الدوبيت والسلسلة والموشح ، وثلاثة
ملحونة دائما وهى الزجل والسكران وكان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين
هذه وتلك يكون معربا وملحونا على ألا يجتمع الاعراب واللحن فى

دور واحد منه وهو المواليا

فالدوبيت أصله فارسي يأتي بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى
الرباعي أيضا لأن في البيتين أربعة أشطر، وقد اقتبس به البغداديون ونظموا
منه على أوزان أشهرها « فعلن متفاعان فعولن فعلن » مرتين مثل
إن جئت رب الحلى ولاحت نجد فاذكر وهى وماجنه البعد
قد كنت أقاسى العسحقى رحلوا ياليتهم صادو وعاد الصدد
والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلن فعلاثن متفاعان
فعلاثن » مرتين ومنه

يامعتدل القد إن صبرى قد بان والدمع خلفى الغرام أظهر اذ بان
جددت شجونى وقد حكمت جفونى بالسهد فيبنى وبين نوى شتان
والموشح نشأ أول مانشأ بالأندلس ومنها انتقل الى المشرق فى
عصر بني بويه وهو ذو أوزان كثيرة منها «فاعلاثن فاعلان مستفاعان فاعلان»
مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ ومطاميرها
كللى ياسحب تيجان الربى يا حلى واجعلى سوارك منعطف الجدول
ومنها « مستفاعان فاعلان فعيل » مرتين مثل .

ياجيرة الأبرق اليماني هل الى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس فى هذه الفنون
أكثر أوزانا منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومثله

الفراق نار والوصال جنه والخلائق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشفق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمار
 حين وجدنا سفرجل البستان يذهب لـ صفرار
 والسكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه في النصيحة والوعظ
 بحكاية ما كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستفعلن
 فاعلاتن مستفعلن فاعلن وشطره الأول دائماً أطول من الثاني ومنه
 قول بعضهم .

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
 ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
 أفنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك
 ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار
 والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضا ليغنوا به الناس فى رمضان كى
 يقوموا للسحور ومنه قول بعضهم

يامن جنابه شديد ولطف رأيه شديد
 ما زال برك يزيد على أقل العبيد
 ولا عدمننا نوالك فى صوم فطر وعيد

٧ — أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت
 ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى
 عاميا ويأتى صحيحا . فمن عاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
 كم ذا يصد وكم يرجع يصد عنى إن كنت أنا المطلق لا يراجعنى
 ومن صحيحه قول آخر :

باطعان الخيل والأبطال قد غارت
والخصب الربيع والأمواء قد غارت
هو اطل السحب من كفيك قد غارت

والشهب : إذ شاهدت أضواءك قد غارت
القوافي - التزمت العرب القافية في القصيدة الواحدة كما التزمت فيها
الوزن فلم يغيروا حرف القافية في قصيدة مهما طالت بل لم يحيدوا
عن نظم راعوها في مجموع الحروف التي تشملها القافية بنهاية البيت -
وهي من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن
بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها - وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية
العصر الأموي كما كانت الحال في الأوزان ثم أفلت الشعراء بعده من
القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة
في النزوع عن القديم إلى جديد ، وقد تختلف كلفرار من تضيق
الحرف الواحد في القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية
وحدها ، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الأوزان . على أنهم في هذا
الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه في الأوزان
فانحصر فيما يأتي : -

١ - المزدوج وهو ما اقتصرت فيه التقفية في كل بيت على عروضه
وضربه دون ما حولهما في الأبيات ، وأهم ما حمل القوم عليه إطالتهم
الباسقة في نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواعظ وغيرها وقد
عرفت ما كان من نظم أبان بن عبد الحميد للكيللة ودمنة ، ووضع الحريري

ماحته في قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج . ولأبي العتاهية مزدوجة
سمها ذات الحكيم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :

لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم يزم
ولبشر بن المعتز مزدوجة في فضل على كرم الله وجهه على الخوارج
يقول فيها عنهم .

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعراب
وللصابي مزدوجة كتب بها إلى أبي الفرج البغواء في وصف البغواء
أولها .

ألفتها فصيحة مليحة ناطقة باللغة الفصيحة

وللبغواء رد عليه بمزدوجة أخرى يقول فيها .

تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
ولا بن المعتز مزدوجة في الشراب يقول فيها :

لي صاحب قد لامني وزادا في تركي الصبوح ثم عادا
ولأبي فراس الحمداني مزدوجة في اللهو بالصيد يقول فيها
ما العمر ما طالت به الدهور للعمر ماتم به السرور
وللحسن بن وكيع مزدوجة في فصول العام أولها .

ياسائل عن أطيب الدهور وقعت في ذلك على الخبير

٢ — المشطر وهو أن تتحد القافية في أشطار القصيدة أربعة أربعة
أو أكثر فيسمى مربعا أو خمسا وهكذا ، كقول الحسن بن وكيع
المذكور من مشطر مربع له

رسالة من كلف عميد حياته في قبضة الصبود

بلغه الشوق مدى الجهود مافوق مايلقاه من مزيد

جار عليه حاكم الغرام فدى أن يدرك بالأوهام

فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣ - المسمط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسم من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية أخرى وبعدها قسم من قافية القسم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة في الأقسمة المتعددة والاتحاد في القسم المفرد ثلاثة كانت الأقسمة كما تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٦ أم أكثر كقول الأ ميرتيم بن المعز الفاطمي

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول

وسيف اللحظ مسلول ومبدي الحب معذول

وإن لم يصنع للأثم

وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الوصف

مليح الدل والظرف جنت الحاظه حتفي

فمن يعدى على الظالم

وقد يبتدأ بببيت مصرع غير الاقسمة يأتي عليه القسم الملتزم مثل
توهمت من هند معالم أطلال

عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

مرابع من هند خلعت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعواذف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحهم من نوء السما كين هطال

ومستأنم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق^(١) ميله
 فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
 كأن على سرباله نضح جريال^(٢)

كما قد يبتدأ ببیت غیر مصرع ینترم مثله قافية وضربا بعد كل قسم
 كقول ابن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
 ونديم همت فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته
 جذب الزق إليه واتكا وسقاني أربعا فى أربع
 ما لعيني غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ما شئت فاسمع خبري
 غشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معي^(٣)

(١) طرائق جمع سفسقة بفتح حين أو كسرتين مع سكون الثانى وفتح الثالث
 (٢) الجريال صبيغ أحمر قيل هو العصفور، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب
 إلى امرئ القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء
 (٣) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا
 كل ما عدناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفحتى ٤٤ ، ٤٥
 ما عدا الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم ، والتغالى
 فى الاطناب والايجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر
 وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى
 الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وأكثرت فيه الألقاب على ما رأيت فى
 بعض مامضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن
 كأبي العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا والمرء يظنى كلما استغنى

هذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا في تلك النواحي الثلاث ، يتبين القارئ فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه ، كما لا يعدم أن يجد لهم في كل ناحية بعض السيئات ، كنقل الأعمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية ، وغيرها في الألفاظ والأساليب . وكتعمد الفلسفة إلى درجة الخفاء ، والتصور إلى حد الاغراب ، والغلو في المبالغات إلى قمة الاغراق ، وغيرها في المعاني والاختيلاء ، وكعدم التعفف عن الغزل في المذكر ، والانحدار في الخريات ، والاسفاف في المجون ، وغيرها في المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بوجوده كما كان يفعل في الحالتين كثير من القدماء^(١) فان العقل يقضى بالعدل في الحكم لهم وعليهم كالأقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق في ذلك بعض الانصاف^(٢)

(١) من رجال الحالة الاولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان بأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن الحديث وهو الذي جالسه الاصمعي حياة طويلة فما سمعه يحتاج بيت اسلامي وكذلك كان الاصمعي ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الاعرابي المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسرواني » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لأبي تمام فلم يخجل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام »

(٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ولأنه

وربع

فانا واجدون من الحتم ألا ننهي الكلام على الشعر بعد الذي
أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب في تلك النواحي الثلاث
دون أن نتعرض إجمالاً لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة .
هي مواطن الشعر وطبقات رجاله ، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه ،
ثم الغناء ومجالسه ، لا اتصاله الوثيق بالشعر والشعراء
١ - مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة
في حياة اللغة أن بغداد في العصر الأول كانت محط الرحال وكعبة
الآمال ومظهر العظمة والجلال ، لقوة الخلفاء فيه قوة تجماهم مناط تحقيق
الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام ، ولذلك تركز فيها كل شيء وقصدها
ذوو الغايات من كل فن وفي مقدمتهم جبهة الشعراء قصد توطن
 وإقامة لزيارة وإياب . ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا
في النشأة والنسب متعددي الأوطان . كما عرفت أنها بالرغم مما أصابها
في العصر الثاني بقيت مركز الأدب وعش الشعر ولكن في نظام
وخضوع . وقد ظهر من الشعراء في العصرين ست طبقات ، أولها

مرجع النحوى في الشواهد واللغوى في معاني المفردات والتراكيب ، ويقدم
الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على
النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتداءً هذا بناء
فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن
والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن

طبقة بشار من مخضرمي الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد مجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميري ومروان بن أبي حفصة، ومن رجالها رؤبة بن العجاج. وثانيها طبقة أبي نواس التي نشأت في صدر الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو السلمي وسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكلثوم بن عمرو العتابي وأبو الشيص محمد بن رزين ومن رجالها عمارة بن عقيل، والثالث طبقة أبي تمام التي نشأت في آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدراك العصر الثاني وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعي وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلي بن الجهم. والرابعة طبقة البحتري التي ظهرت شاعريتها في أول العصر الثاني وأشهر شعرائها البحتري وابن الرومي وابن الزيات. والخامسة طبقة ابن المعتز في وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو الحسن علي بن محمد البسامي البغدادي. أما السادسة فهي الناشئة في آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزي وأبو بكر الحسن بن علي المعروف بابن العلاف. ومن الشواعر في الأول علمية بنت المهدي. ومنهن في الثاني فضل جارية المتوكل على الله العباسي وكان منزلها مجتمع الأدباء..

وقد عرفت أيضاً أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بإنشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت به ذات استئثار. فأخذ كل شيء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم

يبقى لها إلا نصيب يسير، وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

وإنك بالرجوع إلى ما ذكرنا في التصوير السياسي لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين في الممالك الشرقية لآمارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والساسانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان ، في حين كانت الممالك الغربية عربية كالجمدانين بالجزيرة والشام ، والفاطمين بمصر ، أما الأخشيديون الأتراك بها فلم تكن مدتهم وهي ثلث قرن ذات تأثير . ومن ثم تحكم بأن الشعر في الممالك الغربية كان خيرا منه في الشرقية ، كما تحكم بأنه كان في العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان في الشام والجزيرة خيرا منه في مصر ، وأنه كان في الوسطين خيرا منه في الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة إلى الأقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فمن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فاتحة شعراء هذا العصر وأبو فراس الحمداني وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين الرملي والسري الرفاء وأبو الفرج الواواء وأبو الفرج البغواء وأبو العباس النامي وأبو طالب الرقي وعبد المحسن الصوري وأبو الرقعمق وأبو القاسم الواساني وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمتهم صاحب المعرفة وأبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي وأبو

القاسم أحمد بن محمد اسماعيل بن طباطبا الحسنى وأبو القاسم بن أبي
العفير الأنصارى ومحمد بن عاصم الموقفى وأبو علي الأمير تميم بن
المعز الفاطمي والتهامي وكان في الشام قبل .

ومن شعراء العراق وفارس العصابي وتاج الدولة بن عضد الدولة
البويهجي وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلبى أبو محمد الحسن بن
محمد وابن دريد والقاضي التنوخي أبو القاسم علي بن محمد وابن لنكك
أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن علي النمرى وأبو الحسن
محمد بن عبد الله السلمي وابن نباتة السعدي والشريف الرضى ومهيار
وأبو الحسن علي بن زريق وابن سكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد
الطاهري وأبو الحسن علي بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن علي
المطرائي وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأموني وأبو محمد عبد الله
ابن عثمان الواثق وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاشي والخوانساري
والهمداني وأبو الفتح البستي وأبو الفضل الميكالي وأبو النصر محمد بن
عبد الجبار العتيبي وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النعماني،
وقد كان للنعماني هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس
لغيره مثله بتدوين أخبارهم في كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذي الاقسام
الاربعة، فقد جعل القسم الاول وهو أضخمها لشعراء الشام وماحو اليها
من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثاني لشعراء
أهل العراق وفيه عنى بآل بويه ، وجعل الثالث لشعراء فارس وما اليها
من بخرجان وطبرستان منشأ البويهيين ، وجعل الرابع لشعراء ماوراء

النهر وخراسان مواطن السامانيين والغزنين . وعقد في أول القسم
الاول بابا في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان مما
قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب
العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام . والسبب في تبرز القوم
قديما وحديثا على من سواهم في الشعر ، قربهم من خطط العربية ولا
سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد
العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم .
ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة
الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب
المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف
والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده وينتدب على الجيد
منه فيمجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام
بألن زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا » .

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه في العراق
وفارس ، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالجمدانين في الجزيرة
والشام ، انضم حل الأدب والشعر في خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون
وليسوا للعربية بنصراء ، وبقي ضعيفا في فارس والعراق ، ثم تنزل عن
الهامة التي كانت له في الجزيرة والشام ولكنه ارتفع اليها في مصر لبقاء
الفاطميين . حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب
في نصفه الثاني تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه في فارس وصار

وسطا في العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة في مصر حتى كاد يصل
مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقائه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب
الصليبية أيام بني أيوب . وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم
مرتبة على حسب التنازل في القوة من الغرب الى الشرق

في مصر - ابن زقاق البلقيني وظافر بن القاسم الاسكندر
وأبو الفتوح نصر الله بن عيد الله المعروف بابن قلافس الأزهرى
وعمارة البنى وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وكال
الدين بن النبيه المصرى وابن عتير وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة
وأبو حفص عمر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح
والامير سيف الدين الياروقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى
سنة ٦٥٦ .

في الشام - ابن سنان الخفاجى وابن حيوس الغنوى ومهذب
الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن
على الساماتى والملك الاثمد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبنى وشهاب
الدين أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل المعروف بالشواء الحلبي وأمين
الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي وصدر الدين محمد بن عمر بن
على بن حمويه الدمشقي ونور الدين محمد بن محمد الاسعردى ثم صدر الدين
على بن أبى فرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩

في الجزيرة والعراق - الطغرأتى ودلال الكتب أبو المعالى سعد
ابن على الخزرجى وابن التعاوىذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على
المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر

الحاجري وأبو الطيب أحمد بن محمد المعروف بابن الخلاوى والصرصرى
أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادى والأثير علم الدين أيدمر المحيوى
التركى ثم محي الدين الوترى البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس - صردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخري ومعين
الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى وابن الهبارية السابق فى القصص
ثم ابن الخياط والغزى والارجانى والبيوردى السابقون فى النماذج^(١)

ب - العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ما جاء مقويا لعوامل النهضة الاولى
التي شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة
فلنكتف هنا بذكر أهمها :-

١ - تذوق الخلفاء ورجالات الدولة للأدب - فقد كانوا منذ
أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون
الحسن والأحسن ، قال الربيع بن زياد - قلت للمنصور يوما إن الشعراء
ببائك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم
فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني ، من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد
فإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ولا
بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالبحر فإنما هو لب غطامط فن ليس
فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف ، قال الربيع فانصرفوا
كلهم إلا ابراهيم بن هرمة فإنه قال أنا له ياربيع فأدخلني فادخلته قال فلما
مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نسميهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم .

هات يا بن هرمة فانشده قصيدته التي يقول فيها
 له لحظات عن حفا في سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل
 له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
 إذا ما أتى شيئاً مضى كلذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل
 فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة
 آلاف درهم. وقد تبعه في ذلك ابنه المهدي وحفيده الهادي والرشيدي
 وتناهى ذلك في الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن
 مسلم قدم على الرشيد أعرابي فثل بين يديه فقلت يا أعرابي خذ في
 شرف أمير المؤمنين فاندفع في شعره فقال الرشيد يا أعرابي أسمعك
 مستحسننا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين في هذين - وأشار إلى
 الأمين والمأمون وكان حفا فيه - فقال يا أمير المؤمنين حملتني على الوعر
 القرد وأرجعتني عن السهل الحرد ، روعة الخلقة وبهر الدرجة ونفور
 القوافي على البديهة فأرودني تتألف لي نوافرها ويسكن روعي قال
 قد فعلت وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال يا أمير المؤمنين
 نفسي الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول
 بنيت لعبد الله ثم محمد ذرا قبة الاسلام فاخضر عودها
 لها طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها
 فقال الرشيد وأنت يا أعرابي بارك الله فيك فسل ولا تكن
 مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيذة يا أمير المؤمنين - والهنيذة مائة
 من الابل - فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون
 فوجده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وابسط له في

البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده
فقال الرشيد يسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث
أصحّه وأبلغه ومن البيان أفصحّه وأوضحّه إذا رام أن يقول لم يعجزه
قال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمني الى هذا المعنى فقال
الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك يزيد سادة عبد شمس
وقد كان المأمون كأبيه الرشيد ، أنشده مرة مروان بن أبي حفصة
قوله :-

أضحي إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغلا
فلم يطرب له فساد ذلك وذهب الى عمارة بن عقيل يقول له أعلمت
أن المأمون لا يبصر الشعر فقال له عمارة ومن ذا يكون أعلم به منه
فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه
لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال عمارة إنك والله ما صنعت
شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا في محرابها وفي يدها مسابحها فن
القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو اللطوق بها هلا قلت فيه كما قال
عمك جرير في عبد العزيز بن مروان .

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
فقال مروان الآن أعلمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم في عظام الذنوب ، خرج محمد بن البعيث
على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصفوح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل
فقال المتوكل جلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقة والعفو عنه .

وقد شايخ خلفاء العصر الأول في ذلك رجالا لدولة وأعيانها وقصص
البرامكة في هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء
في التقدم بهم إليهم وإلى الخلفاء ثم بقي خلفاء العصر الثاني من ذلك شبه
ما كان لأسلافهم في الأول ولكن غرض منه وخفض من همتهم جهل
الخدم الأتراك المستبدين عليهم ، بمعاني الشعر وأقدار الشعراء فلم
يظهر بمظهر أسلافه منهم إلا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب
اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة في نواحي البديع والمعاني
ومبادي الخيال ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نفاس
ملوك الدويلات وأمرؤها وأعيانها بعضهم بعضها في النهوض بالأدب
كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث في صدر الكتاب
عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين . فرقى الشعر بهذا النهوض .
أما العصر الرابع فقد أخذ حكمه يسرون نحو الجهل بالأدب إلى الوراء
فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقي للشعر على أيامه وجود في مصر
والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان ، على النحو الذي
ذكرناه في مواطنه وطبقات رجاله مذ الآن .

٢ - عقدم لمجالس الشعر — لعل أول خليفة إسلامي عقد مجالس
للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذي نريده الآن ، عبد الملك بن مرنوا

الخليفة الأموي العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية في كتابنا الثاني الشيء الكثير ، وقد جراه في شبه ذلك أبنائه من بعده وخاصة هشام . ثم جاء العصر العباسي وخلفائه ميل شديد الى هذه المجالس ولكنه لم يظهر واضحا أيام أولهم أبي العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة ليل نهار ، ثم ظهر في عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة الى الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم الى الجديد . وقد سخا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدي فعقد منها الكثير ، عقد يوما مجلسا مروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما تمام الناس دعاه فأنشده .

كأن أمير المؤمنين حمدا رأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم

سقطته به الموت الختوف الرواصد

فأشار اليه فأمسك ، فقال يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع اليكم المعادي فيكم فآتوه مايسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم وأعطاه هرون مثلهما وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ما أعطوه أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفا ثم قال له وسيأتيك مني ما يؤدبك الى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولك وبشرتك وسرورك بما سمعت مني ما سأزدد به شعرا وستسمع ويبغك ، فلا يبلغ ما أعطيتني لشاعر بعدى ، قال أجل قال فأذني في زيارتك قال آذنتك فقال لي فيك وفي أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال لاسطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادي حين

وقم اليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان مهنيا بجمع السلاح
جاسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :
حاز صمصامة الزبيدي من يمين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من ذعاف يمس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذفاف القيون
فاذا ما سلته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
مايبالى من انتضاه حرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأَبصار كالقَبس المشعل ما تستر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
فمنحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين
أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأَزهَر
فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر
فأنهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء ، وكذلك
فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون . وحتى المعتصم على أميته كان
يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث
اليهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور
النيري في الرشيد - وأنشد الأبيات التي تقدمت في المبالغات -

فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميري، فينا من يقول خيرا منه ودخل
فأنشده قصيدته التي منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الاشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه في الظلماء منبججا إذا استنارت لياليه به الغرر
فهش له وبالغ في جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة
البحتری فيها مضرب الأمثال ، ولكن بعده كسدت مجالس الأدب
وقع الشعراء حتى أحياءها ملولا الدويلات في الشام ومصر والعراق
كما عامت آفقا . ثم عاودها الكساد في النصف الأول من العصر الرابع
حتى زالت في نصفه الأخير .

٣ - إثابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما
فيه الكفاية .

٤ - رقى الغناء ومجالسه ، لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار
الشعراء كما ستري في الكلام عليه الآن

ج - الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا في العصر الأموي أن الغناء نهض فيه
وأنهض معه الشعر ، لحاجة الحياة المترفة إليه في مدن الحجاز ، وإذا كان
الترف منذ العصر العباسي الأول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون
الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر في النهوض بالشعر أوضح تأثير
واليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى توخي

السهولة والرشاقة في الأساليب، وتطلب الجمال والرقعة في المعاني، وابتكار
الجديد اللائق في الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر في حضرة
خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير في نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات
الخافية ما يقوى فيه ملكة الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان
التسابق في هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع في أن يكون المجلي
في هذا السباق وفي ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه
فضلاً آخر هو إشاعته في الناس لما هو طبيعي في الإنسان من حب
الغناء والميل إلى استماعه سيمان في ذلك الفرح والحزون لحسن موقعه
في القلب ووصوله دون أن تفاهم آخر إلى أعماق النفس ، نعم كان ذلك
سبباً في أن ياهج الناس بالشعر الذي يغنى فيه ويكثرُوا إنشاده في
المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بتريد أبياته استمتاعاً بمعانيها أو
الترنم بها استعادة لا نغامها . ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إزاء وثيق ،
بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أتقن
الغناء وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعاً وأكثر عدداً من مجالس الشعراء
وإليك مجلساً منها للرشيدي

جمع الرشيديوما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كإبراهيم الموصلي
وابنه إسحق ، ونصره الجديد كإسماعيل بن جامع^(١) ثم أمر إبراهيم أن

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسي على القديم فلما جاء إبراهيم
ابن المهدي لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ،
وانضم إليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبي العوراء ويحيى المكي وعمر
بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقي إبراهيم الموصلي على القديم وانضم إليه

يغنى فغنى الصوت

وقفت على ربح لينة ناقتي فزالتي أبكى عنده وأخطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبشه تكلمني أحجاره وملاعبه
فكان كل من من في المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان

يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى

كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العيينين والجيـدا
أجرى على موند منها فتخلفني فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأننى حين أمسى لا تكلمني ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا
فاستخف الطرب الرشيدا لما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعذك الحشر
وإني لتعرونى لذكراك هـزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هزتك حتى قليل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قليل ليس له صبر

فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طربا وقال « والله ما الغناء الذى يلين
العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طربا إلا غناء
إسحق » ثم أوما إلى المغنين أن يحلوا صنفوفهم وفرق فيهم الجواثر بقدر
أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر ، وأكرموا المغنين

جماعة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزير بن دحمان ومحمد بن الرف وأحمد
بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن اتقنوا ما خرجوا فيه
فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندمان والسجاري وأسقطوا
الكلفة عنهم وكانوا يزورونهم في منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون
فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل
بعضهم على الغناء يتعاهه ، كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد
منهم كإبراهيم بن المهدي وأبي عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدي
وعبد الله بن الأمين وأبي عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز .
بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتأحين كالواثق والمنتصر والمعتز
والمعتمد والمعتضد ، وكل ذلك ذكره صاحب الأغاني وساق على بعضه
الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل
الذي كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف وإليك واحدا منها .

جمع مرة بين المشدود وزنين وديس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه واخضر فوق حجاب الدر شاربه
وأشرق الورد في نسرين وجنته واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين

الحب حلو أمرته عواقبه وصاحب الحب صب القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعى يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرف وداعى الشوق يهتف بي ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى ديس

بدر من الأئس حفته كواكبه قد لاح طارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخالفه أو ينطق القول يوما فهو كاذبه

عاطيته كدم الأوداج صافية فقام يشد وقد مالت جوانبه
ثم عادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة، في كل ثلاثة أصوات
كما رأيت في هذه، حتى تم لكل أحد عشر صوتا، فطاب أبو عيسى من
المشدود وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغنوا إياه فأثابهم
جميعا ولولا أنه قطعهم ما انقطعوا، وهذا هو الصوت :-

يا لجة الدمع هل للدمع مرجوع أم الكرى من جفون العين ممنوع
ما حيلتي وفؤادي هائم أبدا بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسي بفرقتة فالقلب من حرق الهجران مصدوع
ما أرق العين إلا حب مبتدع ثوب الجمال على خديه مخلوع
هذا وقد مال القوم استكمالاً للتمتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا
الجواري ويعلموهن الغناء، فكان من ذلك قينات يجعلن إلى جمال الأنوثة
أدب الشعر أو صمعه المغنين، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة
إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائة دينار فإذا ما ثقفوها
باعوها بعشرات الآلاف^(١) وغالى الناس في اقتنائهم حتى كان عند
الرشيد ثلثمائة من المغنيات، واليك حكاية عنان جارية الناطفي في أدبها
رواية بكر بن حماد وفي وصولها إلى الرشيد رواية إبراهيم بن عمر .
قال بكر - وقد انتهى إليه أدبها - خرجت معترضا لها فمارعني إلا الناطفي
مولاهما قد ضرب على عضدي فقال هل لك فيما سئح من طعام وشراب
ومجالسة عنان قلت ما بعد عنان مطلب فمضينا حتى أتينا منزله فدخل

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجواري بمائة ألف دينار بل روى
أن الأمين عن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبيذره في ملوه ببعيده.

فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إني
كسلالة فحمل عليها بالسوط ثم قال لي ادخل فدخلت ودسها يتحدر
كالجمان في خدها فطمعت بها فقالت

هذي عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيمته
ثم قلت أجيزي فقالت

فليت من يضربها ظالما تحبف كفاه على سوطه
فقلت إن لي حاجة فقالت هاتها فمن سببك أودينا فقلت لها بيت وجدته
على ظهر كتابي لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها
فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس في أحشائه فتكلم
قال فأطرقت ثم أنشدت

ويبكي فأبكي رحمة لبيكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
فقلت لها فما عندك في إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد جعلت خدي له ملاذا
فأطرقت ثم قالت

فعاثبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال إبراهيم - جالس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من
حضر من المغنين بأبيات جرير التي يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا

فطرب طرباً شديداً وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد
يجيز هذه الأبيات بمثل من وله هذه البدرة - وكانت بين يديه بدرة من
دنابير - قال فقالوا فلم يصنعوا شيئاً فقال خادم على رأسه أنا بهاذلك

يا أمير المؤمنين قال شأتك فاحتمل البدره ثم أسرع الى الناطق فقال له
استأذن لي على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك
وبما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذي قد قلته داء بقلبي ما يزال كميناً
قد أينعت ثمراته في طينها ومسقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقولوا يسيدى إن القلوب إذا هوين هويننا
فدفع اليها البدره ورجع بالأبيات إلى هرون فقال له ويحك من قالها
قال عنان فقال خامت الخلافة من عنقي إن باتت إلا عندي ، وبعث إلى
مولاهما فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا
مؤلفات ^(١) وزادها رقياً اختصاص كل مغن باجن أو أكثر يضع فيه
الكثير من الأصوات ^(٢) كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذي هو ممدد

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتباً جلها ضائع الآن منها كتاب
النغم للخليل ، وأخبار المغنين لإسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه ، والآداب
الرفيعة في الغناء والمناديات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما ذكر أن لحظته
البرمكي وحسن بن موسى النصيبى تأليف فيه أيضاً . والباقي الآن هو الأغاني
ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وعلب عليه
الصبغة الأدبية في أخبار المغنين والشعراء

(٢) كانفراد فليح بن أبي العوراء بالواقيسى وإبراهيم الموصلى
بالمخوري وإسحق ابنه بلحن التخنيث . على أن إسحق افتن جداً فصنع الحانا
لا يقدر عليها شبعان ، وأخرى لا يقدر عليها متكى حتى يقعد وثلاثة لا يجيدها

الاصوات ، صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناي وطبل
وغيرها ، وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون
بأبداع الأوصاف . قال ابن الرومي يصف القيان وفي أيديهم الآلات

وقيان كأنها أمهات طاطفات على بئها حوائى

مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران^(١)

أمه دهرها تترجم عنه وهو بادی الغنى عن الترجمان

وكان القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن

ينقشن بعض أبيات الشعر في أكتفهن بالحناء ، أو يكتبنها على ما يرتدين

من ملابس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء في كفها

ليس حسن الخطاب زين كفى حسن كفى زين لكل خضاب

وكتبت أخرى على عصابةها

ألا بالله قولوا يارجال أشمس في العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بي طاب العيش في الصينف وبى طاب السرور

ممسكى ينقى أذى الحر م إذا اشتد الحر ———— رور

الندى والجود فى وجهه ———— أمين الله نور

ملك أسامه الشبهه ———— وأخلاه النظير

قاعد حتى يقوم . وزاد عنه الفارابى بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة
فضرب لحناً أصححهم وآخر أبسكاهم وثالثاً أنامهم ثم قام (١) الكران المنج

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغيا الأوج العصرين الأول والثانى .
وناله فى الثالث ما نال الأدب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا
منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آ نفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله
أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى ما لا يحتاج اليه الشعر
من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء

السباعى يرمى



فهرس

تاريخ اللغة العربية في العصر العباسي

« بغير الدراسة والمقرب »

مقدمات

٦٠ - ٣

٨ - ٣ تصوير عام للحال السياسية في هذا العصر الطويل وتقسيمه
أربعة عصور

٢٣ - ٩ طابع كل عصر وأثره العام في حياة اللغة من حيث الآداب
والعلوم

٣٤ - ٢٤ مائراً على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجم بها

٤٦ - ٣٥ غلبة الفرس في هذا التأثير وإلى أي درجة كان في اللغة مداه

« من ناحية الأغراض والمقاصد ، وناحية المعاني والأخيلة ،

وناحية الألفاظ والأساليب »

٦٠ - ٤٧ انتشار العامية واختلافها باختلاف الأقاليم

الخطابه	١٠٨—٦١
نماذجها « ٢٢ نموذجها »	٨٤—٦١
حياتها « دواعيها وأغراضها ومميزاتها »	١٠٨—٨٤
الكتابه	٣١٠—١٠٩
أنواعها « رسائل ، توقيعات ، قصص ، مقامات ، كتابة عامية »	١١٠—١٠٩
نماذج الرسائل « في العصور الأربعة ٤٧ نموذجها »	١٤٩—١١١
نماذج القصص والمقامات « ٤ نماذج »	١٦٤—١٤٩
أساليب الرسائل ومميزاتها وطبقات رجالها في العصور الأربعة مع التعريف الوافي بإمام كل عصر	١٩٧—١٦٥
دواعيها وأغراضها ومكانة رجالها	٢٣٠—١٩٧
التوقيعات « نماذجها وحياتها منذ نشأتها إلى انقراضها »	٢٤٣—٢٣٠
القصص وحياتها منقولة وموضوعة مع الموازنة بينها وبين القصة الآن	٢٦٣—٢٤٤
المقامات وحياتها منذ نشأتها إلى نهاية العصر	٢٧٦—٢٦٤

٢٧٧ - ٣١٠	تدوين العلوم والكتابة العلمية
٢٧٧ - ٢٧٩	تمهيد عام وبيان لأنواع العلوم وأقسامها
٢٧٩ - ٢٨٥	العلوم الشرعية . « التفسير والقراءات . الحديث .
	الفقه وأصوله . الكلام والمنطق »
٢٨٥ - ٢٩١	العلوم اللسانية « النحو والصرف . متن اللغة . البلاغة .
	الادب والتاريخ »
٢٩١ - ٣٠٣	العلوم الكونية « من طبيعية ورياضية وإلهية
	وسياسية »
٣٠٣ - ٣٠٥	الكتابة العلمية أو لغة التأليف في كل من العلوم الإسلامية
	« شرعية ولسانية » والعلوم الكونية
٣٠٦ - ٣١٠	مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

الشعر	٣١١-٤٤٢
نماذج « في العصور الأربعة ٣١ نموذجاً »	٣١١-٣٤٧
تمهيد لحياته من النواحي الثلاث الآتية	٣٤٧-٣٤٨
ناحية الأغراض والفنون « من مناح عشرة »	٣٤٨-٣٧٥
« المعاني والأخيلة « من مناح ستة »	٣٧٥-٤٠٤
« الالفاظ والأساليب « من مناح عشرة »	٤٠٥-٤٢٠
توجيه النظر إلى مال المولدين في تلك النواحي من حسنات وسيئات	٤٢١-٤٢٢
مواطن الشعر وطبقات رجاله	٤٢٢-٤٢٨
العوامل المساعدة لأسباب نهوضه	٤٢٨-٤٣٤
الفناء ومجالاته وعلاقة ذلك بنهضة الشعر	٤٣٤-٤٤٢
الفهرس	١-٥